

الوقت من ذهب

مكتبة القراءة والثقافة الادبية

المقدمة

تأليف

د. احمد فريد رفاعى

الناشر

شركة نوابغ الفكر



شركة نوابغ الفكر ، القاهرة

البريد الالكتروني :

Nawabgh_elfakr@hotmail.com

هاتف: 25936402

فاكس: 27865553

فهرست الهيئة المصرية العامة

لدار الكتب والوثائق القومية :

المقدمة

تأليف : د/ احمد فريد رفاعى

ط-1 القاهرة : شركة نوابغ الفكر 2014

عدد الصفحات :

١- الادب العربى

١-العنوان

رقم الايداع : 2014/26936

الترقيم الدولى: 5-35-6415-977-978

اِنِّى رَأَيْتُ اَنْهُ لَا يَكْتُوبُ اِنْسَانٌ كِتَابًا
 فِى يَوْمِهِ اِلَّا قَالِ فِى غَدِهِ : لَوْ غَيْرَ هَذَا
 لَكَانَ اَحْسَنَ ، وَلَوْ زَيْدٌ كَذَا لَكَانَ سَيِّئًا
 وَلَوْ قُدَّمَ هَذَا لَكَانَ اَفْضَلَ ، وَلَوْ تَرَكَ
 هَذَا لَكَانَ اَجْمَلَ ، وَهَذَا مِنْ اَعْظَمِ الْعِبَرِ ،
 وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِثْلَاءِ النَّفْصِ عَلَى
 جُمْلَةِ الْبَشَرِ .

الْعَمَادُ الْأَصْفَحَانِى

إهداء الكتاب

ألى المرزحومين الباقيين على وجه الدهر ، الزعيم ،
« سعد زغلول » والإمام « محمد عبده » واللغوى
« حمزة فتح الله » وألى سادتي المبرزين ، مفخرة
هذا العصر ، « أحمد نجيب الهلالي » والمصلح
« محمد مصطفى المراغى » والكاتب « طه حسين »

أساتدتي الخالدين النابيين :

لكم في المعارف والثقافة ، أيادٍ في الإصلاح ،
ناصعات خالديات ، ولكم في المعاهد الدينية ،
وربوع العلم والتعليم ، وثبات على الدهر باقيات ،
ولكم في اللغة والأدب والتجديد آثارٌ شاهدات ،

وَلَكُمْ يَنْ عَارِفِي فَضْلِكُمْ مِنْ حَامَّتِكُمْ وَمُصْلِحِي
وَطَنِكُمْ ، مِنْ نَاطِقَاتٍ ؛ وَإِنَّهُ لِلزَّامِ فِي عُنْقِي ،
وَفَرَضٍ مُقَدَّسٍ عَلَى مِثْلِي ، إِزَاءَ مَا حَبَوْتُمُونَا مِنْ
إِحْسَانٍ ، إِثْرَ إِحْسَانٍ ، وَقَلَّدْتُمُونَا مِنْ خَدَمَاتٍ ،
تَشْلُوهَا خَدَمَاتٌ ، أَنْ أَتَقَدَّمَ فِي وِلَاءٍ وَتَوَاضِعٍ
بِهَذَا الْأَثَرِ مِنَ الْمَجْهُودِ الْمُضْنِي الْكَبِيرِ ، إِلَى
شَخْصِيَّاتِكُمُ الْخَالِدَةِ الْفَذَّةِ ، النَّافِعَةِ الْجَلِيلَةِ ، فَلَقَدْ
كَانَ كُلُّ مَنْ سَادَتِي عِلْمُ اللَّهِ ، الدَّيُّوبَ فِي مَعْدَاتِهِ
وَمَرَاحَتِهِ ، عَلَى مَصْلَحَةِ أُنْبَاءِ وَطَنِهِ ، السَّاهِرِ
فِي بُكُورِهِ وَأَصَالِهِ ، عَلَى خَيْرِ الْوَطَنِ وَأَهْلِهِ ، فِي
حَرَارَةٍ وَحِمِيَّةٍ ، وَحُرِّيَّةٍ وَوَطَنِيَّةٍ ، وَفِي أُنَاةٍ وَحِكْمَةٍ ،
وَكِيَاسَةٍ طِعْمَةٍ ، وَفِي تَثَبُّتٍ وَمَتَانَةٍ ، وَفِطْنَةٍ وَذَهَانَةٍ .

وَلَسْتُ أَجِدُ عَلَى صِفَاتِكُمْ أَيُّهَا الْمُصْلِحُونَ الْأَجْلَاءَ ،
وَالْعَبَاقِرَةُ الثُّبَغَاءُ ، وَالْأَفْذَاذُ الثَّبَتُ الْبُلْغَاءُ — وَقَدْ
هَذَّبْتُكُمْ الْآدَابُ ، وَأَحْكَمْتُكُمْ التَّجَارِبُ ، إِلَى
جَانِبِ حَيَاتِكُمُ الْمَلِيَّةِ — بِنَشَاطٍ فِي دُورِ الْمَعَارِفِ
مَذْكُورٍ ، وَمَجْهُودٍ فِي الْإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ مَبْرُورٍ ،
وَأَثَرَ فِي اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ مَشْهُورٍ ، أَكْثَرَ انْطِبَاقًا
مِنْ قَوْلِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ سَمَاعَةَ ،
يَرْتَادُ عَظِيمًا : « لَهُ حُسْنٌ مِنْ أَدَبٍ وَلِسَانٍ ، تُقَعِّدُهُ
الرِّزَانَةُ ، وَيُسْكِنُهُ الْحِلْمُ ، قَدْ فُرَّ عَنْ ذِكَاةٍ وَفِطْنَةٍ ،
وَعَضَّ عَلَى قَارِحَةٍ مِنَ الْكَمَالِ ، تَكْفِيهِ اللَّحْظَةُ ،
وَتُرْشِدُهُ السَّكْتَةُ ؛ لَهُ تَوَاضَعُ الْعُلَمَاءِ ، وَفَهْمُ
الْفُقَهَاءِ ، وَجَوَابُ الْحُكَمَاءِ ، يَكَادُ يَسْتَرِقُّ قُلُوبَ

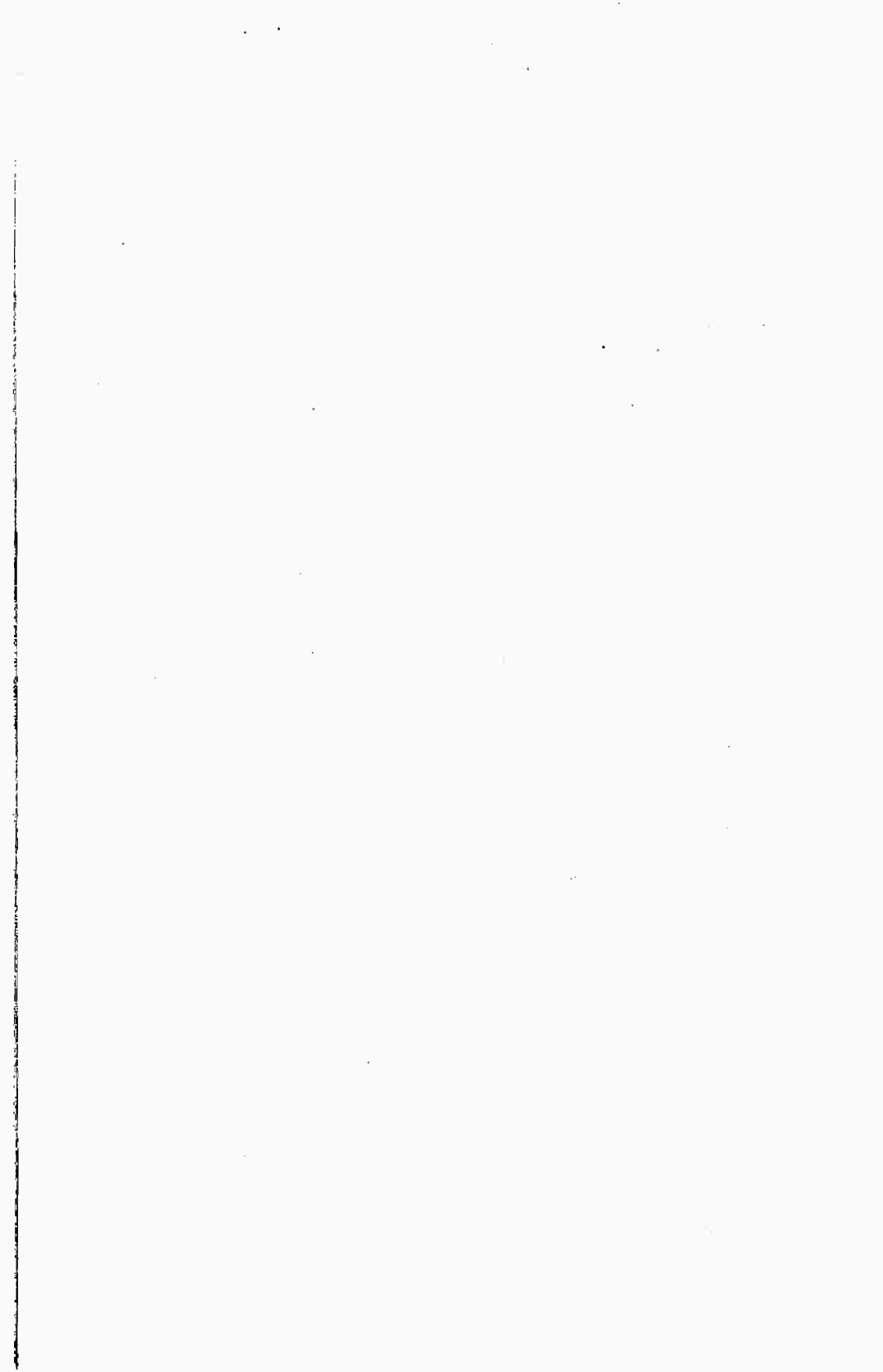
الرَّجَالِ بِحَلَاوَةِ لِسَانِهِ ، وَحُسْنِ بَيَانِهِ ؛ دَلَائِلُ الْفَضْلِ
عَلَيْهِ لَأَمْحَةٌ ، وَأَمَارَاتُ الْعِلْمِ لَهُ شَاهِدَةٌ ، مُضْطَلَعًا
بِمَا اسْتَنْهَضَ ، مُسْتَقِلًّا بِمَا حُمِّلَ »

وَإِنِّي لَأَسْتَمْطِرُ دِيمَ رَحْمَتِهِ الرَّبَّانِيَّةِ عَلَى مَنْ
مَاتُوا ، وَإِنْ كَانُوا بِمَخَالِدِ آثَارِهِمْ ، الْبَاقِينَ مَدَى الْحَيَاةِ ،
وَأَبْتَهَلُ إِلَى الْمَوْلَى الْكَرِيمِ ، صَادِقًا مُخْلِصًا ، أَنْ
يُوفِّقَ الْأَحْيَاءَ فِي خُطُوتِهِمُ الرَّشِيدَةَ لِخَيْرِ الْبِلَادِ ،
وَأَنْ يَكْلَأَهُمْ بِظُلِيلِ رِعَايَتِهِ ، وَوَفِيرِ عِنَايَتِهِ ، فِيمَاهُمْ
مَاضُونَ فِيهِ فِي صَمْتٍ وَاتِّسَادٍ ، وَطُمَأْنِينَةٍ وَسَدَادٍ ،
مِنْ نَهْضَتِهِمُ التَّجْدِيدِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَأَنْ يَمُدَّ فِي حَيَاتِهِمْ
الْإِصْلَاحِيَّةِ الرَّشِيدَةَ ، الْخَافِلَةَ بِكِبَرِيَّاتِ الْأَعْمَالِ ؛
وَلَيْسَ بَعْدَ الْإِرْهَاصِ إِلَّا الْإِعْجَازُ .

« وَبَعْدُ » فَارْجُوا أَيُّهَا السَّادَةُ الْعُظَمَاءُ ، وَالْمُصْلِحُونَ
 الْأَجَلَاءُ ، وَالْمَجْدُدُونَ الْأَلْبَاءُ ، أَنْ تَتَكَرَّمُوا بِقَبُولِ هَذَا
 الْأَثَرِ عَلَى ضَوْؤِ وَلَتِهِ ، لِمَا أَتَرَعْتُمْ بِهِ قَلْبَ صَاحِبِهِ مِنْ
 الْحُبِّ وَالْوَلَاءِ ، وَأَلْهَجْتُمْ بِهِ لِسَانَهُ مِنَ الشُّكْرِ
 وَالثَّنَاءِ ، وَأَحْطَطْتُمْ بِهِ شَخْصَهُ مِنَ التَّرَعِّيَةِ وَالْعَزَاءِ :
 اعْتِرَافًا بِفَضْلِكُمْ عَلَيْهِ ، وَإِحْسَانًا لَكُمْ إِلَيْهِ .
 وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ .

المخلص
 احمد فريد رفاعى

دار المأمون فى } ٧ شعبان سنة ١٣٥٤
 ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٥



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب المقدمة

أَحْمَدُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَسْتَهْدِيهِ^(١)، وَأَسْتَمِدُّ مِنْهُ الْعَوْنَ
وَأَسْتَجِدِيهِ^(٢)، وَأَسْتَلِمُ مِنْهُ فَيْضَ الرَّحْمَةِ وَسِدْرَةَ^(٣)
الصَّوَابِ ؛ وَأَصْلِي عَلَى مَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ خَيْرَ كِتَابٍ ،
وَأَسْتَنْزِلُ شَايِبَ^(٤) رَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ عَلَى رُسُلِهِ
وَأَنْبِيَائِهِ ، وَأَفْزَعُ إِلَيْهِ فِي التَّمَاسِ الْقُدُورَةِ الصَّالِحَةِ
بِأَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ ؛ وَأَعْتَمِدُ عَلَيْهِ وَحْدَهُ فِيمَا
انْتَوَيْتُهُ مِنَ التَّوْفِيقِ فِي خِدْمَةِ الْوَطَنِ وَأَبْنَائِهِ .

(١) السين والناء للطلب أى أطلب هدايته (٢) أطلب جدواه أى
كرمه (٣) غاية الصواب (٤) جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر
والمراد فيض رحمتك

« وَبَعْدُ » فَإِنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ
 نَفَائِسَ وَثَرَوَاتٍ ، وَرَوَائِعَ وَأُمَمَاتٍ ، وَفُنُونٍ وَعُيُونٍ ،
 وَغُرَرٍ ^(١) وَدُرَرٍ ، وَطُرْفٍ ^(٢) وَمُدَجٍ ^(٣) ، وَكُنُوزٍ وَإِفَادَاتٍ ،
 وَمَوَاعِظَ وَثَقَافَاتٍ ؛ مَا زَالَتْ الْعِنَايَةُ بِالْقِرَاءَةِ
 فِيهَا بَعْدُ فِي إِبَانِهَا ^(٤) ، وَلَمْ تَذَرُجْ مِنْ حِجْرِ أُمَمِهَا ،
 وَشَدَّ مَا تَحْتَاجُ تَوَالِيْفَهَا بَعَثًا وَتَجْدِيدًا ، وَبِنَاءً وَتَشْيِيدًا ،
 وَتَشْدِيدًا وَتَهْدِيًّا ؛ فَلَمْ تُتَقَارِقْ بَعْدُ مَهْدَهَا ، وَلَمْ
 تُوجَّهْ كَغَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ تَوَجُّعًا يَتَّفِقُ وَالزَّمَنَ
 وَالْبَيْئَةَ ، بَلْ مَا زَالَ الْجُمُودُ فِيمَا يَقْرَؤُهُ النَّظَامِيُّونَ
 مِنْ طَلَبَتِهَا فِي دُورِ التَّعْلِيمِ مَمْنُوسًا ، وَالْإِمْسَاكُ عَلَى

(١) جمع غرة وهي في الأصل يياض في جبهة الفرس والمراد بالغرر هنا

الحاسن الفذة (٢) ج طرفة وهي الجديد أى وفيها الجديد من اللفظ والمعنى

(٣) ما حسن من الأحاديث والأصل في الملحة المهابة (٤) بدء حياتها

كِتَابٍ مُعَيَّنٍ فِي أَكْثَرِ سِنِي الدِّرَاسَةِ مُحْسُوسًا ،
وَمَا بَرَحَتْ رُوحُ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى ضَارِبَةً بِجِرَانِهَا^(١) ،
وَمَظَانُنَا الْمُعْتَبَرَةُ ، وَآثَارُ شُيُوخِ الْأَدَبِ ، وَأُمَمَةُ الثَّقَافَةِ
مِنْ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، مَنْسِيَّةٌ فِي كَنَاهَا^(٢) ؛ وَبَيْنَمَا يُعْنَى
الْغَرِيبُونَ بِتَعَدُّدِ أَبْوَابِ الْقِرَاءَاتِ ، وَإِصْدَارِ مُتَبَايِنِ
الطَّبَعَاتِ ، وَإِسْعَافِ الْقَارِئِينَ بِمُخْتَلَفِ الثَّقَافَاتِ ؛
فَإِنَّا لَمْ نُقَدِّرْ بَعْدُ أَوْقَاتَ الْحَيَاةِ الَّتِي تَقْطَعُنَا بِشَتَّى
وَأَجِبَاتِهَا وَمُسْتَابِعِ أَعْبَائِهَا ؛ وَلَمْ نَلْبَسْ مَعَ كُلِّ زَمَانٍ
بُرْدَتَهُ^(٣) ، وَلَمْ نَذُرْ مَعَ الدَّهْرِ دَوْرَتَهُ ؛ وَبَيْنَمَا يَقْرَأُ
طَالِبُنَا الْمِصْرِيُّ فِي الْبَرَامِجِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ مَثَلًا فِي
مُخْتَلَفِ سِنِي الدِّرَاسَةِ شَيْئًا لِشَكْسِيرٍ وَآخَرَ لِشَكْرِي

(١) أى ثابتة مستقرة فى كل ناحية (٢) الكنى الوفاء والثوى أى

أى ما برحت مغمورة (٣) مظهره ولونه أى لم نساير الزمان

وَتَالِثًا لِدِكْنَزٍ وَرَابِعًا لِكِبْلِنَغٍ وَهَلُمَّ جَرًّا ، وَثِنْمَا يَقْرَأُ
الرَّاسِبُ مِنْ أُنْبَائِنَا غَيْرَ مَا قَرَأَهُ فِي عَامِهِ السَّابِقِ ،
حَتَّى لَا تُصِيبَهُ الْمَلَالَةُ وَرُكُودُ الرَّغْبَةِ ، وَأَنْطِفَاءُ
جَذْوَةِ الْمِيلِ ، وَحَتَّى لَا تَعْتَوِرَهُ ^(١) السَّامَةُ ^(٢) وَالتَّبَرُّمُ
وَالْإِنْصِرَافُ ، وَحَتَّى يَتَجَدَّدَ لَدَيْهِ الْإِنْكِبَابُ عَلَى الدَّرْسِ ،
وَالْتَّطَلُّعُ إِلَى مَا هُوَ طَرِيفٌ ؛ إِذْ بِهِ فِي الْعَرِيَّةِ
— حَتَّى عَهْدٍ قَرِيبٍ — لَا يُبَارِحُ كِتَابًا ، مَهْمَا كَانَ
آيَةً فِي الْإِفَادَةِ وَالرَّوْعَةِ ^(٣) ، فَإِنَّ الْبَقَاءَ عَلَى طَعْمٍ وَاحِدٍ
لَا يَسْتَحِثُّ الشَّهِيَّةَ ، وَلَا يُحْيِي الْقَابِلِيَّةَ ، وَيَكَادُ
يَجْعَلُ الْمَلَكَةَ آيَةً ؛ وَيَحْضُرُ الْقِرَاءَةَ فِي الْعَيْنِ
دُونَ الْخَاطِرِ ^(٤) ، وَيَقِفُهَا عَلَى الْبَصَرِ دُونَ الْبَصِيرَةِ ؛

(١) لا تعتريه (٢) النشأوم (٣) الروعة الجمال الفاتن (٤) الذهن

وَكَمْ تَسَاءَلَ الْمُفَكِّرُونَ عَنْ حِكْمَةِ الْإِحْجَامِ دُونَ
 إِمْتِنَاعِ الشَّبَابِ بِمَا دَلَّتْ تَجَارِيِبُ الْعَرَبِ عَلَى إِصَابَتِهِ
 لِلْمَحَبَّةِ^(١) مِنْ إِحْيَائِهِمْ ثُرَاتَ كُتَابِهِمِ النَّابِهِينَ ،
 وَقَصَاصِهِمِ الْمَعْرُوفِينَ ، وَأَدْبَائِهِمِ النَّابِغِينَ ،
 وَشُعْرَائِهِمِ السَّاحِرِينَ ، وَبُلَغَائِهِمِ الْمُتَفَوِّقِينَ ، فِي
 طَبَعَاتٍ بِحَجْمِ الْجَنْبِ ، يَدْرُسُهَا الطَّالِبُ لِيُصِيبَ مِنْهَا
 عِلْمًا جَدِيدًا^(٢) ، وَيُقَوِّمَ بِهَا لِسَانًا حَدِيدًا ، وَذِهْنًا رَشِيدًا ؛
 وَلِمَاذَا لَا تُعْنَى بِحُسْنِ الْأَخْتِيَارِ ، وَصَفْوَةِ الْأَعْتِبَارِ ،
 وَأَنْبَاءِ الْأَخْيَارِ ؟ وَلِمَاذَا لَا نَدْرُسُ فَذَلِكَا^(٣) عَنْ
 الشَّخْصِيَّاتِ الْبَارِزَةِ ؟ وَلِمَاذَا لَا نُجَدِّدُ طُرْفًا مِنْ

(١) جادة الطريق (١) ما خلفه السلف (٢) أى مشحوداً

كالسيف الحديد الماضى (٣) جمع فذلِكَ وهي إيجاز لموضوع شامل
 وإجمال لما فصل أولاً

المؤلفات الدارسة^(١)؟ ولماذا لا نغنى بيت روح
القراءة في الجميع، في ساع فراغهم، بله أوقات
تحصيلهم؟ ولماذا لا نحاول رفع مستوى القراءة،
وقد انحطت إلى ما هو تافه رخيص، من قصص
الغرام، وأحاييل^(٢) الإجرام، ومفاجآت البوليبيات،
والإسفاف بالبدئات، وسياسة قتل الوقت سدى
في غير نفع ولا إفادة، والوقت — علم الله —
من ذهب، بل يذهب الذهب إذا أسيء اضطناعه،
ويبقى إنتاج الزمن إذا حسن انتهازه، وأحكم
اقتطاعه، وتدبر في تَصْرِيفِهِ، ونهَج فِيهِ صَاحِبُهُ

(١) التي تقدم عهدا وعفت (٢) شرك (٢) تتبع سوءات
الناس بهجر العقول وساقطه

مَنْهَجِ الْعَامِلِ الدَّوْبِ ، لَا السَّادِرِ ^(١) اللَّعُوبِ ^(٢) ؟

لَقَدْ مَرَّتْ تِلْكَمُ الْخَوَاطِرُ سِرَاعًا عَلَى كَاتِبِ
هَذِهِ السُّطُورِ ، حِينَمَا قَرَأْتُ الْبَحْثَيْنِ الْمُتَمَتِّعَيْنِ
لِجَامِعَةِ الْجَيْبِ الْأَمْرِيكِيِّ ، الَّتِي أَشْرَفَ عَلَى نَشْرِهَا
الْأُسْتَاذَانِ الدُّكْتُورُ لِيَامَانُ أَبُوتُ وَأَسَادُونُ دِيكَنْسُونُ
الْأَمْرِيكِيَّانِ عَامَ ١٩٢٥ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : وَقَدْ
انْتَهَجْتُ جُلَّ دُورِ النِّشْرِ وَرِجَالَاتِ التَّعْلِيمِ هُنَالِكَ
هَذَا الْمَنْهَجَ الْقَوِيمَ مِنْ إِصْدَارِ سِلْسِلَةِ كُتُبِ
الْقِرَاءَةِ الْأَدَبِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ لِلْجَيْبِ ، فَسَلَكُوا فِي عَقْدِهَا
الْمُعْتَبَرِ مِنْ آثَارِ السَّلَفِ ، وَالنَّافِعِ الْمُفِيدِ مِنْ
مُؤَلَّفَاتِ أُمَمَةِ الْجَهَابِذَةِ ، وَكِتَابَاتِ نُبْعَاءِ الْأَسَاتِذَةِ ؛

(١) الذي لا يبالى ولا يهتم بما صنع (٢) من صيغ المبالغة أى كثير اللعب

لِمَاذَا لَا تَنْسُجُ - فِي مُثَابَرَةٍ وَحُسْنِ مُوَاتَاةٍ^(١) -
 عَلَى مِنْوَالِهِمْ ، وَتَتَرَسَّمُ - فِي جَلَدٍ وَطُولِ أَنَاةٍ -
 مُسَدَّدَ خَطُواتِهِمْ ؟ وَلِمَاذَا لَا نَجْعَلُ مِنَ الْقِرَاءَةِ فَنًّا
 مُحِبًّا إِلَى النُّفُوسِ ، ضَارِبًا بِسَهْمٍ وَافِرٍ^(٢) فِي مُخْتَلَفِ
 الْفُنُونِ وَالذُّرُوسِ ؛ فَمَنْ أَدَبٍ رَائِعٍ ، وَأُسْلُوبٍ
 جَامِعٍ ؛ إِلَى أَخْبَارٍ عَنِ الْأَذْكِيَاءِ ، وَقِصَصٍ عَنِ
 النُّبَغَاءِ ، وَفَذَلَكَاتٍ عَنِ الْأَدَبَاءِ ، وَمَقْطُوعَاتٍ مِنَ
 الْقُدَمَاءِ ، وَحِكْمَةٍ فِي الْأَخْلَاقِ ، وَمَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ
 فِي التَّارِيخِ ؟ وَلِمَاذَا لَا نَعْمَلُ عَلَى بَعَثِ أَثَارِ :
 ابْنِ الْمُقَفَّعِ ، وَالْغَزَالِيِّ ، وَابْنِ ظَفَرٍ ، وَيَاقُوتَ ،
 وَابْنِ مَسْكُويَةٍ ، وَالْجَاحِظِ ، وَعَبْدِ الْحَمِيدِ الْكَاتِبِ ،

وَابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ ، وَالْقَالِي ، وَالْمُبَرَّد ، وَابْنِ بَسَّام ،
وَالثَّعَالِبِي ، وَالطَّبْرِي ، وَالْيَعْقُوبِي ، وَالْمُسْعُودِي ،
وَالصَّابِي ، وَالْجَهْشِيَارِي ، وَغَيْرِهِمْ ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ
رُؤُوسِهِمَا^(١) ، فِي ثَوْبٍ مِنَ الْحَيَاةِ قَشِيبٍ^(٢) ، وَشَبَابٍ
بِهَيْجٍ بَدِيلٍ عَنْ مَشِيبٍ ، وَضَبْطٍ وَشَرْحٍ ، وَبَيَانٍ
وَوَضَحٍ ؟ ثُمَّ لِمَاذَا لَا نَخْلُقُ مِنْ شَبَابِنَا رُءُوسًا بِالْعِلْمِ
عَامِرَةً ، وَبِصُنُوفِ الثَّقَافَاتِ مُتَبَصِّرَةً ، وَبِأَوْقَاتِهَا
ضَنِينَةً ، وَعَلَى سَاعِ فَرَاعِهَا حَرِيصَةً ؟ ثُمَّ لِمَاذَا
نَحْرِمُ طُلَّابَ الْعَرِيَّةِ هَذِهِ الذَّخَائِرَ النَّفِيسَةَ ،
وَالْجَوَاهِرَ الْكَرِيمَةَ ؟ وَلِمَاذَا لَا نُحَارِبُ الْقَالَ
وَالْقِيلَ ، وَإِضَاعَةَ الْوَقْتِ سُدًى بَدَدًا ؟

ثُمَّ لِمَاذَا نَحْرِمُ طُلَّابَ الْعَرَبِيَّةِ - سَوَاءٍ فِي
 مَدَارِسِنَا ، أَوْ فِي بُيُوتِنَا ، أَوْ فِي أَوْقَاتِ رِيَاضَتِنَا ،
 وَانْتِقَالَاتِنَا مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ - انْتِهَابَ هَذِهِ الذَّخَائِرِ
 النَّفِيسَةِ ، وَالتَّهَامِ هَذِهِ الْأَعْلَاقِ ^(١) الْكَرِيمَةِ ،
 فَنُصِيبُ أَهْدَافًا جَدِّهَا مَةً بِرَمِيَّةٍ وَاحِدَةٍ ، نُصِيبُ :
 إِفَادَةً فِي الْعِلْمِ ، وَتَقْوِيَةً فِي اللِّسَانِ ، وَتَعْمِيرًا
 لِلْأَذْهَانِ ، وَإِحْيَاءً لِلُّغَةِ الْقُرْآنِ ؛ وَنُصِيبُ أَخْلَاقًا
 وَحُسْنَ تَنْسِقَةٍ ، وَصَائِبَ اتِّجَاهٍ . وَنُحَوِّلُ بَيْنَ شَبَابِنَا
 وَبَيْنَ الْقِرَاءَةِ الرَّخِصَةِ التَّافِهَةِ مَعْنًى وَأُسْلُوبًا ،
 أَوْ الْجَامِدَةِ الَّتِي لَمْ تَتَجَدَّدْ وَلَمْ تَتَغَيَّرْ ، وَنَفْتَحْ لَهُمْ
 بَابَ الْإِطْلَاعِ عَلَى مِصْرَاعِيهِ ، لِيَلْبِجَ مَنْ أَرَادَ عَنْ

يَنَّةٌ^(١) ، وَيُوَالِي التَّقَدُّمَ فِيهَا الرَّاعِبُونَ عَنْ مِيلٍ
وَرَعْبَةٍ ، وَشَغَفٍ وَهَيَامٍ ؛ وَلُنُصِيبُ بِهَذَا الصَّنْفِ
مِنَ الْقِرَاءَةِ إِشْغَالًا لِلْوَقْتِ فِيمَا يُجْدِي وَيَنْفَعُ ،
فَلَا أَحْلَاسٌ^(٢) مَقَاهٍ ، وَلَا مُتَسَكِّمُونَ^(٣) طُرُقَاتٍ ،
وَلَا أُسْرَى^(٤) رِوَايَاتٍ ، وَمَفْتُونُونَ مُفَاجَاتٍ ؟

✱

✱ ✱

وَإِنِّي لَا ذَكْرُ هُنَا لِأَبْنَائِي مِنَ الشَّبَابِ الْمُتَعَلِّمِ :
قِصَّةٌ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنِّي لَا أَفْضِي بِهَا اغْتِرَارًا وَافْتِخَارًا ،
بَلْ مَرَمَايَ أَنْ تَكُونَ مَوْعِظَةً حَسَنَةً ، وَتَشْجِيعًا
لِعَزَمَاتِهِمْ فِي حُبِّ الْعَرِيَّةِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّنِي — بِسَبَبِ

(١) وضوح وبرهان (٢) ملازموها لا يفارقونها تنديد بالسادين
رواد المفاهي والمفاهي جمع مقهى وهو اسم مكان لصنع القهوة وسمى المنتدى
بالمقهى مجازاً (٣) من يسرون في الطرقات لغير قصد ولا يدرون أين
يقصدون (٤) يراد بأسرى الروايات ومفتونى المفاجآت أولئك الذين
تعرت ثقافتهم عن العلم والاطلاع

جُودِ الْقِرَاءَةِ الْعَرَبِيَّةِ — انْصَرَفْتُ فِي مِيعَةٍ^(١) طُفُولَاتِي
إِلَى اللُّغَةِ الْأَنْجَلِيزِيَّةِ ، وَالتَّهَمْتُ مِنْهَا الشَّيْءَ الْوَفِيرَ ؛
وَلَعَلَّهُ كَانَ مِنَ الْمُدْهَشِ حَقًّا : أَنَّ طَالِبًا فِي الثَّانَوِيِّ
يَكْتُبُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ ، فِي الْجَرِيدَةِ ، فِي مُخْتَلَفِ
الْبُحُوثِ ، وَيُتَرْجِمُ عَنْ مَا كُولَى وَسَبَنَسِرَ ؛ فَرَأَى
صَدِيقُ الْمَرْحُومِ وَالِدِي : أُسْتَاذِي الْمُبْرُورُ ، الشَّيْخُ
حَمَزَةُ فَتَحَ اللَّهَ : أَنَّ يُحِبَّ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَانْتَهَى
رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى أَنَّ قَرَأْتُ عَلَيْهِ الْأَرْبَعَةَ الْكُتُبَ ،
الْمُعْتَبَرَةَ أَصُولًا لِلْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، وَهِيَ^(٢) : الْكَامِلُ ،
وَالْأَمَالِيُّ ، وَالْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ ، وَالْعِقْدُ الْفَرِيدُ ؛ وَذَلِكَ بِأَنَّ

(١) مستهلها وريعتها (٢) أجمع العلماء على أن هذه الكتب هي عمادُ

الأدب فمن أغفل قراءتها جهل الأدب ومن أغفل بعضها لم يكتمل أدبه

قَصَّ عَلَىَّ ، مَا لَا أزالُ أَذْكرُهُ ، كَأَنَّهُ حَدِيثُ أُمِّسِ
الدَّابِرِ وَقَدْ انْقَضَى عَلَيْهِ حَوَالِي رُبْعِ قَرْنٍ أَوْ يَزِيدُ .



قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ — لِمَنَاسِبَةِ عَزْمِي وَقَتْنِدِ الرَّحِيلِ
إِلَى سويسْرَا ، لِلدَّرْسِ وَالتَّحْصِيلِ — مَا مَعْنَاهُ :

« إِنَّ وَالِدَكَ قَدْ ضَعَفَ بَصَرُهُ ، وَأَنْتَ وَحِيدُهُ ،
أَفَلَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ سُوءْبَانَ ^(١) ثَرَاءً ، وَتَرْعِيَةً ^(٢)
مَالٍ ؟ »

فَلَمْ أَفْقَهُ مَاذَا يَعْنِي ، وَالتَّزَمْتُ الصَّمْتَ ؛ فَاسْتَمَرَّ
قَائِلًا : أَتَعْرِفُ مَنْ يَقُولُ :

(١) السُّوءْبَانُ الْحَسَنُ الْقِيَامُ عَلَى الْمَالِ وَالثَّرَاءُ الْغِنَى (٢) تَحْيِيدُ رِعَايَتِهِ

وَلَقَدْ نَهَرْتُ^(١) مَعَ الْغَوَاةِ بِدَلْوِهِمْ
وَأَسْمْتُ^(٢) سَرَحَ^(٣) اللَّهَوِ حَيْثُ أَسَامُوا
وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ امْرُؤٌ بِشَبَابِهِ
فَإِذَا عُصَارَةٌ كُلٌّ ذَاكَ أَثَامُ^(٤) ؟

فَتَلَعَثْتُ ، وَتَبَيَّنَ الْخَجَلُ فِي مُحَيَّائِي ؛ فَقَالَ :
اسْمَعْ يَا وَلَدِي : لَقَدْ كُنْتُ فِي كَنِّ الطُّفُولَةِ لَا أَعْي
مَا يُرَادُ وَيُشَادُ ، ثُمَّ قَرَأْتُ فِي ابْنِ خِلْكَانَ وَغَيْرِهِ ،
مِنَ الْمَظَانِ^(٥) الْمُعْتَمَدَةِ : أَنَّ ابْنَ الْجَوْزِيِّ كَانَ يَكْتُبُ
كُلَّ يَوْمٍ تِسْعَ كَرَارِيسَ تَأْلِيفًا ، وَأَنَّ جَلَالَ الدِّينِ
السِّيُوطِي بَلَغَتْ مُؤَلَّفَاتُهُ أَرْبَعِمِائَةَ مُصَنَّفٍ ، وَأَنَّ

(١) أُلْقِيتْ يَدْلُوِي مَعَ دَلَاءِ الْغَوَاةِ (٢) أَسَامُ ارْعَى الْإِبِلَ

(٣) سَرَحَ سَرَحًا وَسَرُوحًا مَرَعَى أَيْ سَرَتْ عَلَى دَرَبِهِمْ وَرَعَيْتُ رَعِيَهُمْ

(٤) إِثَامُ أَيْ إِثْمٌ وَالْجَمْعُ آثَامُ (٥) الْمَرَاجِعُ

عَبْدَ اللَّطِيفِ الْبَغْدَادِيِّ نَيْفَتٌ^(١) مُؤَلَّفَاتُهُ عَلَى السِّتِّينَ
بَعْدَ الْمِائَةِ ، وَأَنَّ أَبَا الْفَرَجِ الْأَصْبَهَانِيَّ جَمَعَ الْأَغَانِيَّ
فِي خَمْسِينَ سَنَةً ؛ وَهَكَذَا أُسْتَمَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى
يَسْرُدُ إِلَى الطَّرِيفِ الْعَجِيبِ عَنِ الْبُخَارِيِّ ، وَابْنِ
الْأَثِيرِ ، وَحُنَيْنِ بْنِ اسْحَقَ ، وَيَعْقُوبَ بْنِ اسْحَقَ ،
وِثَابَتَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الصَّابِيِّ ، وَقَسْطًا بْنِ ثُومًا ،
وَالرَّازِيَّ ، وَالْمَسْعُودِيَّ ، وَالْغَزَالِيَّ ، وَابْنَ حَوْقَلَ ،
وَابْنَ خَرْدَاذِبَةَ ، وَالْهَرَوِيَّ ، وَابْنَ بَطُّوطَةَ ، وَابْنَ
تَيْفُورَ ، وَابْنَ الْعَرَبِيِّ ، وَيَاقُوتَ الْحَمَوِيَّ الرَّومِيَّ ،
الَّذِي كَانَ تَاجِرًا ، وَحَالَتُهُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا
وَمُؤَلِّفًا ، وَلَمَّا ذَكَرَ الْفَارَابِيَّ ، وَابْنَ سِينَا ، حَبَّيْهُمَا

إِلَى ، وَقَصَّ عَلَى مُجْمَلِ حَيَاتِهِمَا ، وَأَنَّ أَوْلَهُمَا وَضَعَ
أَكْثَرَ مِنْ تَمَانِينَ مُؤَلَّفًا يُعْتَدُّ بِهَا ، وَكَانَ فِي أَصْلِ
نَشَاتِهِ خَادِمًا ، وَقِيلَ : نَاطُورًا ^(١) ، يَخْفَرُ بُسْتَانًا
فِي بَعْضِ نَوَاحِي دِمَشْقَ ، وَكَانَ فَقِيرًا مُدْقِعًا ^(٢) ،
وَلَكِنَّ الْمَثْرَبَةَ وَالْإِضَاقَةَ وَسُوءَ الْحَالِ لَمْ تَقْعُدْ بِهِ
دُونَ الْإِكْبَابِ عَلَى الدَّرْسِ وَالتَّحْصِيلِ ، وَالتَّدْقِيقِ
وَالتَّحْرِيرِ ، فَكَانَ يُوَاصِلُ لَيْلَهُ بِنَهَارِهِ ، وَلَا بُدَّ
دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ ، وَمَنْ طَلَبَ الْعُلَا سَهْرَ
الليالي ، لِأَنَّ الْعِلْمَ لَا يَأْتِي عَفْوًا ، وَبِلَا ثَمَنِ ، وَلَا
يَهْبِطُ وَحْيًا مِنَ السَّمَاءِ ، بَلْ قِيَامًا بِاللَّيْلِ ، وَتَحْصِيلًا
فِي النَّهَارِ ، وَمُشَاهَدَةً وَمُرَاقَبَةً ، وَانْتِبَاهًا وَاسْتِجْمَامَ

(١) خفيراً (٢) معدماً ذا متربة

خَاطِرٍ ، وَاسْتِجْمَاعَ قُوًى ، وَتَوْحِيدَ مَجْهُودٍ ، وَاحْتِمَالَ
 مَكْرُوهِ ، وَشَطَفَ عَيْشٍ ، وَانْصِرَافًا عَنِ الْمَلَاذِّ ،
 وَإِقْبَالَ عَلَى الْأَعْبَاءِ ، وَمُضِيًّا إِلَى الْأَمَامِ ؛ وَهَكَذَا
 كَانَتْ حَالُ الْفَارَابِيِّ ، الَّذِي كَانَ يَسْتَضِيءُ بِقِنْدِيلِ
 الْحَارِسِ ، وَالَّذِي وَفَّقَ أَخِيرًا إِلَى خِدْمَةِ الْمُلُوكِ
 وَالْأَقْيَالِ^(١) ، وَمَعَ ذَلِكَ ، وَلِفَرَطِ انْقِطَاعِهِ لِلْعِلْمِ
 وَالذِّكْرِ ، لَمْ يَكُنْ شَرِّهَا نَهَمًا ، فَإِنَّهُ - فِيمَا قِيلَ -
 لَمْ يَكُنْ يَتَنَاوَلُ مِنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ : سِوَى أَرْبَعَةِ
 دَرَاهِمٍ فِي الْيَوْمِ ، يُخْرِجُهَا فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ
 شُؤْنٍ ، لِإِقَامَةِ أَوْدِهِ^(٢) ، وَإِعَانَتِهِ عَلَى تَحْقِيقِ سُؤْلِهِ ؛
 وَكَانَ مَصْدَرُ نَجَاحِهِ الْمُثَابَرَةَ وَالْمَعَاوَدَةَ ، وَسِعَةَ

(١) أميردون الملك (٢) ما اعوج من عيشه

الْعَطَنِ وَطُولِ الْجُلْدِ ، وَانْفِسَاحِ رُقْعَةِ الْأَمْلِ ، وَتَرْكِ
 السَّامَةِ وَالْمَلَكِ ؛ وَقَدْ قَالَ الْفَارَابِيُّ : « إِنَّهُ قَرَأَ
 بِالسَّمَاعِ » أَرِسْطُو « أَرْبَعِينَ مَرَّةً ، وَارَى أَنِّي مُحْتَاجٌ
 إِلَى مُعَاوَدَتِهِ » . أَمَّا ابْنُ سِينَا ، فَإِنَّهُ أَلْفَ أَرْبَعِينَ
 كِتَابًا ، فِي مِائَةٍ وَعِشْرِينَ مُجَلَّدًا ، بِخِلَافِ رَسَائِلِهِ ،
 الَّتِي تُعَدُّ بِالْمِائَاتِ ؛ وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ نَفْسِهِ ، فَقَالَ :
 « إِنِّي قَرَأْتُ كِتَابَ « مَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ » ، فَمَا
 كُنْتُ أَفْهَمُ مَا فِيهِ ، وَالتَّبَسَّ عَلَى غَرَضٍ وَاضِعِهِ ،
 حَتَّى أَعَدْتُ قِرَاءَتَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً ، وَصَارَ لِي
 مَحْفُوظًا ، وَأَنَا مَعَ ذَلِكَ لَا أَفْهَمُهُ ، وَقُلْتُ : هَذَا
 كِتَابٌ لَا سَبِيلَ إِلَى فَهْمِهِ ؛ وَإِذَا بِي يَوْمًا حَضَرْتُ
 وَقْتَ الْعَصْرِ فِي سُوقِ « الْوَرَّاقِينَ » ، وَيَدِ دَلَالٍ مُجَلَّدٍ

يُنَادِي عَلَيْهِ ، فَعَرَضَهُ عَلَى ، فَرَدَّدْتُهُ رَدَّ مُتَبَرِّمٍ ،
مُعْتَقِدًا أَنَّ لَا فَائِدَةَ فِي هَذَا الْعِلْمِ ؛ فَقَالَ لِي :
لِتَشْتَرِ مِنِّي هَذَا ، فَإِنَّهُ رَخِيسٌ ، أُبِيعُكَ بِثَلَاثَةِ
دَرَاهِمٍ ، وَصَاحِبُهُ مُحْتَاجٌ إِلَى ثَمَنِهِ ؛ فَاشْتَرَيْتُهُ ، فَإِذَا
هُوَ كِتَابُ لِأَبِي نَصْرِ الْفَارَابِيِّ فِي أَغْرَاضِ كِتَابِ
« مَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ » ؛ فَرَجَعْتُ إِلَى يَدَيَّ ، وَأَسْرَعْتُ
إِلَى قِرَاءَتِهِ ، فَانْفَتَحَ عَلَيَّ فِي الْوَقْتِ أَغْرَاضُ
ذَلِكَ الْكِتَابِ ، بِسَبَبِ أَنَّهُ صَارَ عَلَى ظَهْرِ^(١) الْقَلْبِ .
وَقَالَ « ابْنُ سِينَا » وَاصِفًا كَيْفِيَّةَ انكِبَابِهِ عَلَى الدَّرْسِ :
« كُنْتُ أَرْجِعُ بِاللَّيْلِ إِلَى دَارِي ، وَأَضَعُ السَّرَاجَ
بَيْنَ يَدَيَّ ، وَأَشْتَغِلُ بِالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ ، حَتَّى إِذَا

(١) أَي أَنِّي حَفَظْتُهُ وَاسْتَظْهَرْتُهُ

غَلَبَنِي النَّوْمُ ، أَوْ شَعَرْتُ بِضَعْفٍ ، عَدَلْتُ إِلَى شُرْبِ
 قَدَحٍ مِنَ الشَّرَابِ ، رِيثًا تَعُودُ إِلَى قُوَّتِي ، وَمَتَى
 أَخَذَنِي النَّوْمُ ، أَحْلُمُ بِتِلْكَ الْمَسَائِلِ بِأَعْيُنِهَا^(١) ، حَتَّى
 إِنَّ كَثِيرًا مِنْهَا : انْفَتَحَ عَلَى وُجُوْهُهَا فِي الْمَنَامِ .

✱

✱ ✱

وَقَالَ مَا مَعْنَاهُ : مَا أَرَدْتُ بِهَذَا يَا وَلَدِي أَنْ
 أَفْرَكَ عَنِ الْمَضَى فِي قِرَاءَةِ اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ ، وَإِنَّمَا
 أَرَدْتُ أَلَّا تَحْتَقِرُوا رِجَالَ الْمُسْتَقْبَلِ الْعَرَبِ وَكَفَايَاتِهِمْ ،
 وَاقْتِدَارَ جَهَابِذِهِمْ^(٢) ؛ وَيَا حَبَّذَا لَوْ جَمَعْتُمْ بَيْنَ أَدَبِ
 الْغَرْبِ وَأَدَبِ الْعَرَبِ ، وَعَمِلْتُمْ عَلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى
 قَدِيمِكُمْ ، إِلَى جَانِبِ الطَّرِيفِ الْمُثْمَرِ مِنْ جَدِيدِكُمْ .

(١) بذاتها (٢) جمع جهنم وهو الناقد العارف بتمييز الجيد من
 الرديء وهو معرب عن كهنذ بالفارسية والمراد به العلماء والأعلام

ثُمَّ قَالَ لِي : لِإِذَا لَمْ تُتَقَيَّدْ فِي كُنَاشَتِكَ مَقَالَتِي
تِلْكَ ، لِتَكُونَ لَكَ نِبْرَاسًا وَهَادِيًا ، وَمُسْتَحِثًّا
وَمُسْتَنْفِرًا^(١) ؟ فَصَدَعْتُ بِمَا أُمِرْتُ .



وَقَالَ لِي الشَّيْخُ : أَتَعْرِفُ كَيْفَ أَصْبَحَ حَمْزَةً فَتَحَ اللَّهُ:
قَامُوسًا كَاللِّسَانِ ؟ ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَرَّسَ^(٢) حَيَاتَهُ لِلْعِلْمِ
دُونَ الْبَطَالَةِ ، وَلِلْقِرَاءَةِ دُونَ الزِّيَارَةِ ، وَلِلْمُطَالَعَةِ دُونَ
هَذَرِ^(٣) الْحَدِيثِ . . ؛ اَكْتُبْ يَا وَلَدِي مَا أَفَادَنِيهِ ابْنُ
الْجَوْزِيِّ فِي صَيْدِ الْخَاطِرِ ، مِمَّا فَتَقَّ الذَّهْنَ وَشَحَذَ
الْخَاطِرَ ، وَصَرَفَ إِلَى الْعِلْمِ وَالدَّرْسِ ، دُونَ اللَّهْوِ
وَالْكَأْسِ .

(١) ما يحملك على أن تنفر إلى ما يفيدك (٢) وقفها (٣) هجره وهذيه
(٣)

قَالَ : « أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ مُصْحَبَةِ الْبَطَّالِينَ ^(١) ؛ لَقَدْ رَأَيْتُ خَلْقًا كَثِيرًا يَجْرُونَ مَعِيَ فِيمَا قَدْ اعْتَادَهُ النَّاسُ مِنْ كَثْرَةِ الزِّيَارَةِ ، وَيُسْمُونَ ذَلِكَ التَّرَدُّدَ خِدْمَةً ، وَيُطِيلُونَ الْجُلُوسَ مَرَّةً ، وَيُجْرُونَ فِيهِ أَحَادِيثَ النَّاسِ ، وَمَا لَا يَعْنِي ، وَتَتَخَلَّلُهُ غَيْبَةٌ ؛ وَهَذَا شَيْءٌ يَفْعَلُهُ فِي زَمَانِنَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَرَبَّمَا طَلَبَهُ الْمَزُورُ ، وَتَشَوَّقَ إِلَيْهِ ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الْوَحْدَةِ ، وَخُصُوصًا فِي الْأَعْيَادِ ؛ فَتَرَاهُمْ يَمْشُونَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، وَلَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى التَّهْنِئَةِ وَالسَّلَامِ ، بَلْ يَمْزُجُونَ ذَلِكَ بِمَا ذَكَرْتُهُ ، مِنْ تَضْيِيعِ الزَّمَانِ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُ الزَّمَانَ أَشْرَفَ شَيْءٌ ، وَالْوَاجِبُ انْتِهَابُهُ بِفِعْلِ الْخَيْرِ ،

(١) الكسالى المتفرغين عن العمل

كَرِهْتُ ذَلِكَ ، وَبَقِيتُ مَعَهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : إِنْ
 أَنْكَرْتُ عَلَيْهِمْ ، وَقَعْتُ وَخْشَةً لِمَوْضِعِ قَطْعِ
 الْمَأْلُوفِ ؛ وَإِنْ جَرَيْتُ مَعَهُمْ ، ضَاعَ الزَّمَانُ ؛ فَصَرْتُ
 أَدَافِعُ اللَّقَاءِ جَهْدِي ، فَإِذَا غُلِبْتُ ، قَصَرْتُ فِي
 الْكَلَامِ ، لِأَتَعْجَلَ الْفِرَاقَ ؛ ثُمَّ أَعْدَدْتُ أَعْمَالًا ،
 لِأَتَمَتَّعَ مِنَ الْمُحَادَثَةِ ، فِي أَوْقَاتِ لِقَائِهِمْ ، لِئَلَّا يَمُضِيَ
 الزَّمَانُ فَارِغًا ، فَجَعَلْتُ مِنَ الْمُعَدِّ لِلِقَائِهِمْ : قَطْعَ
 الْكَاعِدِ ، وَبَرَى الْأَقْلَامِ ، وَخَزَمَ الدَّفَاتِرَ ؛ فَإِنَّ
 هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لَا بُدَّ مِنْهَا ، وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى فِكْرٍ ،
 وَحُضُورِ قَلْبٍ ؛ فَأَرْصَدْتُهَا لِأَوْقَاتِ زِيَارَاتِهِمْ ،
 لِئَلَّا يَضِيعَ شَيْءٌ مِنْ وَقْتِي .

أَجَلُ يَا وَلَدِي ؛ هَكَذَا كَانَ نَظَرُ السَّلَفِ الصَّالِحِ
 إِلَى الْوَقْتِ ، وَأَنَّهُ كَانَ مِنْ ذَهَبٍ حَقًّا ، وَإِلَى
 التَّحْيِيرِ وَالتَّأْلِيلِ ، وَإِلَى الدَّرْسِ وَالتَّحْصِيلِ . وَلَعَلَّكَ
 تَذَكَّرُ قِصَّةَ ذَلِكَ الْخَلِيفَةِ الَّذِي بَعَثَ رُسُلَهُ لِيَطْلُبُوا
 لَهُ عَالِمًا ، لِمُنَادَمَتِهِ وَمُسَامَرَتِهِ ؛ فَلَمَّا جَاءُوهُ وَجَدُوهُ :
 جَالِسًا إِلَى كُتُبِهِ ، مُنْقَطِعًا إِلَى عِلْمِهِ ؛ فَأَفْضَوْا إِلَيْهِ
 بِمُجْمَلِ طَلَبِ الْخَلِيفَةِ ؛ فَقَالَ لَهُمْ : أَبْلِغُوهُ أَنَّ
 عِنْدِي قَوْمًا مِنَ الْحُكَمَاءِ أَحَادِثُهُمْ وَأَنَاقِشُهُمْ ،
 وَأَنِّي مَائِلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ مَتَى أُنْتَهَى مِنْهُمْ ؛ فَلَمَّا عَادُوا
 إِلَيْهِ ، سَأَلَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْحُكَمَاءِ : مَنْ هُمْ ؟ فَقَالُوا :
 لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ أَحَدٌ أَلْبَتَّةَ ؛ فَاسْتَشَاطَ الْخَلِيفَةُ
 غَاضِبًا ، وَأَمَرَ بِإِحْضَارِهِ فِي التَّوَّ وَاللَّحْظَةِ ، كَيْفَ

كَانَتْ حَالُهُ ، وَأَيًّا كَانَتْ مَعَاذِيرُهُ ؟ فَلَمَّا حَضَرَ
 الْعَالَمُ ، وَمَثَلَ أَمَامَ الْخَلِيفَةِ ، سَأَلَهُ مَنْ يَكُونُ
 هَؤُلَاءِ الْحُكَمَاءِ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَهُ ؟ فَأَنْشَدَ :

لَنَا جُلَسَاءٌ لَا نَمَلُّ حَدِيثَهُمْ
 أَلْبَاءَ مَأْمُونُونَ غَيْبًا وَمَشْهُدًا

يُفِيدُونَنَا مِنْ عِلْمِهِمْ : عِلْمَ مَا مَضَى
 وَرَأْيَا وَتَأْدِيًّا وَمَجْدًا وَسُوءَ دَا
 فَإِنْ قُلْتُ : أَمْوَاتٌ ، فَلَمْ تَعُدْ أَمْرَهُمْ ،

وَإِنْ قُلْتُ : أَحْيَاءٌ ، فَلَسْتَ مُفَنِّدًا
 وَقَالَ لِي رَحِمَهُ اللَّهُ ذَاتَ يَوْمٍ أَتَذْكُرُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ :
 وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي
 وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لَمْخْتَلِفٌ جَدًّا

فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرَّتْ لُحُومُهُمْ
وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا
وَإِنْ ضَيَعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ
وَإِنْ هُمْ هَوَوْا غَيْبِي هَوَيْتُ لَهُمْ رُشْدًا
وَإِنْ زَجَرُوا طَيْرًا بِنَحْسٍ تَمَرُّ بِي
زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تَمَرُّ بِهِمْ سَعْدًا
وَلَا أَثْمَلُ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ
وَلَيْسَ رَأْسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحَقْدَا
لَهُمْ جُلٌّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غَنَى
وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أَكْلَفْهُمْ رِفْدًا
وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ ثَاوِيًا
وَمَا شِيْمَةٌ لِي غَيْرَهَا تُشَبِّهُ الْعَبْدَا

فَلَزِمْتُ الصَّمْتَ فَقَالَ : وَهَلْ تَذَرِي مَنْ يَقُولُ^(١) ؟
 أَنَا النَّذِيرُ لَكُمْ مِنِّي مُجَاهَرَةً
 كَيْ لَا أَلَامَ عَلَى نَهْيٍ وَإِنْذَارِ
 فَإِنْ عَصَيْتُمْ مَقَالِي الْيَوْمَ فَأَعْتَرِفُوا
 أَنَّ سَوْفَ تَلْقَوْنَ خِزْيًا ظَاهِرَ الْعَارِ
 لَتَرْجِعُنَّ أَحَادِيثًا مُلَعَنَةً
 لَهُوَ الْمُقِيمُ وَلَهُوَ الْمُدْلِجُ السَّارِي
 مَنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ حَوْجَاءٌ يَطْلُبُهَا
 عِنْدِي فَأِنِّي لَهُ رَهْنٌ بِأَصْحَارِ^(٢)
 أَقِيمُ عَوَجَتَهُ إِنْ كَانَ ذَا عِوَجٍ
 كَمَا يَقُومُ قِدْحُ^(٣) النَّبْعَةِ^(٤) الْبَارِي^(٥)

(١) أنظر آيات قيس بن رفاعه في كتاب الأموال ج ١ ص ١١ (٢) أحمر
 القوم برزوا إلى الصحراء ، أي بلا استتار ولا امتناع (٣) القدح : السهم
 قبل أن يسوى (٤) النبعة : القوس (٥) الباري : الذي يبرى السهم

وَإِنَّهُ لَيَلِذُّ لِي ، أَنِّ أَثْبِتَ هُنَا حَدِيثَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ
فِي مَعْرِضِ حَثِّهِ عَلَى التَّعَلُّمِ ، وَاحْتِمَالِ كُلِّ نَصَبٍ
فِي سَبِيلِ تَحْصِيلِهِ ، مَثَلُهُ الْأَعْلَى فِي نَحْوِي كَبِيرٌ
هُوَ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ السَّرِيِّ بْنِ سَهْلٍ
الْمَعْرُوفُ بِالزَّجَّاجِ قَالَ :

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دَرَسْتَوَيْهِ النَّحْوِيُّ .
حَدَّثَنِي الزَّجَّاجُ . قَالَ : كُنْتُ أَخْرُطُ الزُّجَاجَ ،
فَاشْتَهَيْتُ النَّحْوَ ، فَلِزِمْتُ الْمُبَرَّدَ لِتَعَلُّمِهِ ، وَكَانَ
لَا يُعَلِّمُ مَجَّانًا ، وَلَا يُعَلِّمُهُ بِأَجْرَةٍ إِلَّا عَلَى قَدَرِهَا :
فَقَالَ لِي : أَيُّ شَيْءٍ صِنَاعَتُكَ ؟ قُلْتُ : أَخْرُطُ الزُّجَاجَ ،
وَكَسْبِي فِي كُلِّ يَوْمٍ دِرْهَمٌ وَدَانِقَانِ ، أَوْ دِرْهَمٌ
وَنِصْفٌ ، وَأُرِيدُ أَنْ تُبَالِغَ فِي تَعْلِيمِي ، وَأَنَا أُعْطِيكَ

كُلَّ يَوْمٍ دِرْهَمًا ، وَأَشْرَطُ لَكَ أَنْ أُعْطِيكَ إِيَّاهُ أَبَدًا ،
 إِلَى أَنْ يُفَرِّقَ الْمَوْتُ بَيْنَنَا . اسْتَغْنَيْتُ عَنِ التَّعْلِيمِ
 أَمْ احْتَجْتُ إِلَيْهِ . قَالَ : فَلَزِمْتُهُ ، وَكُنْتُ أَخْدِمُهُ
 فِي أُمُورِهِ مَعَ ذَلِكَ ، وَأَعْطِيهِ الدَّرْهَمَ فَيَنْصَحْنِي فِي الْعِلْمِ
 حَتَّى اسْتَقَلَّتْ ، فَجَاءَهُ كِتَابُ بَعْضِ بَنِي مَارِقَةَ ،
 مِنَ الصُّرَاةِ يَلْتَمِسُونَ مُعَلِّمًا نَحْوِيًّا لِأَوْلَادِهِمْ . فَقُلْتُ
 لَهُ : أَتَمْنِي لَهُمْ فَأُسَمِّنِي ، فَخَرَجْتُ ، فَكُنْتُ أَعَلِّمُهُمْ
 وَأُنْفِذُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا ، وَأَزِيدُهُ
 بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَمَضَتْ مُدَّةٌ عَلَى ذَلِكَ ،
 فَطَلَبَ مِنْهُ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ سُلَيْمَانَ مُوَدِّبًا لِابْنِهِ
 الْقَاسِمِ . فَقَالَ لَهُ : لَا أَعْرِفُ لَكَ إِلَّا رَجُلًا زَجَّاجًا
 بِالصُّرَاةِ مَعَ بَنِي مَارِقَةَ . قَالَ : فَكُتِبَ إِلَيْهِمْ

عَبِيدُ اللَّهِ فَاسْتَنْزَلَهُمْ عَنِّي فَتَزَلُّوا لَهُ ، فَأَحْضَرَنِي ،
وَأَسْلَمَ الْقَاسِمَ إِلَيَّ ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ غِنَائِي ، وَكُنْتُ
أُعْطَى الْمُبَرَّدَ ذَلِكَ الدَّرْهَمَ فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَى أَنْ
مَاتَ ، وَلَا أُخْلِيهِ مِنَ التَّفَقُّدِ بِحَسَبِ طَاقَتِي .

وَمِنْ شَيْقٍ مَا رَوَاهُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي سِيَاقٍ مَأْثُورٍ
جَهَابِذَةِ التَّارِيخِ وَالْأَدَبِ ، وَصِيَّةُ أَبِي عَلِيٍّ خَازِنِ الْعَمِيدِ
وَهُوَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَعْرُوفِ بِمَسْكُوتِيهِ ، صَاحِبُ
تَجَارِبِ الْأُمَمِ ، وَتَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ . قَالَ : « هَذَا
مَا عَاهَدَ عَلَيْهِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ آمِنٌ
فِي سِرْبِهِ ، مَعَافٍ فِي جِسْمِهِ ، عِنْدَهُ قُوَّةُ يَوْمِهِ ،
لَا تَدْعُوهُ إِلَى هَذِهِ الْمُعَاهَدَةِ ضَرُورَةُ نَفْسٍ وَلَا بَدَنٍ ،
وَلَا يُرِيدُ بِهَا مُرَآةَ مَخْلُوقٍ ، وَلَا اسْتِجْلَابَ مَنَفْعَةٍ ،

وَلَا دَفْعَ مَضَرَّةٍ مِنْهُمْ ، عَاهِدَهُ عَلَى أَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ ،
وَيَتَفَقَّدَ أَمْرَهُ ، فَيَعِفَّ وَيَشْجُعَ وَيَحْكُمَ ، وَعَلَامَةُ
عِفَّتِهِ : أَنْ يَقْتَصِدَ فِي مَارِبِ بَدَنِهِ ، حَتَّى لَا يَحْمِلَهُ
الشَّرُّ عَلَى مَا يَضُرُّ جِسْمَهُ ، أَوْ يَهْتِكُ مُرُوءَتَهُ ،
وَعَلَامَةُ شَجَاعَتِهِ : أَنْ يُحَارِبَ دَوَاعِيَ نَفْسِهِ الذَّمِيمَةِ
حَتَّى لَا تَقْهَرَهُ شَهْوَةٌ قَبِيحَةٌ ، وَلَا غَضَبٌ فِي غَيْرِ
مَوْضِعِهِ . وَعَلَامَةُ حِكْمَتِهِ : أَنْ يَسْتَبْصِرَ فِي
اِعْتِقَادَاتِهِ حَتَّى لَا يَفُوتَهُ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ شَيْءٌ مِنْ
الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ الصَّالِحَةِ لِيُصْلِحَ أَوْلَادَ نَفْسِهِ ،
وَيُهَذِّبَهَا ، وَيَحْصُلَ لَهُ مِنْ هَذِهِ الْمُجَاهَدَةِ ثَمَرُهَا
الَّتِي هِيَ الْعَدَالَةُ . وَعَلَى أَنْ يَتَمَسَّكَ بِهَذِهِ التَّذَكُّرَةِ
وَيَجْتَهِدَ فِي الْقِيَامِ بِهَا وَالْعَمَلِ بِمُوجِبِهَا . وَهِيَ خَمْسَةٌ

عَشَرَ بَابًا : إِثَارُ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فِي الْأَعْتِقَادَاتِ ،
وَالصِّدْقِ عَلَى الْكَذِبِ فِي الْأَقْوَالِ ، وَالْخَيْرِ عَلَى الشَّرِّ
فِي الْأَفْعَالِ ، وَكَثْرَةُ الْجِهَادِ الدَّائِمِ لِأَجْلِ الْحَرْبِ الدَّائِمِ
بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ نَفْسِهِ ، وَالتَّمَسُّكُ بِالشَّرِيعَةِ وَلُزُومُ
وِطَائِنِهَا ، وَحِفْظُ الْمَوَاعِيدِ حَتَّى يُنْجِزَهَا . وَأَوَّلُ ذَلِكَ
مَا يَبْنِي وَيُنِىَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ : قِلَّةُ الثِّقَةِ بِالنَّاسِ بِتَرْكِ
الِاسْتِرْسَالِ ، مَحَبَّةُ الْجَمِيلِ لِأَنَّهُ جَمِيلٌ لَا لغيرِ ذَلِكَ ،
الصَّمْتُ فِي أَوْقَاتِ حَرَكَاتِ النَّفْسِ لِلْكَلامِ حَتَّى
يُسْتَشَارَ فِيهِ الْعَقْلُ ، حِفْظُ الْحَالِ الَّتِي تَحْصُلُ فِي شَيْءٍ
حَتَّى يَصِيرَ مِلْكُهُ وَلَا يَفْسُدَ بِالِاسْتِرْسَالِ ،
الْإِقْدَامُ عَلَى كُلِّ مَا كَانَ صَوَابًا ، الْأَشْفَاقُ عَلَى
الزَّمَانِ الَّذِي هُوَ الْعُمُرُ اسْتِغْلَالٌ فِي الْمُهْمِّ دُونَ غَيْرِهِ ،

تَرَكَ الْخَوْفَ مِنَ الْمَوْتِ وَالْفَقْرَ لِعَمَلٍ مَا يَنْبَغِي
وَتَرَكَ التَّوَانِي ، تَرَكَ الْأَكْثَرَاتِ لِأَقْوَالِ أَهْلِ الشَّرِّ
وَالْحَسَدِ لئَلَّا يَشْتَغَلَ بِمُقَابَلَتِهِمْ ، وَتَرَكَ الْأَنْفِعَالَ
لَهُمْ ، حُسْنُ احْتِمَالِ الْغِنَى وَالْفَقْرِ وَالْكَرَامَةِ
وَالْهَوَانِ بِجَهَةِ وَجَهَةٍ ، ذِكْرُ الْمَرَضِ وَقَتِ الصَّحَّةِ
وَالْهَمِّ وَقَتِ السُّرُورِ ، وَالرَّضَى عِنْدَ الْغَضَبِ لِيَقِلَّ
الطَّغْنُ وَالْبَغْيُ ، قُوَّةُ الْأَمَلِ ، وَحُسْنُ الرَّجَاءِ ، وَالثِّقَةُ
بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَصَرَفُ جَمِيعِ الْبَالِ إِلَيْهِ .

*
* *

وَالْآنَ ، أَرَى لَزَامًا مُحِبًّا إِلَى ، وَنَحْنُ بِسَبِيلِ
الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ عَامَّةً ، وَمَا فِيهِ مِنْ جَمَالٍ فَتَنِي
خَاصَّةً ، أَنْ أَتَقَلَّ بِكَ لَحَظَاتٍ قِصَارٍ مِنْ ثَمِينِ

أَوْقَاتِكَ ، وَتَفِيسِ سَاعَاتِكَ ، لِنَقْضِهَا سَوِيًّا فِي
جَوَلَاتٍ سَرِيعَةٍ ، مِنْ جَوَلَاتِ أُسْتَاذِنَا الْمَرْحُومِ
الْشَيْخِ حَمْزَةَ فَتَحَ اللَّهُ ، وَلَسْتُ أَنْكِرُ عَلَيْكَ ، أَنِّي
جِدُّ مُحَافِظٍ مَعَ الْمُحَافِظِينَ فِي ضَرُورَةٍ تَذُوقِ مَتْنِ
أَسَالِيهِمْ وَسَاحِرِ عِبَارَاتِهِمْ وَحَكِيمِ مَنَاحِيهِمْ .
وَإِنِّي لَا أَزْعُمُ أَنَّكَ سَتَسْتَوْعِبُ هُنَا دِرَاسَاتِ
طَوِيلَةٍ مِنَ الدِّرَاسَاتِ التَّحْلِيلِيَّةِ فِي الْأَدَبِ ، وَلَكِنِّي
أَخْتَارُ لَكَ طَرَفًا مِنْ مُخْتَارَاتِ الشَّيْخِ ، أَوْ بِعِبَارَةٍ أَدَقَّ
مِنْ مُخْتَارَاتِي مِنْ دُرُوسِ الشَّيْخِ ، مِنْ النُّثْرِ الْعَرَبِيِّ
الشَّامِلِ الْجَامِعِ ، مُتَنَقِّلًا بِكَ مِنْ عَصْرِ الصَّحَابَةِ
وَصَدْرِ الْإِسْلَامِ إِلَى الْأُمُورِ فَالْعَبَاسِيِّ بَوُجْهِتِهِ
فَالْأَنْدَلُسِيِّ فَطَرَفٍ مِنْ مَوَاعِظِ الْعَرَبِ وَحِكْمِهِمْ

وَلَا ذِعْ تَقْدِهِمْ وَمَا لِبَعْضِهِمْ مِنْ أَسَالِيبَ فِي النَّقْدِ
 التَّهْكُمِيَّ جِدًّا لَا ذِعَةَ ، مَعَ خِفَّةٍ ، وَمُرٌّ وَجِيعَةٌ ، فِي
 حَلَاوَةِ مَذَاقٍ ، حَتَّى كَأَنَّكَ تَقْرَأُ « جِرُومَ جِرُومِ »
 أَوْ « دِكْنِزِ » أَوْ كَأَنَّكَ تُتَمَعُّ نَفْسَكَ وَتَصْقُلُ خَاطِرَكَ
 وَتَنْزِعُ مَلَكًا وَتَبْرُمَكَ بِقِرَاءَةِ التَّهْكُمَاتِ الشَّكْسِيرِيَّةِ ،
 وَلَيْسَ لِي مِنْ غَايَةٍ — عِلْمُ اللَّهِ — إِلَّا أَنْ تُعَمِّرَ ذِهْنَكَ
 الْمُتَعَطِّشَ لِلْأَدَبِ وَالثَّقَافَةِ ، بِأَفَاقٍ مِنْ الْأُسْلُوبِ
 الشَّيْقِ الطَّرِيفِ ، وَالْمَعْنَى الْمُسْتَطَرَفِ الْخَصِيفِ ،
 إِلَى مَا وَهَبَكَ اللَّهُ فِي عَصْرِنَا الْحَدِيثِ مِنْ عِلْمٍ ،
 وَفَنٍّ ، وَابْتِكَارٍ ، وَاخْتِرَاعٍ .

وَهَاكَ رِسَالَةٌ عُمرَ لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ فِي الْقَضَاءِ :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ عَبْدِ اللَّهِ
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ ،
سَلَامٌ عَلَيْكَ ، أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ
مُحْكَمَةٌ ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ ، فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ
فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَازَ لَهُ ، آسِ يَنْ
النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَعَدْلِكَ وَمَجْلِسِكَ حَتَّى لَا يَطْمَعَ
شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ ، وَلَا يَيْئَسُ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ ،
الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى ، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ ، وَالصُّلْحُ
جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا ، أَوْ حَرَّمَ
حَلَالًا . لَا يَمْنَعُكَ قَضَائُ قَضِيَّتِهِ الْيَوْمَ فَرَاجَعْتَ فِيهِ
عَقْلَكَ ، وَهَدَيْتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ ، أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ ،

فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ ، وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي
 الْبَاطِلِ . الْفَهْمَ ، الْفَهْمَ ، فِيمَا تَلَجَّلَجَ فِي صَدْرِكَ ،
 مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ . ثُمَّ أَعْرِفِ الْأَشْبَاهَ
 وَالْأَمْثَالَ ، فَقِسْ الْأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ ، وَاعْتَمِدْ إِلَى أَقْرَبِهَا
 إِلَى اللَّهِ وَأَشْبَهْهَا بِالْحَقِّ . وَاجْعَلْ لِمَنْ ادَّعَى حَقًّا ،
 وَإِلَّا اسْتَحَلَّتْ عَلَيْهِ الْقَضِيَّةُ ، فَإِنَّهُ أَنْفَى لِلشَّكِّ ،
 وَأَجْلَى لِلْعَمَى . الْمُسْلِمُونَ عُذُولُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ
 إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ أَوْ مُجَرَّبًا عَلَيْهِ شَهَادَةُ زُورٍ ، أَوْ
 ظَنِينًا فِي وَلَاءٍ أَوْ نَسَبٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَوَلَّى مِنْكُمْ
 السَّرَائِرَ وَدَرَأَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْإِيمَانِ . وَإِيَّاكَ وَالْعَلَقَ^(١)
 وَالضَّجَرَ وَالتَّأَذِي بِالْخُصُومِ ، وَالتَّشْكُرَ عِنْدَ

(١) الْعَلَقُ : الْعَلَقُ مِنَ الْكَلَامِ الْمَشْكُلِ .

الْخُصُومَاتِ ، فَإِنَّ الْحَقَّ فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ يُعْظِمُ اللَّهُ
بِهِ الْأَجْرَ ، وَيُحْسِنُ بِهِ الذُّخْرَ ، فَمَنْ ظَهَرَ لِلنَّاسِ
بِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسِهِ شَأْنُهُ اللَّهُ ، فَمَا ظَنُّكَ
بِثَوَابِ غَيْرِ اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، فِي عَاجِلِ رِزْقِهِ ،
وَحَزَائِنِ رَحْمَتِهِ وَالسَّلَامُ » .

وَإِلَيْكَ مَا كَتَبَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَمُعَاذُ
بْنُ جَبَلٍ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَنْصَحَانِهِ
رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مِنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ
الْجَرَّاحِ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ :
سَلَامٌ عَلَيْكَ . فَإِنَّا نَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ (أَمَّا بَعْدُ) فَإِنَّا عَهْدُنَاكَ وَأَمْرُ نَفْسِكَ^(١)
لَكَ مُهِمٌّ ، فَأَصْبَحْتَ وَقَدْ وَلَيْتَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ :
أَحْمَرَهَا وَأَسْوَدَهَا ، يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيْكَ الصَّدِيقُ
وَالْعَدُوُّ ، وَالشَّرِيفُ وَالْوَضِيعُ . وَلِكُلِّ حِصَّةٍ^(٢)
مِنَ الْعَدْلِ . فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ يَا عُمَرُ عِنْدَ ذَلِكَ ؟
وَإِنَّا نَحْذَرُكَ يَوْمًا تَعْنُو^(٣) فِيهِ الْوُجُوهُ ، وَتَجِبُ^(٤)
لَهُ الْقُلُوبُ ، وَتَنْقَطِعُ فِيهِ الْحُجُبُ ، بِحُجَّةِ مَلِكٍ
قَهَرَهُمْ بِجَبَرُوتِهِ . وَاخْلُقْ دَاخِرُونَ^(٥) لَهُ ، يَرْجُونَ
رَحْمَتَهُ ، وَيَخَافُونَ عِقَابَهُ ، وَإِنَّا كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ أَمْرَ
هَذِهِ الْأُمَّةِ يَرْجِعُ فِي آخِرِ زَمَانِهَا أَنْ يَكُونَ إِخْوَانُ

(١) أَمْرُ نَفْسِكَ لَكَ : شعارُكَ حُرِيَّةَ رَأْيِكَ . (٢) نَصِيبٌ وَقِسْمَةٌ

(٣) تَشْخَصُ (٤) تَخْفِقُ وَتَرْجِفُ (٥) خَاضِعُونَ

الْعَلَانِيَةِ أَعْدَاءِ السَّرِيرَةِ ! ؟ وَإِنَّا نَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُنْزَلَ
كِتَابَنَا سِوَى الْمُنْزَلِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قُلُوبِنَا . فَإِنَّا إِنَّمَا
كُتِبْنَا إِلَيْكَ نَصِيحَةً لَكَ وَالسَّلَامُ . فَكُتِبَ إِلَيْهِمَا :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ :
إِلَى أَبِي عُيَيْدَةَ عَامِرِ بْنِ الْجَرَّاحِ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ .
سَلَامٌ عَلَيْكُمَا ، أَحْمَدُ إِلَيْكُمَا اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
(أَمَّا بَعْدُ) فَقَدْ جَاءَنِي كِتَابُكُمَا تَرْعُمَانِ أَنَّهُ بَلَّغَكُمَا
أَنِّي وَلَيْتُ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، أَحْمَرَهَا وَأَسْوَدَهَا :
يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيَّ الصَّدِيقُ وَالْعَدُوُّ ، وَالشَّرِيفُ
وَالْوَضِيعُ . وَكُتِبَتْمَا أَنْ أَنْظُرَ كَيْفَ أَنْتَ يَا عُمَرُ
عِنْدَ ذَلِكَ ؟ وَأَنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لِعُمَرَ عِنْدَ ذَلِكَ
إِلَّا بِاللَّهِ . كُتِبَتْمَا يُحَذِّرَانِي مَا حُذِّرْتُ بِهِ الْأُمَمُ قَبْلَنَا .

وَقَدِيمًا كَانَ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِأَجَالِ النَّاسِ يُقَرَّبَانِ
 كُلَّ بَعِيدٍ ، وَيُبْلِيَانِ ^(١) كُلَّ جَدِيدٍ ، وَيَأْتِيَانِ بِكُلِّ
 مَوْعُودٍ . حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ إِلَى مَنَازِلِهِمْ ^(٢) مِنْ الْجَنَّةِ
 أَوْ النَّارِ ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ
 سَرِيعُ الْحِسَابِ . كَتَبْتُمَا تَرْعُمَانِ أَنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ
 يَرْجِعُ فِي آخِرِ زَمَانِهَا : أَنْ يَكُونَ إِخْوَانُ الْعَلَانِيَةِ
 أَعْدَاءُ السَّرِيرَةِ وَلَسْتُمْ بِذَآكَ . وَلَيْسَ هَذَا ذَلِكَ الزَّمَانُ
 وَلَكِنْ زَمَانُ ذَلِكَ حِينَ تَظْهَرُ الرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ .
 وَكَتَبْتُمَا تَعُودَانِ بِاللَّهِ أَنْ أُنْزَلَ كِتَابُكُمَا مِنِّي سِوَى
 الْمَنْزِلِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قُلُوبِكُمَا . وَإِنَّمَا كَتَبْتُمَا
 نَصِيحَةً لِي وَقَدْ صَدَقْتُمَا . فَتَعَهَّدَانِي مِنْكُمَا بِكِتَابٍ .
 وَلَا غِنَى بِي عَنْكُمَا وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا .



وَهَاكَ رِسَالَةٌ حَدَّثَنِي بِهَا رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَكَانَ بِهَا
جَدُّ مُعْجَبٍ ، وَجِدَّ مُفْتُونٍ ، وَمَهْمًا قِيلَ بِأَنَّهَا لَمْ
تُكْتَبْ فِي عَصْرِ الصَّحَابَةِ فَإِنَّهَا تُعْتَبَرُ بِلَا رَيْبٍ
تُحْفَةً فَنِيَّةً فِي النَّثْرِ الْعَرَبِيِّ :

قَالَ (١) أَبُو حَيَّانَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ التَّوْحِيدِيُّ
الْبَغْدَادِيُّ : سَمَرْنَا لَيْلَةً عِنْدَ الْقَاضِي أَبِي حَامِدٍ
أَحْمَدَ بْنِ بَشِيرٍ الْمَرْوَرُودِيِّ بِبَغْدَادَ ، فَتَصَرَّفَ فِي
الْحَدِيثِ كُلِّ مُتَصَرِّفٍ ، وَكَانَ غَزِيرَ الرِّوَايَةِ ، لَطِيفَ
الدَّرَايَةِ ، فَجَرَى حَدِيثُ الثَّقَفِيَّةِ ، فَزَكَبَ كُلَّ
مَرْكَبًا ، وَقَالَ قَوْلًا ، وَعَرَضَ بِشَيْءٍ ، وَنَزَعَ إِلَى فَنٍ .
فَقَالَ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ يَحْفَظُ رِسَالَةَ لِأَبِي بَكْرٍ

(١) انظر صبح الأعشى ص ٢٣٧ ج ١ وعصر المأمون ج ٢ ص ١

الصَّدِيقِ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، وَجَوَابَ عَلِيٍّ عَنْهَا ، وَمُبَايَعَتَهُ أَيَّامَهُ
عَقِبَ تِلْكَ الْمُنَازَرَةَ ؟ فَقَالَ الْجَمَاعَةُ : لَا وَاللَّهِ ،
فَقَالَ : هِيَ مِنْ بَنَاتِ الْحَقَائِقِ ، وَمُخَبَّاتِ الصَّنَادِقِ ،
وَمُنْذُ حَفِظْتُهَا مَا رَوَيْتُهَا إِلَّا لِأَبِي مُحَمَّدٍ الْمَهَلَّبِيِّ فِي
وَزَارَتِهِ ، فَكَتَبَهَا عَنِّي بِيَدِهِ . وَقَالَ : لَا أَعْرِفُ
رِسَالَةً أَعْقَلَ مِنْهَا وَلَا أَبْيَنَ ، وَأَنَّهَا لَتَدُلُّ عَلَى عِلْمٍ
وَحِلْمٍ ، وَفَصَاحَةٍ وَنَبَاهَةٍ ، وَبُعْدِ غَوْرِ ، وَشِدَّةِ
غَوْصٍ . فَقَالَ لَهُ الْعَبَّادَانِي : أَيُّهَا الْقَاضِي ، فَلَوْ
أَتَمَّمْتَ الْمِنَّةَ عَلَيْنَا بِرِوَايَتِهَا ؟ أَسْمِعْنَاهَا ، فَنَحْنُ
أَوْعَى لَكَ مِنَ الْمَهَلَّبِيِّ ، وَأَوْجَبُ ذِمَامًا عَلَيْكَ ،
فَأَنْدَفَعَ وَقَالَ :

حَدَّثَنَا الْخُزَاعِيُّ بِمَكَّةَ عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ ، قَالَ
 حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي فُلَيْحٍ عَنْ عِيسَى بْنِ دَوَّابٍ
 ابْنِ الْمَنَاحِ ، قَالَ سَمِعْتُ مَوْلَايَ أَبَا عُيَيْدَةَ يَقُولُ :
 لَمَّا اسْتَقَامَتِ الْخِلَافَةُ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، بَعْدَ فِتْنَةٍ كَادَ الشَّيْطَانُ
 بِهَا ، فَدَفَعَ اللَّهُ شَرَّهَا وَيَسَّرَ خَيْرَهَا ، بَلَغَ أَبَا بَكْرٍ
 عَنْ عَلِيٍّ تَلَكُّوْهُ وَشِمَاسُ^(١) وَتَهَمُّ^(٢) وَنِفَاسُ^(٣) ،
 فَكَّرَهُ أَنْ يَتِمَادَى الْحَالُ فَتَبَدَّوْهُ الْعَوْرَةُ ، وَتَشْتَغِلَ
 الْجُمُرَةُ ، وَتَتَفَرَّقَ ذَاتُ الْبَيْنِ ، فَدَعَانِي بِحَضْرَتِهِ فِي
 خَلْوَةٍ ، وَكَانَ عِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 وَحْدَهُ ، فَقَالَ : يَا أَبَا عُيَيْدَةَ ، مَا أَئِمَّنَ نَاصِيَتَكَ ،

(١) الشِّمَاسُ المعادة والمعاندة (٢) من تههم الشيء طلبه وتحمسه

(٣) نَافَسَ في الشيء منافسة رغب فيه على وجه المباراة والمفاخرة

وَأَبَيْنَ الْخَيْرَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ ! وَطَالَمَا أَعَزَّ اللَّهُ بِكَ
 الْإِسْلَامَ وَأَصْلَحَ شَأْنَهُ عَلَى يَدَيْكَ ، وَلَقَدْ كُنْتُ
 مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَكَانِ
 الْمَحْظُوطِ ، وَالْمَحَلِّ الْمَغْبُوطِ ، وَلَقَدْ قَالَ فِيكَ فِي
 يَوْمِ مَشْهُودٍ : « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ
 الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ » ، وَلَمْ تَزَلْ لِلدِّينِ مُلْتَجَاً ،
 وَلِلْمُؤْمِنِينَ مُرْتَجَى ، وَلِلْأَهْلِ رُكْنًا ، وَلِلْإِخْوَانِ
 رِدْءًا . قَدْ أَرَدْتُكَ لِأَمْرِ خَطَرُهُ مَخُوفٌ ، وَإِصْلَاحُهُ
 مِنْ أَعْظَمِ الْمَعْرُوفِ ، وَلَئِنْ لَمْ يَنْدَمِلْ جُرْحُهُ
 بِيَسَارِكَ وَرَفِيقِكَ ، وَلَمْ تَجِبْ^(١) حَيَّتَهُ بِرُقِيَّتِكَ ،
 وَقَعَ الْيَأْسُ ، وَأَعْضَلَ الْبَأْسُ ، وَاحْتِيجَ بَعْدَ

ذَلِكَ إِلَى مَا هُوَ أَمْرٌ مِنْهُ وَأَعْلَقُ ، وَأَعْسَرُ
 مِنْهُ وَأَعْلَقُ ، وَاللَّهُ أَسْأَلُ تَمَامَهُ بِكَ ، وَنِظَامَهُ
 عَلَى يَدَيْكَ ، فَتَأْتِ (١) لَهُ — أَبَا عُبَيْدَةَ — وَتَلَطَّفُ
 فِيهِ ، وَأَنْصَحْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ ، وَلِهَذِهِ الْعِصَابَةِ غَيْرَ آلٍ جُهِدًا ، وَلَا قَالٍ
 حَمْدًا ، وَاللَّهُ كَالِئُكَ وَنَاصِرُكَ ، وَهَادِيكَ وَمُبَصِّرُكَ ،
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ . إِمْنُضْ إِلَى عَلِيٍّ وَاخْفِضْ لَهُ جَنَاحَكَ ،
 وَاغْضُضْ عِنْدَهُ صَوْتَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ سُلَالَةُ أَبِي طَالِبٍ ،
 وَمَكَانُهُ مِمَّنْ فَقَدْنَاهُ بِالْأَمْسِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ —
 مَكَانَهُ ، وَقُلْ لَهُ : الْبَحْرُ مَغْرَقَةٌ ، وَالْبَرُّ مَفْرَقَةٌ ،
 وَالْجَوُّ أَكْلَفُ (٢) ، وَاللَّيْلُ أَغْدَفُ (٣) ، وَالسَّمَاءُ

(١) تَأْتِي فَلَانُ الْأَمْرِ: تَهَيَّأَ لَهُ وَأَتَاهُ مِنْ وَجْهِهِ (٢) الْجَوُّ أَكْلَفُ:

أَسْوَدُ تَعْلُوهُ حَمْرَةٌ (٣) وَاللَّيْلُ أَغْدَفُ: مُرْخٌ سَدُولُهُ مَظْلَمٌ

جَلَوَاءُ^(١) ، وَالْأَرْضُ صَلْعَاءُ^(٢) ، وَالصُّعُودُ مُتَعَذِّرٌ ،
 وَالْهَبُوطُ مُتَعَسِّرٌ ، وَالْحَقُّ عَطُوفٌ رَمُوفٌ ، وَالْبَاطِلُ
 عَنُوفٌ عَسُوفٌ ، وَالْعُجْبُ قَدَاحَةُ الشَّرِّ ، وَالضُّغْنُ
 رَائِدُ الْبَوَارِ ، وَالتَّعْرِيزُ شِجَارُ الْفِتْنَةِ ، وَالْقِحَّةُ ثُقُوبُ
 الْعَدَاوَةِ ، وَهَذَا الشَّيْطَانُ مُسَكِّيٌّ عَلَى شِمَالِهِ ، مُتَمِيلٌ
 يَمِينِهِ ، نَافِخٌ حِضْنِيهِ^(٣) لِأَهْلِهِ ، يَنْتَظِرُ الشَّتَاتِ
 وَالْفُرْقَةَ ، وَيَدِبُ بَيْنَ الْأُمَّةِ بِالشَّحْنَاءِ وَالْعَدَاوَةِ ،
 عِنَادًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوَّلًا ، وَلِآدَمَ ثَانِيًا ، وَلِنَبِيِّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَدِينِهِ ثَالِثًا ، يُوسِّسُ بِالْفُجُورِ ، وَيُدْلِي
 بِالْغُرُورِ ، وَيُمْنِي أَهْلَ الشَّرُّورِ ، وَيُوحِي إِلَى أَوْلِيَاءِهِ
 زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا بِالْبَاطِلِ ، دَابًّا لَهُ مُنْذُ كَانَ عَلَى

(١) السماء جلواء : مصحية (٢) الأرض صلعاء : خالية لا شجر فيها

(٣) نافخ حِضْنِيهِ : أى مستعد لأن يعمل أعماله من الشر

عَهْدِ أَيْنَا آدَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعَادَةً لَهُ
 مُنْذُ أَهَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سَالِفِ الدَّهْرِ ، لَا مَنْجَى
 مِنْهُ إِلَّا بَعْضُ النَّاجِذِ عَلَى الْحَقِّ ، وَغَضَّ الطَّرْفَ عَنِ
 الْبَاطِلِ ، وَوَطَّءَ هَامَةً عَدُوَّ اللَّهِ بِالْأَشَدِّ فَلَأْشَدَّ ،
 وَالْأَكْدَ فَالْأَكْدَ ، وَإِسْلَامَ النَّفْسِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
 فِي ابْتِغَاءِ رِضَاهُ . وَلَا بُدَّ الْآنَ مِنْ قَوْلٍ يَنْفَعُ
 إِذَا ضَرَّ السُّكُوتُ وَخِيفَ غَيْبُهُ . وَلَقَدْ أَرْشَدَكَ
 مَنْ أَفَاءُ^(١) ضَالَّتْكَ ، وَصَافَاكَ مَنْ أَحْيَا مَوَدَّتَهُ
 بَعْتَابِكَ ، وَأَرَادَ لَكَ الْخَيْرَ مِنْ آثَرِ الْبَقَاءِ مَعَكَ ،
 مَا هَذَا الَّذِي تُسَوِّلُ لَكَ نَفْسُكَ ، وَيُدَوِّي بِهِ
 قَلْبُكَ ، وَيَلْتَوِي عَلَيْهِ رَأْيُكَ ، وَيَتَخَاوِضُ^(٢) ؟

(١) أفاء : أرجع (٢) يتخاوض : يغض من بصره

دُونَهُ طَرَفُكَ ، وَيَسْرِي فِيهِ ظَعْنُكَ ، وَيَتَرَادُّ مَعَهُ
 نَفْسُكَ ، وَتَكْثُرُ عِنْدَهُ صُعَدَاؤُكَ ، وَلَا يَفِيضُ
 بِهِ لِسَانُكَ ؟ أَعْجَمَةٌ بَعْدَ إِفْصَاحٍ ؟ أَتَلْيِيسُ بَعْدَ
 إِيْضَاحٍ ؟ أَدِينُ غَيْرُ دِينِ اللَّهِ ؟ أَخُلُقُ غَيْرُ خَلْقِ
 الْقُرْآنِ ؟ أَهْدَى غَيْرُ هُدَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ ؟ أَمْثَلِي « تَمْشِي » (١) لَهُ الضَّرَاءُ وَتَدِبُّ لَهُ
 الْخَمَرُ « ؟ أَمْ مِثْلُكَ يَنْقَبِضُ عَلَيْهِ الْفَضَاءُ ،
 وَيُكْسِفُ فِي عَيْنِهِ الْقَمَرُ ؟ مَا هَذِهِ الْقَعْقَعَةُ
 بِالشَّانِ (٢) ؟ وَمَا هَذِهِ الْوَعْوَةُ بِاللِّسَانِ ؟ إِنَّكَ
 وَاللَّهِ جَدُّ عَارِفٍ بِاسْتِجَابَتِنَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ

(١) الضراء : الاستخفاء . والخمر : ما رواك من شجر . وهو
 مثل يضرب لمن يندع صاحبه (٢) الشان جمع شن : وهو القرية الخلق
 الصغيرة . والقعقة الصوت يريد أنه لا يخوف بمثل هذا

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبِخُرُوجِنَا عَنْ أَوْطَانِنَا
 وَأَمْوَالِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَحِبَّتِنَا ، هِجْرَةً إِلَى اللَّهِ عَزَّ
 وَجَلَّ ، وَنُصْرَةً لِدِينِهِ ، فِي زَمَانٍ أَنْتَ فِيهِ فِي كِنِّ
 الصِّبَا ، وَخِذْرِ الْقَرَارَةِ ، وَعُغْفُورَانِ الشَّيْبَةِ ،
 غَافِلٌ عَمَّا يُشِيبُ وَيُرِيبُ ، لَا تَعِي مَا يُرَادُ
 وَيُشَادُ ، وَلَا تُحْصَلُ مَا يُسَاقُ وَيُقَادُ ، سِوَى
 مَا أَنْتَ جَارٍ عَلَيْهِ إِلَى غَايَتِكَ الَّتِي إِلَيْهَا
 عُدِلَ بِكَ ، وَعِنْدَهَا حُطَّ رَحْلُكَ ، غَيْرُ
 مَجْهُولِ الْقَدْرِ ، وَلَا مَجْهُودِ الْفَضْلِ . وَنَحْنُ
 فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ نُعَانِي أَهْوَآلًا تُزِيلُ الرِّوَاسِيَّ ،
 وَنُقَاسِي أَهْوَآلًا تُشِيدُ النِّوَاصِيَّ ، خَائِضِينَ غِمَارَهَا ،

رَاكِبِينَ تَيَّارَهَا ، نَتَجَرَّعُ صَابَهَا ، وَنُشْرِجُ^(١) عِيَابَهَا ،
وَنُحْكِمُ^(٢) أَسَاسَهَا ، وَنُبْرِمُ^(٣) أَمْرَاسَهَا ، وَالْعُيُونُ تُحْدِجُ
بِالْحُسْدِ ، وَالْأَنْفُوفُ تَقْطُسُ بِالْكِبْرِ ، وَالصُّدُورُ
تُسْتَعِرُ بِالْغَيْظِ ، وَالْأَعْنَاقُ تَتَطَاوُلُ بِالْفَخْرِ ، وَالشِّفَارُ
تُسْحَدُ بِالْمَكْرِ ، وَالْأَرْضُ تَمِيدُ بِالْخَوْفِ ، وَلَا نَنْتَظِرُ
عِنْدَ الْمَسَاءِ صَبَاحًا ، وَلَا عِنْدَ الصَّبَاحِ مَسَاءً وَلَا نُدْفَعُ
فِي نَحْرِ أَمْرٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ نَحْسُوَ الْمَوْتَ دُونَهُ ، وَلَا نَبْلُغُ
مُرَادًا إِلَّا بَعْدَ الْإِيَّاسِ مِنَ الْحَيَاةِ عِنْدَهُ ، فَادِينِ فِي
جَمِيعِ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْأَبِ
وَالْأُمِّ ، وَالْخَالِ وَالْعَمِّ ، وَالْمَالِ وَالنَّشَبِ ، وَالسَّبَدِ^(٣)

(١) نُشْرِجُ عِيَابَهَا : تنضدها ونضم بعضها إلى بعض والعياب جمع
عيبة وهي زنبيل من أدم تجعل فيه الثياب (٢) جمع مرس ككتف وهو
الجليل (٣) السبد : الشعر . والبلد : الصوف

وَاللَّبَدِ ، وَالْهَلَّةِ^(١) وَالْبِلَّةِ . بِطِيبِ أَنْفُسٍ ، وَفُرَّةِ أَعْيُنٍ
وَرَحْبِ أَعْطَانٍ ، وَثَبَاتِ عَزَائِمٍ ، وَصِحَّةِ عُقُولٍ ،
وَطَلَّاقَةِ أَوْجُهٍ ، وَذَلَّاقَةِ أَلْسُنٍ . هَذَا ، مَعَ خَفِيَّاتِ
أَسْرَارٍ ، وَمَكْنُونَاتِ أَخْبَارٍ ، كُنْتَ عَنْهَا غَافِلًا ،
وَلَوْ لَا سِنُّكَ لَمْ تَكُنْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا نَاقِلًا ، كَيْفَ
وَفُؤَادُكَ مَشْهُومٌ^(٢) ، وَعُودُكَ مَعْجُومٌ ؟ وَالْآنَ قَدْ
بَلَغَ اللَّهُ بِكَ ، وَأَنْهَضَ الْخَيْرَ لَكَ ، وَجَعَلَ مُرَادَكَ
بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَعَنْ عِلْمٍ أَقُولُ مَا تَسْمَعُ ، فَارْتَقِبْ
زَمَانَكَ ، وَقَلِّصْ أَرْدَانَكَ ، وَدَعْ التَّقَعُّسَ وَالتَّجَسُّسَ
لِمَنْ لَا يَظْلَعُ لَكَ إِذَا خَطَا ، وَلَا يَتَزَحَّزَحُ عَنْكَ
إِذَا عَطَا فَالْأَمْرُ غَضٌّ ، وَالنَّفُوسُ فِيهَا مَضٌ . وَإِنَّكَ

(١) يقال جاءنا فلان فلم يأتنا بهلة ولا بلة أى لم يأتنا بشيء . فالهلة من
الفرح والاستهلال ، والبلّة من البلل والخير (٢) مشهوم : ذكى متوقد

أَدِيمُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَلَا تَحْلَمُ^(١) لَجَاجًا ، وَسَيْفُهَا الْعَضْبُ ،
 فَلَا تَنْبُ اغْوَجَاجًا ، وَمَاؤُهَا الْعَذْبُ فَلَا تَحُلُ اجَاجًا ،
 وَاللَّهُ لَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 عَنْ هَذَا الْأَمْرِ ، فَقَالَ لِي : « يَا أَبَا بَكْرٍ هُوَ لِمَنْ
 يَرْغَبُ عَنْهُ . لَا لِمَنْ يُجَاحِشُ^(٢) عَلَيْهِ ، وَلِمَنْ يَتَضَاهِلَ
 عَنْهُ لَا لِمَنْ يَتَنَفَّجُ^(٣) إِلَيْهِ ، هُوَ لِمَنْ يُقَالُ هُوَ لَكَ ،
 لَا لِمَنْ يَقُولُ هُوَ لِي »

وَلَقَدْ شَاوَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 فِي الصَّهْرِ ، فَذَكَرَ فِتْيَانًا مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقُلْتُ :
 أَيْنَ أَنْتَ مِنْ عَلِيٍّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ : إِنِّي أَكْرَهُ لِفَاطِمَةَ مِيعَةَ شَبَابِهِ ، وَحَدَاثَةِ

(١) حلم الجلد (من باب فرح) : فسد وتثقب (٢) أى يطلبه
 ويدافع عنه (٣) يتطلع إليه ويفتخر به

سِنِّهِ . فَقُلْتُ لَهُ : مَتَى كَنَفْتُهُ يَدُكَ ، وَرَعْتُهُ عَيْنُكَ
 حَفَّتْ بِهِمَا الْبَرَكَهٗ ، وَأُسْبِغَتْ عَلَيْهِمَا النُّعْمَةُ ، مَعَ
 كَلَامٍ كَثِيرٍ خَاطَبْتُهُ بِهِ رَغْبَةً فِيكَ ، وَمَا كُنْتُ
 عَرَفْتُ مِنْكَ فِي ذَلِكَ لَا حَوْجَاءَ وَلَا لَوْجَاءَ^(١) ،
 فَقُلْتُ مَا قُلْتُ وَأَنَا أَرَى مَكَانَ غَيْرِكَ ، وَأَجِدُ
 رَاحَةَ سِوَاكَ ؛ وَكُنْتُ إِذْ ذَاكَ خَيْرًا لَكَ مِنْكَ الْآنَ لِي .
 وَلَئِنْ كَانَ عَرَضَ بِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي
 هَذَا الْأَمْرِ ، فَلَمْ يَكُنْ مُعْرِضًا عَنْ غَيْرِكَ : وَإِنْ كَانَ قَالَ
 فِيكَ فَمَا سَكَتَ عَنْ سِوَاكَ ؟ وَإِنْ تَلَجَّلَجَ فِي نَفْسِكَ
 شَيْءٌ فَفَهْلَمْ ، فَالْحَكْمُ مَرْضِيٌّ ، وَالصَّوَابُ مَسْمُوعٌ ، وَالْحَقُّ
 مُطَاعٌ . وَلَقَدْ نُقِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) أى ما كنت عرفت منك شيئاً

إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهُوَ عَنْ هَذِهِ الْعِصَابَةِ رَاضٍ ،
وَعَلَيْهَا حَذِرٌ ، يَسْرُهُ مَا سَرَّهَا وَيَسُوئُهُ مَا سَاءَهَا ،
وَيَكِيدُهُ مَا كَادَهَا وَيُرْضِيهِ مَا أَرْضَاهَا ، وَيُسْخِطُهُ
مَا أَسْخَطَهَا . أَمَّا تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَدْعُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ
وَأَقَارِبِهِ وَسُجَرَاءِهِ ^(١) ، إِلَّا أَبَانَهُ بِفَضِيلَةٍ ، وَخَصَّهُ بِمِزْيَةٍ ،
وَأَفْرَدَهُ بِحَالَةٍ ! أَتَظُنُّ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ الْأُمَّةَ
سُدًى بَدَدًا ، عَبَاهِلَ ^(٢) مَبَاهِلَ ، طَلَا حَى مَفْتُونَةً بِالْبَاطِلِ
مَغْبُونَةً عَنِ الْحَقِّ ، لَا رَائِدَ وَلَا ذَائِدَ ، وَلَا ضَابِطَ وَلَا
حَائِطَ ، وَلَا سَاقِيَ وَلَا وَاقِيَ ، وَلَا هَادِيَ وَلَا حَادِيَ !
كَلَّا ! وَاللَّهِ مَا أُشْتَاقَ إِلَى رَبِّهِ تَعَالَى وَلَا سَأَلَهُ الْمَصِيرَ
إِلَى رِضْوَانِهِ وَقُرْبِهِ ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ ضَرَبَ الْمَدَى ،

(١) سَجَرَاءُهُ : أَصْدِقَائِهِ (٢) عَبَاهِلُ مَبَاهِلُ (بِالْبَاءِ الْوَحْدَةِ فِي

الْكَلِمَتَيْنِ) : مَهْمَلَةٌ

وَأَوْضَحَ الْهُدَى ، وَأَبَانَ الصُّوَى ^(١) ، وَأَمَّنَ الْمَسَالِكَ
وَالْمَطَارِحَ ، وَسَهَّلَ الْمَبَارِكَ وَالْمَهَايِعَ ^(٢) ، وَإِلَّا بَعْدَ
أَنْ شَدَخَ يَافُوخَ ^(٣) الشَّرِّكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَشَرَمَ وَجْهَ
النِّفَاقِ لَوَجْهِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَجَدَعَ أَنْفَ الْفِتْنَةِ فِي
ذَاتِ اللَّهِ ، وَتَقَلَّ فِي عَيْنِ الشَّيْطَانِ بِعَوْنِ اللَّهِ ،
وَصَدَعَ بِمِلَّةٍ فِيهِ وَيَدِهِ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

وَبَعْدُ ، فَهَؤُلَاءِ ^(٤) الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ عِنْدَكَ
وَمَعَكَ فِي بُقْعَةٍ وَاحِدَةٍ وَدَارٍ جَامِعَةٍ ، إِنْ أَسْتَقَالُونِي
لَكَ وَأَشَارُوا عِنْدِي بِكَ ، فَأَنَا وَاصِعٌ يَدِي فِي يَدِكَ ،

(١) الصوى : الاعلام (٢) المهايع : الطرق (٣) اليافوخ

(يهمز ولا يهمز) : جزء الرأس الذي لا يتحرك في الطفل (٤) في صبح
الأعشى : « فهذه »

وَصَارَتْ إِلَى رَأْيِهِمْ فِيكَ . وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَادْخُلْ
فِيمَا دَخَلَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ ، وَكُنْ الْعَوْنَ عَلَى مَصَالِحِهِمْ ،
وَالْفَاتِحَ لِمَغَالِقِهِمْ ، وَالْمُرْشِدَ لِضَالَّتِهِمْ ، وَالرَّادِعَ
لِغَوَايَتِهِمْ ، فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ،
وَالْتَنَاصُرِ عَلَى الْحَقِّ . وَدَعْنَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
بِصُدُورٍ بَرِيئَةٍ مِنَ الْغُلِّ ، وَنَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى بِقُلُوبٍ
سَلِيمَةٍ مِنَ الضُّغْنِ .

وَبَعْدُ ، فَالنَّاسُ ثَمَامَةٌ فَارْفُقْ بِهِمْ وَأَحْنُ عَلَيْهِمْ
وَلِنْ لَهُمْ ، وَلَا تُشَقِّ نَفْسَكَ بِنَا خَاصَّةً فِيهِمْ ، وَاتْرُكْ
نَاجِمَ الْحَقْدِ حَصِيدًا ، وَطَائِرَ الشَّرِّ وَاقِعًا ، وَبَابَ
الْفِتْنَةِ مُغْلَقًا ، فَلَا قَالَ وَلَا قِيلَ ، وَلَا لَوْمَ وَلَا تَبِيعَ
وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ شَهِيدٌ ، وَبِمَا نَحْنُ عَلَيْهِ بَصِيرٌ .

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : فَلَمَّا تَأَهَّبْتُ لِلنُّهْوضِ ، قَالَ
 عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كُنْ لَدَى الْبَابِ هُنِيئَةً ، فَلَی
 مَعَكَ دَوْرٌ مِّنَ الْقَوْلِ ؛ فَوَقَفْتُ وَمَا أَذْرَى مَا كَانَ
 بَعْدِي ، إِلَّا أَنَّهُ لِحِقْنِي بَوَاجِهِ يَنْدِي تَهْلُلًا ، وَقَالَ لِي :
 قُلْ لِعَلِيٍّ : الرُّقَادُ مُحَلَمَةٌ ، وَالْهَوَى مَقْحَمَةٌ ، وَمَا
 مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ، وَحَقٌّ مُّشَاعٌ أَوْ مَقْسُومٌ ،
 وَنَبَأٌ ظَاهِرٌ أَوْ مَكْتُومٌ ؛ وَإِنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ
 مَنْ مَنَعَ الشَّارِدَ تَأَلُّفًا وَقَارِبَ الْبَعِيدِ تَلَطُّفًا ، وَوَزَنَ
 كُلَّ شَيْءٍ بِمِيزَانِهِ ، وَلَمْ يَخْلُطْ خُبْرَهُ بِعَيَانِهِ ،
 وَلَمْ يَجْعَلْ قِطْرَهُ مَكَانَ شِبْرِهِ ، دِينًا كَانَ أَوْ دُنْيَاً ،
 ضَلَالًا كَانَ أَوْ هُدًى ، وَلَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ مُّسْتَعْمَلٍ
 فِي جَهْلٍ ، وَلَا خَيْرَ فِي مَعْرِفَةٍ مَّشُوبَةٍ بِنُكْرٍ .

وَلَسْنَا كَجِلْدَةٍ رُفِعَ^(١) الْبَعِيرِ بَيْنَ الْعِجَانِ وَالذَّنَبِ ،
وَكُلُّ صَالٍ فَبِنَارِهِ ، وَكُلُّ سَيِّئٍ فَإِلَى قَرَارِهِ . وَمَا
كَانَ سُكُوتُ هَذِهِ الْعِصَابَةِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ لِعَمَى
وَشْيٍ^(٢) ، وَلَا كَلَامُهَا الْيَوْمَ لِفَرَقٍ أَوْ رَفْقٍ .
وَقَدْ جَدَعَ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْفَ
كُلِّ ذِي كِبَرٍ ، وَقَصَمَ ظَهْرَ كُلِّ جَبَّارٍ ، وَقَطَعَ
لِسَانَ كُلِّ كَذُوبٍ ، فَمَازَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ .
مَا هَذِهِ الْخُزُونَةُ^(٣) الَّتِي فِي فَرَاشِ رَأْسِكَ ! مَا هَذَا
الشَّجَا الْمُعْتَرِضُ فِي مَدَارِجِ أَنْفَاسِكَ ! مَا هَذِهِ الْقَذَاةُ
الَّتِي تَغَشَّتْ نَاطِرَكَ ! وَمَا هَذِهِ الْوَحَرَةُ^(٤) الَّتِي أَكَلَتْ

(١) الرفع : أصل التخذ من باطن . والعجان : الاست . يريد أن

منزلتهم بين الأحياء والعشائر ليست حقيرة مهينة (٢) الشئ بالكسر

إتباع للعمى (٣) الخزونة : الكبر (٤) الوحرة (بالتحريك)

والحد العدواة والشراسيف : جمع شرسوف والشرسوف مقط الضلع

شَرَّ سَيْفِكَ ! وَمَا هَذَا الَّذِي لَبِسْتَ بِسَبَبِهِ جِلْدَ النَّمْرِ
 وَأَشْتَمَلْتَ عَلَيْهِ بِالشَّحْنَاءِ وَالنُّكْرِ ! وَلَسْنَا فِي كَسْرَوِيَّةٍ
 كَسَرَى ، وَلَا فِي قَيْصَرِيَّةٍ قَيْصَرَ ! تَأَمَّلْ لِأَخْوَانِ
 فَارِسَ وَأَبْنَاءَ الْأَصْفَرِ ! قَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ جَزْرًا لِسُيُوفِنَا ،
 وَدَرِيئَةً لِرِمَاحِنَا ، وَمَرْمَى لِبَطْعَانِنَا ، وَتَبَعًا لِسُلْطَانِنَا ،
 بَلْ نَحْنُ فِي نُورِ نُبُوَّةٍ ، وَضِيَاءِ رِسَالَةٍ ، وَثَمَرَةِ
 حِكْمَةٍ ، وَآثَرَةِ رَحْمَةٍ ، وَعُنْوَانِ نِعْمَةٍ ، وَظِلِّ
 عِصْمَةٍ ، بَيْنَ أُمَّةٍ مَهْدِيَّةٍ بِالْحَقِّ وَالصِّدْقِ ، مَأْمُونَةٍ
 عَلَى الرِّتْقِ وَالْفَتْقِ ، لَهَا مِنَ اللَّهِ قَلْبٌ أَبِيٌّ ، وَسَاعِدٌ
 قَوِيٌّ ، وَيَدٌ نَاصِرَةٌ ، وَعَيْنٌ بَاصِرَةٌ . أَتَظُنُّ ظَنًّا
 يَا عَلِيُّ أَنْ أَبَا بَكْرٍ وَثَبَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ
 مُفْتَاتًا عَلَى الْأُمَّةِ ، خَادِعًا لَهَا ، أَوْ مُتَسَلِّطًا عَلَيْهَا !

أَتَرَاهُ حَلَّ عُقُودَهَا ، وَأَحَالَ عُقُولَهَا ! أَتَرَاهُ جَعَلَ
 نَهَارَهَا لَيْلًا ، وَوَزَنَهَا كَيْلًا ، وَيَقْظَتَهَا رُقَادًا ،
 وَإِصْلَاحَهَا فُسَادًا ! لَا وَاللَّهِ ! سَلَا عَنْهَا فَوَهِتْ
 لَهُ ، وَتَطَامَنَ لَهَا فَلَصِقَتْ بِهِ ، وَمَالَ عَنْهَا فَسَالَتْ
 إِلَيْهِ ، وَأَشْمَازَ دُونَهَا ، فَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ، حَبْوَةً
 حَبَاهُ اللَّهُ بِهَا ، وَعَاقِبَةً بَلَّغَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا ، وَنِعْمَةً
 سَرَبَلَهُ جَمَالَهَا ، وَيَدُّ أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ شُكْرَهَا ،
 وَأَمَّةٌ نَظَرَ اللَّهُ بِهِ إِلَيْهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَخْلَقِهِ ، وَأَرَأْفُ
 بِعِبَادِهِ ، يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرُ . وَأَنْتَ بِمَحِثٍ
 لَا يُجْهَلُ مَوْضِعُكَ مِنْ يَتِّ النَّبُوءَةِ ، وَمَعْدِنِ
 الرِّسَالَةِ ، وَلَا يُجْحَدُ حَقُّكَ فِيمَا أَتَاكَ اللَّهُ . وَلَكِنْ
 لَكَ مَنْ يُزَاحِمُكَ بِمَنْكِبِ أَضْنَمٍ مِنْ مَنْكِبِكَ ،

وَقُرْبِ أَمْسٍ مِنْ قَرَاتِكَ ، وَسِنِّ أَعْلَى مِنْ
 سِنِّكَ ، وَشَيْبَةِ أَرْوَغٍ مِنْ شَبِيبَتِكَ ، وَسِيَادَةِ لَهَا
 أَصْلٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَفَرْعٌ فِي الْإِسْلَامِ ، وَمَوَاقِفَ
 لَيْسَ لَكَ فِيهَا جَمَلٌ وَلَا نَاقَةٌ ، وَلَا تُذْكَرُ مِنْهَا
 فِي مُقَدِّمَةٍ وَلَا سَاقَةٍ ، وَلَا تَضْرِبُ فِيهَا بِذِرَاعٍ وَلَا
 أَصْبَعٍ ، وَلَا تَخْرُجُ مِنْهَا بِيَازِلٍ وَلَا هُبُعٌ ^(١) . وَلَمْ يَزَلْ
 أَبُو بَكْرٍ حَبَّةَ قَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 وَعِلَاقَةَ نَفْسِهِ وَعَيْبَةَ سِرِّهِ ، وَمَفْزَعَ رَأْيِهِ وَمَشُورَتِهِ ،
 وَرَاحَةَ كَفِّهِ ، وَمَرْمَقَ طَرْفِهِ وَذَلِكَ كُلُّهُ بِمَحْضَرِ الصَّادِرِ
 وَالْوَارِدِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، شَهْرَتُهُ مُغْنِيَةٌ عَنِ
 الدَّلِيلِ عَلَيْهِ . وَلَعُمْرِي إِنَّكَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ

(١) البازل : الجمل القوي الذي دخل في سنه التاسعة . والهبع :
 الفصيل الذي ينتج في الصيف فيكون ضعيفاً

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَابَةً ، وَلَكِنَّهُ أَقْرَبُ مِنْكَ قُرْبَةً ،
وَالْقَرَابَةُ لَحْمٌ وَدَمٌ ، وَالْقُرْبَةُ نَفْسٌ وَرُوحٌ . وَهَذَا
فَرْقٌ عَرَفَهُ الْمُؤْمِنُونَ . وَلِذَلِكَ صَارُوا إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ .
وَمَهْمَا شَكَّتَ فِي ذَلِكَ ، فَلَا تَشْكُ أَنْ يَدَّ اللَّهُ مَعَ
الْجَمَاعَةِ ، وَرِضْوَانَهُ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ ، فَأَدْخُلَ فِيمَا هُوَ
خَيْرٌ لَكَ الْيَوْمَ وَأَنْفَعُ لَكَ غَدًا ، وَالْفِظُ مِنْ فِيكَ
مَا يَعْلَقُ بِلَهَاتِكَ ، وَأَنْفُتُ سَخِيمَةَ صَدْرِكَ عَنْ تُقَاتِكَ ،
فَإِنْ يَكُ فِي الْأَمَدِ طَوْلٌ ، وَفِي الْأَجَلِ فُسْحَةٌ ،
فَسَتَأْكُلُهُ مَرِيئًا أَوْ غَيْرَ مَرِيٍّ ، وَسَتَشْرِبُهُ هَنِئًا أَوْ
غَيْرَ هَنِئٍ ، حِينَ لَا رَادَّ لِقَوْلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ آيسًا
مِنْكَ ، وَلَا تَابِعَ لَكَ إِلَّا مَنْ كَانَ طَامِعًا فِيكَ ،
يَمُضُ^(١) إِهَابَكَ ، وَيَعْرُكُ^(٢) أَدِيمَكَ ، وَيُزِرِّي عَلَى

(١) يمض أهابك : يحرق جلدك (٢) يعرك : يدلك

هَدِيكَ . هُنَالِكَ تَقْرَعُ السِّنَّ مِنْ نَدَمٍ ، وَتَجْرَعُ الْمَاءَ
 مَمْزُوجًا بِدَمٍ ، وَحِينَئِذٍ تَأْسَى عَلَى مَا مَضَى مِنْ عُمرِكَ ،
 وَدَارِجٍ قُوَّتِكَ ، فَتَوَدُّ أَنْ لَوْ سَقِيتَ بِالْكَأْسِ الَّتِي
 أُيِّتَهَا ، وَرُدِدْتَ إِلَى حَالَتِكَ الَّتِي أَسْتَغْوَيْتَهَا .
 وَلِلَّهِ تَعَالَى فِينَا وَفِيكَ أَمْرٌ هُوَ بِالْغُهِ ، وَغَيْبٌ هُوَ
 شَاهِدُهُ ، وَعَاقِبَةٌ هُوَ الْمَرْجُوُّ لِسَرَائِهَا وَضَرَائِهَا ،
 وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ، الْغَفُورُ الْوَدُودُ .

قال أبو عبيدة : فتمشيتُ مُتَزَمِّلًا أَنُوهُ كَأَنَّمَا
 أَخْطُو عَلَى رَأْسِي ، فَرَقًا مِنَ الْفُرْقَةِ ، وَشَفَقًا عَلَى
 الْأُمَّةِ ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خَلَاءٍ
 فَأَبْنَشْتُهُ بَنِي كُلَّهِ ، وَبَرَّئْتُ إِلَيْهِ مِنْهُ ، وَرَفِقتُ بِهِ .
 فَلَمَّا سَمِعَهَا وَوَعَاهَا ، وَسَرَتْ فِي مَفَاصِلِهِ حُمَيَّاهَا ،

قال : « حَلَّتْ مُعْلَوِّطَةٌ ^(١) ، وَوَلَّتْ مُخْرَوِّطَةٌ ^(٢) » ،
وَأَنشَأَ يَقُولُ :

إِحْدَى لِيَا لِيكَ فَهِيسَى ^(٣) هَيْسَى

لَا تَنْعَمِي اللَّيْلَةَ بِالتَّعْرِيسَى

نَعَمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ أَكُلْ هَذَا فِي أَنْفُسِ الْقَوْمِ ،
وَيُحْسِنُونَ بِهِ ، وَيَضْطَغِنُونَ ^(٤) عَلَيَّ ! قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ :
فَقُلْتُ : لَا جَوَابَ لَكَ عِنْدِي ، إِنَّمَا أَنَا قَاضٍ حَقَّ
الدِّينِ ، وَرَاتِقٌ فَتَقَ الْمُسْلِمِينَ ، وَسَادٌّ ثُلَمَةَ الْأُمَّةِ ،
يَعْلَمُ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ جُلْجُلَانٍ ^(٥) قَلْبِي ، وَقَرَارَةٍ نَفْسِي
فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَاللَّهِ مَا كَانَ قُعُودِي

(١) معلوطة : مقتحمة من غير روية (٢) مخروطة : مسرعة

(٣) هيسى : سبرى أى سير كان (٤) أى ينطوون على الضغن

وهو الحقد (٥) جلجلان قلبى : أى حبه

فِي كَنْ هَذَا الْبَيْتِ قَصْدًا لِلْخِلَافِ ، وَلَا إِنْكَارًا
 لِلْمَعْرُوفِ ، وَلَا زَرَايَةً عَلَى مُسْلِمٍ ، بَلْ لِمَا قَدْ وَقَدَنِي
 بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فِرَاقِهِ ،
 وَأَوْدَعَنِي مِنَ الْحُزْنِ لِفَقْدِهِ . وَذَلِكَ أَنِّي لَمْ أَشْهَدْ
 بَعْدَهُ مَشْهَدًا إِلَّا جَدَّدَ عَلَيَّ حُزْنًا وَذَكَرَنِي شَجْنًا .
 وَإِنَّ الشَّوْقَ إِلَى اللَّحَاقِ بِهِ كَافٍ عَنِ الطَّمَعِ فِي غَيْرِهِ .
 وَقَدْ عَكَفْتُ عَلَى عَهْدِ اللَّهِ أَنْظُرُ فِيهِ ، وَأَجْمَعُ مَا تَفَرَّقَ
 رَجَاءُ ثَوَابٍ مُعَدٍّ لِمَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ عَمَلَهُ ، وَأَسْلَمَ لِعِلْمِهِ
 وَمَشِيئَتِهِ ، وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ . عَلَى أَنِّي مَا عَلِمْتُ أَنَّ
 التَّظَاهُرَ عَلَى وَاقِعٍ ، وَلَا عَنِ الْحَقِّ الَّذِي سِيقَ إِلَى
 دَافِعٍ . وَإِذْ قَدْ أُفْعِمَ الْوَادِي بِي ، وَحُشِدَ النَّادِي مِنْ
 أَجْلِي ، فَلَا مَرْجَبًا بِمَا سَاءَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ

وَسَرَرَنِي . وَفِي النَّفْسِ كَلَامٌ لَوْ لَا سَابِقُ عَقْدٍ وَسَالِفُ
عَهْدٍ ، لَشَفِيتُ غِيْظِي بِمُخْنَصِرِي وَبِنَصْرِي ، وَخُضْتُ
لُجَّتَهُ بِأَخْصِي وَمَفْرِقِي ، وَلِكِنِّي مُلْجَمٌ ، إِلَى أَنْ أَلْقَى
اللَّهَ رَبِّي ، وَعِنْدَهُ أُحْتَسِبُ مَا نَزَلَ بِي وَإِنِّي غَادٍ
إِلَى جَمَاعَتِكُمْ ، فَبَايَعُ صَاحِبِكُمْ ، صَابِرٌ عَلَى مَا
سَاءَ لِي وَسَرَّكُمْ ، لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا .

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : فَعُدْتُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ الْقَوْلَ عَلَى غَرِّهِ (١) وَلَمْ أَخْتَزِلْ شَيْئًا
مِنْ حُلُوهِ وَمُرِّهِ ، وَبَكَرْتُ غُدُوَّةً إِلَى الْمَسْجِدِ ،
فَلَمَّا كَانَ صَبَاحُ يَوْمٍ مَمْدٍ وَإِذَا عَلِيٌّ مُخْتَرِقُ الْجَمَاعَةِ إِلَى
أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَبَايَعَهُ وَقَالَ خَيْرًا ، وَوَصَفَ

(١) على غره : أى كما هو وكما قس على

جَمِيلًا ، وَجَلَسَ زَمِيئًا^(١) وَاسْتَأْذَنَ لِلْقِيَامِ فَمَضَى وَتَبِعَهُ
عُمَرُ مُكْرِمًا لَهُ ، مُسْتَأْثَرًا لِمَا عِنْدَهُ

فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا قَعَدْتُ عَنْ صَاحِبِكُمْ
كَارِهًا ، وَلَا أَتَيْتُهُ فَرَقًا ، وَلَا أَقُولُ مَا أَقُولُ تَعَلَّةً :
وَإِنِّي لَأَعْرِفُ مُنْتَهَى طَرَفِي ، وَمَحَطَّ قَدَمِي ، وَمَنْزَعِ
قَوْسِي ، وَمَوْقِعِ سَهْمِي ، وَلَكِنْ قَدْ أَزَمْتُ عَلَى
فَأْسِي^(٢) ثَقَّةً بِرَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كَفَيْكَ غَرْبَكَ ،
وَاسْتَوْقِفْ سِرْبَكَ ، وَدَعْ الْعِصَى بِلِحَائِهَا ، وَالذَّلَالَ
عَلَى رِشَائِهَا . فَإِنَّا مِنْ خَلْفِهَا وَوَرَائِهَا ، إِنْ قَدَحْنَا

(١) زَمِيئًا : حَلِيمًا وَقَوْرًا (٢) يُقَالُ : أَزَمَ الْفَرَسُ عَلَى، فَأَسَ اللَّجَامُ
إِذَا عَضَهَا وَقَبِضَ عَلَيْهَا . وَفَأَسَ اللَّجَامُ : الْحُدَيْدَةُ الْمَعْرُضَةُ لَهُ فِي الْحَنَكِ .
يُرِيدُ أَنَّهُ أَلْجَمَ ثَقَّةً بِثَقَّةٍ أَخ

أَوْزَيْنَا ، وَإِنْ مَتَحْنَا أَرْوَيْنَا ، وَإِنْ قَرَحْنَا أَدْمَيْنَا ،
وَلَقَدْ سَمِعْتُ أَمَّا ثِيْلَكَ الَّتِي لَغَزْتَ بِهَا عَنْ صَدْرِ
أَكَلَ بِالْجَوَى ، وَلَوْ شِئْتُ لَقُلْتُ عَلَى مَقَالَتِكَ
مَا إِنْ سَمِعْتَهُ نَدِمْتَ عَلَى مَا قُلْتَ . وَزَعَمْتَ أَنَّكَ
فِي كِنِّ يَتِيكَ لِمَا وَقَدَكَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فَقْدِهِ ، فَهُوَ وَقَدَكَ وَلَمْ يَقْدُ غَيْرَكَ !
بَلْ مُصَابُهُ أَعْظَمُ وَأَعْمُ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ مِنْ حَقِّ
مُصَابِهِ أَلَّا تَصْدَعَ شَمْلَ الْجَمَاعَةِ بِفُرْقَةٍ لَا عِصَامَ
لَهَا ، وَلَا يُؤْمِنُ كَيْدُ الشَّيْطَانِ فِي بَقَائِهَا . هَذِهِ
الْعَرَبُ حَوَّلَنَا ، وَاللَّهِ لَوْ تَدَاعَتْ عَلَيْنَا فِي صُبْحِ
نَهَارٍ لَمْ نَلْتَقِ فِي مَسَائِهِ . وَزَعَمْتَ أَنَّ الشَّوْقَ
إِلَى اللَّحَاقِ بِهِ كَافٍ عَنِ الطَّمَعِ فِي غَيْرِهِ ! فَمِنْ

عَلَامَةُ الشَّوْقِ إِلَيْهِ نُصْرَةُ دِينِهِ ، وَمُؤَاوَزَةُ أَوْلِيَائِهِ
 وَمُعَاوَنَتُهُمْ ، وَزَعَمْتَ أَنَّكَ عَكَفْتَ عَلَى عَهْدِ اللَّهِ
 تَجْمَعُ مَا تَفَرَّقَ مِنْهُ ، فَمِنَ الْعُكُوفِ عَلَى عَهْدِ اللَّهِ
 النَّصِيحَةُ لِعِبَادِ اللَّهِ ، وَالرَّافَةُ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ ، وَبَذَلُ
 مَا يَصْلُحُونَ بِهِ ، وَيُرْشِدُونَ عَلَيْهِ ، وَزَعَمْتَ أَنَّكَ
 لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّظَاهُرَ وَاقِعٌ عَلَيْكَ ، وَأَيُّ حَقٍّ
 لَطَّ (١) دُونَكَ ! قَدْ سَمِعْتَ وَعَلِمْتَ مَا قَالَ الْأَنْصَارُ
 بِالْأَمْسِ سِرًّا وَجَهْرًا ، وَتَقَلَّبْتَ عَلَيْهِ بَطْنًا وَظَهْرًا ،
 فَهَلْ ذَكَرْتَ أَوْ أَشَادَتْ بِكَ ، أَوْ وَجَدْتَ رِضَاهُمْ
 عَنْكَ ؟ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِلِسَانِهِ إِنَّكَ تَصْلُحُ
 لِهَذَا الْأَمْرِ ؟ أَوْ أَوْمَأَ بَعَيْنِهِ أَوْ هَمَّ فِي نَفْسِهِ ؟

أَتَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ ضَلُّوا مِنْ أَجْلِكَ ، وَعَادُوا كُفَارًا
 زُهْدًا فِيكَ ، وَبَاعُوا اللَّهَ تَحَامُلًا عَلَيْكَ ؟ لَا وَاللَّهِ !
 لَقَدْ جَاءَنِي عَقِيلُ بْنُ زِيَادٍ الْخَزْرَجِيُّ ، فِي نَفَرٍ مِنْ
 أَصْحَابِهِ ، وَمَعَهُمْ شُرَحْبِيلُ بْنُ يَعْقُوبَ الْخَزْرَجِيُّ
 وَقَالُوا إِنَّ عَلِيًّا يَنْتَظِرُ الْإِمَامَةَ ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ أَوْلَى
 بِهَا مِنْ غَيْرِهِ ، وَيُنْكِرُ عَلَى مَنْ يَعْقِدُ الْخِلَافَةَ ،
 فَأَنْكَرْتُ عَلَيْهِمْ ، وَرَدَدْتُ الْقَوْلَ فِي نَحْرِهِمْ حَيْثُ
 قَالُوا : إِنَّهُ يَنْتَظِرُ الْوَحْيَ ، وَيَتَوَكَّفُ^(١) مُنَاجَاةَ
 الْمَلِكِ ، فَقُلْتُ ذَاكَ أَمْرٌ طَوَاهُ اللَّهُ بَعْدَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَكَانَ الْأَمْرُ مَعْقُودًا
 بِأَنْشُوطَةٍ^(٢) ، أَوْ مَشْدُودًا بِأَطْرَافِ لِيْطَةٍ^(٣) ؟ كَلَّا !

(١) يتوكف : ينتظر (٢) الأنشوطه : عقده يسهل انحلالها إذا أخذ
 بأحد طرفيها انفتحت (٣) الليطة : قشرة القصبة التي تليط بها أى تلتزق

وَاللّٰهُ لَا عِجْمَاءَ بِحَمْدِ اللّٰهِ إِلَّا أَفْصَحَتْ ، وَلَا شَوْكَاءَ
إِلَّا وَقَدْ تَفَتَّحَتْ ، وَمِنْ أَعْجَبِ شَأْنِكَ قَوْلُكَ :
« وَلَوْلَا سَالِفُ عَهْدٍ ، وَسَابِقُ عَقْدٍ ، لَشَفِيتُ
غَيْظِي ! » وَهَلْ تَرَكَ الدِّينُ لِأَهْلِهِ أَنْ يَشْفُوا غَيْظَهُمْ
بِيَدٍ أَوْ بِلِسَانٍ ؟ تِلْكَ جَاهِلِيَّةٌ وَقَدْ اسْتَأْصَلَ
اللّٰهُ شَافَتَهَا ، وَاقْتَلَعَ جُرْثُومَتَهَا ، وَهَوَّرَ لَيْلَهَا ،
وَعَوَّرَ سَيْلَهَا ، وَأَبْدَلَ مِنْهَا الرُّوحَ وَالرَّيْحَانَ ،
وَالْهُدَى وَالْبُرْهَانَ ، وَزَعَمْتَ أَنَّكَ مُلْجِمٌ ، وَلَعَمْرِي
إِنَّ مَنْ اتَّقَى اللّٰهَ ، وَآثَرَ رِضَاهُ ، وَطَلَبَ مَا عِنْدَهُ ،
أَمْسَكَ لِسَانَهُ ، وَأَطْبَقَ فَاهُ ، وَجَعَلَ سَعْيَهُ لِمَا وَرَاهُ !
فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ : مَهْلًا يَا أَبَا حَفِصٍ ،
وَاللّٰهُ مَا بَدَلْتُ مَا بَدَلْتُ وَأَنَا أُرِيدُ نَكْثَهُ ، وَلَا

أَقَرَرْتُ مَا أَقَرَرْتُ وَأَنَا أُبْتَغِي حَوْلًا عَنْهُ . وَإِنَّ
أَخْسَرَ النَّاسِ صَفْقَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ آثَرِ النِّفَاقِ ، وَاحْتَضَنَ
الشَّقَاقَ ، وَفِي اللَّهِ سَلْوَةٌ عَنْ كُلِّ حَادِثٍ ، وَعَلَيْهِ
التَّوَكُّلُ فِي جَمِيعِ الْحَوَادِثِ .

أَرْجِعْ يَا أَبَا حَفِصٍ إِلَى مَجْلِسِكَ ، نَاقِعِ الْقَلْبِ .
مَبْرُودَ الْغَلِيلِ ، فَسِيحَ اللَّبَانِ ^(١) فَصِيحَ اللِّسَانِ ، فَلَيْسَ
وَرَاءَ مَا سَمِعْتَ وَقُلْتَ إِلَّا مَا يَشُدُّ الْأَزَرَ ، وَيَحْطُ
الْوِزَرَ ، وَيَضَعُ الْإِضْرَ ، وَيَجْمَعُ الْأَلْفَةَ ، بِمَشِيئَةِ اللَّهِ ،
وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ .

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : فَأَنْصَرَفَ عَلِيٌّ وَعُمَرُ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . وَهَذَا أَصْعَبُ مَا مَرَّ عَلَى بَعْدِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . اهـ

وَإِلَيْكَ عَهْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْإِمَامِ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ
 وَجْهَهُ وَرَضِيَ عَنْهُ لِلْأَشْتَرِ النَّحْيِ . وَارْجُوا أَنْ
 تَذْكُرَ أُسْلُوبَ عَلِيٍّ وَآثَرَهُ حِينَ دَرَسْتِكَ حَيَاةَ
 عَبْدِ الْحَمِيدِ الْكَاتِبِ . قَالَ :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ
 عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْتَرُ ، فِي
 عَهْدِهِ إِلَيْهِ ، حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ جَبَايَةَ خَرَاJِهَا ، وَجَهَادَ
 عَدُوَّهَا ، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا ، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا . أَمَرَهُ
 بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَإِثَارِ طَاعَتِهِ ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي

بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَكْسِرَ
نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَيَزَعَهَا ^(١) عِنْدَ الْجَمَحَاتِ ^(٢) فَإِنَّ
النَّفْسَ أَمَّارَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ . ثُمَّ اعْلَمْ
يَا مَالِكُ أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا
دُؤْلٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرِ ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ
أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَاةِ
قَبْلَكَ وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ ، وَإِنَّمَا
يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرَى اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسِنِ
عِبَادِهِ فَلْيَكُنْ أَحَبُّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ
لِلصَّالِحِ فَأَمَّا هَوَاكَ ، وَشُحُّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ ،
فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ
كَرِهَتْ . وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ

وَاللُّطْفَ بِهِمْ ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا ^(١) ،
تَفْتَنُكُمْ أَكْلَهُمْ فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ
أَوْ نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ ، يَفْرُطُ مِنْهُمْ الزَّلَلُ ،
وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَالُ ، وَيُؤْتِي عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ
وَالْخَطَا فَاَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي
تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ . فَإِنَّكَ
فَوْقَهُمْ ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ ، وَاللَّهُ فَوْقَ
مَنْ وَلَاكَ ! وَقَدْ اسْتَكْفَاكَ أَمْرُهُمْ وَابْتَلَاكَ بِهِمْ ،
وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبٍ ^(٢) اللَّهُ فَإِنَّهُ لَا يَدَىٰ لَكَ
بِنِقْمَتِهِ وَلَا غِنَىٰ بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَلَا تَنْدَمَنَّ
عَلَىٰ عَفْوٍ ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَىٰ بَادِرَةٍ ^(٣)

وَجَدْتَ مِنْهَا مَنُودُوحَةً وَلَا تَقُولَنَّ إِنِّي مُؤَمَّرٌ أَمْرٌ
فَأُطَاعُ فَإِنَّ ذَلِكَ إِذْغَالٌ فِي الْقَلْبِ وَمَنْهَكَةٌ^(١) لِلدِّينِ
وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغَيْرِ^(٢) . وَإِذَا أَخَذْتَ لَكَ مَا أَنْتَ
فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أَبَهَةً أَوْ مَخِيلَةً^(٣) فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ
مُلْكِ اللَّهِ فَوْقَكَ وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ
مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ^(٤) إِلَيْكَ مِنْ
طِمَاحِكَ^(٥) وَيَكْفُ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ وَيَنْفِي^(٥) إِلَيْكَ
بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ . إِيَّاكَ وَمَسَامَاةَ اللَّهِ فِي
عَظَمَتِهِ وَالتَّشَبُّهُ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ
وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ . أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ

(١) إضعاف (٢) الخطوب والحوادث (٣) كبرياء

(٤) ينخضع (٥) الجفوح أو شموخ الأنف

نَفْسِكَ وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ . وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى
 مِنْ رَعِيَّتِكَ فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمُ ! وَمَنْ ظَلَمَ
 عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصَمَهُ دُونَ عِبَادِهِ وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ
 أَذْخَصَ حُجَّتَهُ ، وَكَانَ لِلَّهِ حَرْبًا حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ
 وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ
 مِنْ إِقَامَةِ عَلَى ظُلْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَّهِدِينَ ،
 وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمُرْصَادِ . وَلَيْكُنْ أَحَبُّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ
 أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ ، وَأَعَمَّهَا فِي الْعَدْلِ ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى
 الرَّعِيَّةِ ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ ،
 وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ وَلَيْسَ
 أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَوْئِنَةً فِي الرَّخَاءِ
 وَأَقْلَ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ ، وَأَسْأَلَ

بِالْإِخْلَافِ وَأَقَلَّ شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ ، وَأَبْطَأَ عُذْرًا
عِنْدَ الْمَنَعِ وَأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ
أَهْلِ الْخَاصَّةِ وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ وَجَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ وَالْعُدَّةُ
لِلْأَعْدَاءِ الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ ، فَلْيَكُنْ صَفْوُكَ لَهُمْ
وَمِثْلُكَ مَعَهُمْ . وَلْيَكُنْ أَبْعَدُ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَأَشْنَوْهُمْ
عِنْدَكَ أَطْلَبَهُمْ لِمَعَائِبِ النَّاسِ . فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوبًا :
الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ
عَنكَ مِنْهَا . فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ وَاللَّهُ
يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنكَ فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ
يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سِتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ . أَطْلِقْ عَنِ
النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حَقْدٍ ، واقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وَتْرٍ (١)

وَتَغَابَ^(١) عَنْ كُلِّ مَا لَا يَصِحُّ لَكَ ، وَلَا تَعْجَلَنَّ
إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٍ وَإِنْ تَشَبَّهَ
بِالنَّاصِحِينَ وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ
عَنِ الْفَضْلِ وَيَعِدُّكَ الْفَقْرَ وَلَا جَبَانًا يُضْعِفُكَ عَنْ
الْأُمُورِ وَلَا حَرِيصًا يُزِينُ لَكَ الشَّرَّ بِالْجَوْرِ ، فَإِنَّ
الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ
بِاللَّهِ ، إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ
وَزِيْرًا وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي الْآثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ
بَطَانَةً^(٢) ، فَإِنَّهُمْ أَغْوَانُ الْأَثَمَةِ وَإِخْوَانُ الظَّالِمَةِ ،
وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلْفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ
وَنَفَادِهِمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ مِمَّنْ

(١) تظاهر بالغباء فسيد القوم المتغابون (٢) حاشية وأصدقاء

لَمْ يُعَاوَنْ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ ، وَلَا آثِمًا عَلَى إِثْمِهِ ،
 أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَوْثُونَةً ، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً ،
 وَأَخْنَى عَلَيْكَ عِطْفًا ، وَأَقْلَلْ لِنَعِيرِكَ إِلْفًا . فَاتَّخِذْ
 أُولَئِكَ خَاصَّةً لِمَخْلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ . ثُمَّ لِيَكُنْ
 آثَرُهُمْ ^(١) عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ لَكَ بِمُرِّ الْحَقِّ وَأَقْلَهُمْ مُسَاعَدَةً
 فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ وَقِيعًا ذَلِكَ
 مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ وَالصَّقِّ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصَّدَقِ
 ثُمَّ رُضُّهُمْ ^(٢) عَلَى أَنْ لَا يُطْرُوكَ ، وَلَا يَبْجَحُوكَ
 بِيَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ . فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ
 الزَّهْوَ وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ . وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ
 وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةِ سَوَاءٍ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَرْهِيدًا

لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ وَتَدْرِيباً لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ
 عَلَى الْإِسَاءَةِ ! وَالزِّمُّ كُلُّهُ مِنْهُمْ مَا الزَّمِ نَفْسَهُ وَاعْلَمْ
 أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ
 إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ وَتَخْفِيفِهِ الْمُؤَوَّنَاتِ عَلَيْهِمْ وَتَرْكِ
 اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قَبْلَهُمْ . فَلْيَكُنْ
 مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ
 فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً^(١) طَوِيلاً وَإِنْ
 أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ
 وَإِنْ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ .
 وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةَ صَالِحَةٍ عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ
 وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأَلْفَةُ وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ وَلَا تُحْدِثَنَّ

سُنَّةٌ تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِّمَّا مَضَى مِنْ تِلْكَ السُّنَنِ فَيَكُونُ
 الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَهَا وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا
 وَأَكْثَرُ مُدَارَسَةِ الْعُلَمَاءِ وَمُنَاقَشَةِ الْحُكَمَاءِ فِي تَثْبِيتِ
 مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ
 قَبْلَكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا
 إِلَّا بِبَعْضٍ وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ فَمِنْهَا جُنُودُ
 اللَّهِ وَمِنْهَا كِتَابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ
 وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنصَافِ وَالرِّفْقِ وَمِنْهَا أَهْلُ الْجَزْيَةِ
 وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ وَمِنْهَا التُّجَّارُ
 وَأَهْلُ الصَّنَاعَاتِ وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي
 الْحَاجَةِ وَالْمَسْكِينَةِ وَكُلُّهُ قَدْ سَمَّى اللَّهُ لَهُ سَهْمَهُ وَوَضَعَ
 عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةٍ نَبِيَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظًا فَالْجُنُودُ بِإِذْنِ
 اللَّهِ حُصُونُ الرَّعِيَّةِ وَزَيْنُ الْوَلَاةِ وَعِزُّ الدِّينِ وَسَبِيلُ
 الْأَمْنِ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ ثُمَّ لَا قِوَامَ لِلْجُنُودِ
 إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقَوُّونَ بِهِ
 عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ وَيَكُونُ
 مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ ثُمَّ لَا قِوَامَ لَهُذَيْنِ الصَّنَفَيْنِ إِلَّا
 بِالصَّنَفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعَمَّالِ وَالْكَتَّابِ
 لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ ^(١) وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ
 وَيُؤْتَتَمِنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا وَلَا قِوَامَ
 لَهُمْ جَمِيعًا إِلَّا بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصَّنَاعَاتِ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ
 عَلَيْهِ مِنْ مَرَاْفِقِهِمْ وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَيَكْفُونَهُمْ

مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ مَا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ ، ثُمَّ
 الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ
 يَحِقُّ رِفْدُهُمْ^(١) وَمَعُونَتُهُمْ وَفِي اللَّهِ لِكُلِّ سَعَةٍ ،
 وَلِكُلِّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ وَلَيْسَ
 يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةٍ مَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ
 إِلَّا بِالْإِهْتِمَامِ وَالْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ ، وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى
 لُزُومِهِ الْحَقِّ ، وَالصَّبْرَ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقَلَ .
 فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ ،
 وَلِرِسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ ، وَأَتَقَاهُمْ جَبِيًّا وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا :
 مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ ،
 وَيَرَأْفُ بِالضُّعَفَاءِ ، وَيَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ ، وَمِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ

الْعُنفُ ، وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ ، ثُمَّ الصَّقُ بِذَوِي
 الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ
 وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسَّخَاءِ
 وَالسَّمَاخَةِ ، فَإِنَّهُمْ جَمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ ، وَشُعَبٌ مِنَ
 الْعُرْفِ ، ثُمَّ تَفْقَدُ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَدُ الْوَالِدَانِ
 مِنْ وَلَدَيْهِمَا ، وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ ،
 وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ ، وَإِنْ قَلَّ ، فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ
 لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ . وَلَا تَدْعُ
 تَفْقَدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اِتِّكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا ، فَإِنَّ
 لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْضِعًا
 لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ ، وَلَيْسَ كُنْ أَثَرُ رُؤُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ
 مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ ؛ وَأَفْضَلُ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَّتِهِ ،

بِمَا يَسْعُهُمْ وَيَسْعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفٍ ^(١) أَهْلِيهِمْ ،
 حَتَّى يَكُونَ هُمُومُهُمَا وَاحِدًا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ ، فَإِنَّ
 عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ ، وَإِنَّ أَفْضَلَ
 قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ ، وَظُهُورُ
 مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ ، وَإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ
 صُدُورِهِمْ ، وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحَيْطَتِهِمْ عَلَى وُلَاةِ
 الْأُمُورِ وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُورِهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ
 مُدَّتِهِمْ ، فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ وَوَاصِلِ فِي حُسْنِ الشَّاءِ
 عَلَيْهِمْ وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ ؛ فَإِنَّ
 كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهْزُ الشُّجَاعَ ،
 وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ ^(٢) ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . ثُمَّ اعْرِفْ

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى ، وَلَا تُضِيفَنَّ بَلَاءَ امْرِئٍ
إِلَى غَيْرِهِ ، وَلَا تُقْصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَاءِهِ ،
وَلَا يَدْعُونَكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَاءِهِ
مَا كَانَ صَغِيرًا ، وَلَا ضَعْفُ^(١) امْرِئٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ
مِنْ بَلَاءِهِ^(٢) مَا كَانَ عَظِيمًا . وَارْجُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
مَا يُضْلِعُكَ^(٣) مِنَ الْخُطُوبِ وَيَشْتَبِيهِ عَلَيْكَ مِنَ
الْأُمُورِ ؛ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ
إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) فَالْرَّدُّ إِلَى اللَّهِ : الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ
كِتَابِهِ ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ : الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ

الْمُفَرِّقَةَ . ثُمَّ اخْتَرَهُ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ
 فِي نَفْسِكَ مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ ، وَلَا تُنْجِسُكَ
 الْخُصُومُ ، وَلَا يَتِمَادَى فِي الزَّلَّةِ ، وَلَا يَحْصُرُ مِنَ
 النِّقْيِ إِلَى الْحَقِّ . إِذَا عَرَفَهُ ، وَلَا تُشْرِفَ نَفْسُهُ عَلَى
 طَمَعٍ وَلَا يَكْتَنِي بِأَذْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ ، وَأَوْقَفَهُمْ
 فِي الشُّبُهَاتِ . وَآخَذَهُمْ بِالْحَجِجِ ، وَأَقْلَبَهُمْ تَبَرُّمًا بِمُرَاجَعَةِ
 الْخُصَمِ وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكْشُفِ الْأُمُورِ ، وَأَصْرَمَهُمْ
 عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ ، مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَافُ ،
 وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَافُ ، وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ . ثُمَّ أَكْثَرَ تَعَاهُدَ
 قَضَائِهِ ، وَأَفْسَحَ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ ،
 وَتَقَلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الْمُنْزَلَةِ
 لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ لِإِيَامِنِ

بِذَلِكَ اغْتِيَالِ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ ، فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ
نَظْرًا بَلِيغًا ، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي
الْأَشْرَارِ : يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى ، وَتُطَلَبُ بِهِ الدُّنْيَا .
ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ فَاسْتَعْمِلْهُمْ اخْتِبَارًا ، وَلَا
تَوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً ؛ فَإِنَّهُمْ جَمَاعَةٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ
وَالْخِيَانَةِ ؛ وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجَرُّبَةِ وَالْحِيَاءِ مِنْ أَهْلِ
الْبَيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ ،
فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقًا ، وَأَصَحُّ أَعْرَاضًا ؛ وَأَقْلُ فِي الْمَطَامِعِ
إِشْرَافًا ، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظْرًا ؛ ثُمَّ أَسْبَغْ
عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ
أَنْفُسِهِمْ ، وَغِنَى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ ،
وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ .

ثُمَّ تَفَقَّدَ أَعْمَالَهُمْ وَأُبْعَثَ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ
وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ تَعَاهَدَكَ ^(١) فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ
حَدُوثَ ^(٢) لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ وَالرَّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ .
وَتَحَفَظُ مِنَ الْأَعْوَانِ فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ
إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ
اِكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِدًا فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي
بَدَنِهِ ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ
الْمَذَلَّةِ وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهْمَةِ ، وَتَفَقَّدَ
أَمْرَ الْخُرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ ؛ فَإِنْ فِي صَلَاحِهِ
وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ ؛ وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ
سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ ^(٣) عَلَى

(١) رقابتك (٢) إهابة ودعوة (٣) كلُّ وعالة

الْخُرَاجَ وَأَهْلَهُ وَلَيْكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ
 أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخُرَاجِ لِأَنَّ ذَلِكَ
 لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ ، وَمَنْ طَلَبَ الْخُرَاجَ بِغَيْرِ
 عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ . وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ
 أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا ؛ فَإِنْ شَكُوا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً أَوْ
 انْقِطَاعَ شَرِبٍ ، أَوْ بَالَةً ، أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا
 غَرَقٌ . أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ . خَفَفَتْ عَنْهُمْ بِمَا
 تَرَجُّو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ . وَلَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ
 خَفَفَتْ بِهِ الْمِثْوَنَةُ عَنْهُمْ فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ
 عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ ، وَتَزْيِينِ وَلَايَتِكَ ، مَعَ
 اسْتِجْلَابِكَ حُسْنِ ثَنَائِهِمْ ، وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ
 فِيهِمْ ، مُعْتَمِدًا فَضْلَ قُوَّتِهِمْ بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ

مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ . وَالثَّقَّةِ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ
 مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ فِي رِفْقِكَ بِهِمْ ، فَرُبَّمَا
 حَدَّثَ مِنَ الْأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ
 بَعْدُ . احْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسِهِمْ بِهِ . فَإِنَّ الْعُمَرَانَ
 مُحْتَمِلٌ مَا حَمَلْتَهُ ، وَإِنَّمَا يَأْتِي خَرَابُ الْأَرْضِ
 مِنْ إِعْوَارِ أَهْلِهَا ، وَإِنَّمَا يُعَوِّزُ أَهْلَهَا لِإِشْرَافِ
 أَنْفُسِ الْوُلَاةِ عَلَى الْجَمْعِ وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ ، وَقِلَّةِ
 انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ ؛ ثُمَّ انْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ . قَوْلَ عَلَى
 أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ ؛ وَاخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا
 مَكَائِدَكَ وَأَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لَوْجُوهِ صَالِحِ الْأَخْلَاقِ
 مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ فَيَجْتَرِئَ بِهَا عَلَيْكَ فِي
 خِلَافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلَأَ ، وَلَا تَقْصُرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِرَادِ

مُكَاتَبَاتٍ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوَابِ
عَنْكَ فِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطَى مِنْكَ ، وَلَا يُضْعَفُ عَقْدًا
اعْتَقَدَهُ لَكَ ، وَلَا يَعْجَزُ عَنْ إِطْلَاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ ،
وَلَا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الْأُمُورِ ؛ فَإِنَّ الْجَاهِلَ
بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلُ . ثُمَّ لَا يَكُنْ
اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَاسْتِنَامَتِكَ وَحُسْنِ
الظَّنِّ مِنْكَ ؛ فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّفُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلَاةِ
بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ
النَّصِيحَةِ وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ ، وَلَكِنْ اخْتَبَرَهُمْ بِمَا وُلُّوا
لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ : فَأَعِمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَرًا ،
وَأَعْرِفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهًا ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى
نَصِيحَتِكَ لِلَّهِ ؛ وَلِمَنْ وُلِّيتَ أَمْرَهُ . وَاجْعَلْ

لِرَأْسِ^(١) كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْسًا^(٢) مِنْهُمْ لَا يَقْهَرُهُ
كَبِيرُهَا ، وَلَا يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا ، وَمَهْمَا كَانَ فِي
كُتَابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَعَايَيْتَ عَنْهُ أَلْزِمْتَهُ . ثُمَّ اسْتَوْصَ
بِالتَّجَارِ وَذَوَى الصَّنَاعَاتِ وَأَوْصَ بِهِمْ خَيْرًا : الْمُقِيمِ
مِنْهُمْ وَالْمُضْطَرَبِّ بِمَالِهِ ، وَالْمُتَرْفِقِ بِيَدِنِهِ ؛ فَإِنَّهُمْ
مَوَادُّ الْمَنَافِعِ ، وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ^(٣) ، وَجُلَّالِبُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ
وَالْمَطَارِحِ فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ ، وَحَيْثُ
لَا يَلْتَمِمْ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا . وَلَا يَجْتَرِثُونَ عَلَيْهَا ؛ فَإِنَّهُمْ
سَلَمٌ لَا تُخَافُ بِأَنْقِطَتِهِ ، وَصُلْحٌ لَا تُخْشَى غَائِلَتُهُ ، وَتَفَقَّدُ
أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ . وَاعْلَمْ — مَعَ
ذَلِكَ — أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضَيْقًا فَاحِشًا ، وَشُحًّا قَبِيحًا

وَاحْتِكَارًا لِلْمَنَافِعِ ، وَتَحَكُّمًا فِي الْبَيَاعَاتِ ، وَذَلِكَ بَابُ
 مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ وَعَيْبٌ عَلَى الْوُلاَةِ ؛ فَاَمْنَعُ مِنَ الْإِحْتِكَارِ
 فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَنَعَ مِنْهُ .
 وَلَيْكُنْ الْبَيْعُ بَيْعًا سَمَحًا : بِمَوَازِينِ عَدْلٍ وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ
 بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ ^(١) فَمَنْ قَارَفَ ^(٢) حُكْرَةً ^(٣)
 بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَتَكَلَّ بِهِ ، وَعَاقِبُهُ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ .
 ثُمَّ اللَّهُ اللَّهُ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى : مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ
 لَهُمْ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى ^(٤)
 وَالزَّمْنَى ^(٥) ، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعًا وَمُعْتَرًّا ؛ وَاحْفَظْ
 لِلَّهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْمًا

(١) المشتري (٢) زاول (٣) احتكاراً (٤) الفقر وهي

ضد النعمى (٥) جمع زمين وهو من أصابته الزمانة

مِنْ يَتَّ مَالِكَ وَقِسْمًا مِنْ غَلَاتِ صَوَافِي الْإِسْلَامِ
 فِي كُلِّ بَلَدٍ ؛ فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى ،
 وَكُلُّهُ قَدْ اسْتُرِعِيتَ حَقُّهُ فَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطْرٌ .
 فَإِنَّكَ لَا تُعْذِرُ بِتَضْيِيعِكَ النَّافَةِ لِإِحْكَامِكَ الْكَثِيرِ
 الْمُنِمْ ، فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ ، وَلَا تُصَعِّرْ
 خَدَّكَ لَهُمْ ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ
 مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ ، فَفَرِّغْ لِأَوْلَاكَ
 ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضُّعِ ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ
 أُمُورَهُمْ ، ثُمَّ أَعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ
 تَلْقَاهُ ؛ فَإِنَّ هَوًى لَاءٍ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى
 الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَكُلُّهُ فَأَعْذِرْ إِلَى اللَّهِ فِي
 تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ ، وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيَتَمِ وَذَوِي الرَّقَّةِ

فِي السَّنِّ مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ ، وَلَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ ،
 وَذَلِكَ عَلَى الْوَلَاةِ ثَقِيلٌ (وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ) . وَقَدْ
 يُخَفِّفُهُ اللَّهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ ،
 وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ . وَاجْعَلْ لِذَوِي
 الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْمًا تَفَرِّغْ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ ،
 وَتَجْلِسْ لَهُمْ مَجْلِسًا عَامًّا فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ ،
 وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ
 حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُسْتَعْتَبٍ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ
 رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ ، فِي غَيْرِ
 مَوْطِنٍ (لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ
 مِنَ الْقَوَى غَيْرَ مُسْتَعْتَبٍ) ثُمَّ اخْتَمِلَ الْخُرْقَ مِنْهُمْ
 وَالْعِيَّ ، وَنَحَّ عَنْهُمْ الضِّيقَ وَالْأَنْفَ يَبْسُطُ اللَّهُ

عَلَيْكَ بِذَلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ ، وَيُوجِبُ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ ، وَأَعْطِي مَا أُعْطِيتَ هَنِيئًا ، وَامْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ ، ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا : مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْنِي عَنْهُ كِتَابُكَ ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ يَوْمَ وَرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَخْرُجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ ، وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ ، وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا يَبْنِيكَ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ الْأَقْسَامِ . وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لِلَّهِ إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا النِّيَّةُ ، وَسَامَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ . وَلَيْكُنْ فِي خَاصَّةٍ مَا تُخْلِصُ بِهِ لِلَّهِ دِينَكَ : إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةٌ ، فَأَعْطِ اللَّهَ مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ

وَنَهَارِكَ ، وَوَفَّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ
 ذَلِكَ كَامِلًا غَيْرَ مَثْلُومٍ ، وَلَا مَنْقُوصٍ بِالْغَا مِنْ بَدَنِكَ
 مَا بَلَغَ ، وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ لِلنَّاسِ فَلَا تَكُونَنَّ
 مُنْفَرًّا وَلَا مُضِيعًا ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ وَلَهُ
 الْحَاجَةُ . وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ،
 حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمَنِ كَيْفَ أَصَلِّي بِهِمْ ؟ فَقَالَ —
 (صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَوْعَفِهِمْ ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) .
 وَأَمَّا بَعْدُ ، فَلَا تُطَوِّلَنَّ اخْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ ؛ فَإِنَّ
 اخْتِجَابَ الْوَلَاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ ؛ وَقَلَّةُ
 عِلْمٍ بِالْأُمُورِ ، وَالِاخْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ
 مَا اخْتَجَبُوا دُونَهُ ، فَيَصْغُرُ عَنْدهُمُ الْكَبِيرُ ، وَيَعْظُمُ
 الصَّغِيرُ ، وَيَقْبَحُ الْحَسَنُ ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ ، وَيُشَابُ

الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ . وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَى
عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ
تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ . وَإِنَّمَا
أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ
فِي الْحَقِّ فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقِّ تَعْطِيهِ ،
أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسَدِّيه ؟ أَوْ مُبْتَلًى بِالْمَنَعِ فَمَا أَسْرَعَ
كَفَّ النَّاسُ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيْسُوا مِنْ بَذْلِكَ !
مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مِمَّا لَا مَوْثُونَةَ
فِيهِ عَلَيْكَ مِنْ شَكَاةٍ مَظْلَمَةٍ ، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ
فِي مُعَامَلَةٍ . ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَبِطَانَةً فِيهِمْ
اسْتِشَارَةً وَتَطَاوُلًا وَقَلَّةً إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ فَاحْسِمُ
مَادَّةَ أَوْلِيكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ

وَلَا تُقْطِعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَتِكَ قَطِيعَةً
وَلَا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي اعْتِقَادِ عُقْدَةٍ تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا
مِنْ النَّاسِ فِي شَرْبٍ أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ يَحْمِلُونَ
مَوْثِقَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ فَيَكُونُ مِنْهَا ذَلِكَ لَهُمْ دُونَكَ
وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَالزِّمَ الْحَقُّ مَنْ
لَزِمَهُ مِنْ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ وَكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِرًا
مُحْتَسِبًا وَاقِعًا ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ
وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ فَإِنَّ مَغَبَّةَ^(١)
ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ . وَإِنْ ظَنَنْتِ الرَّعِيَّةَ بِكَ حَيْفًا^(٢) فَأَصْحِرْ^(٣)
لَهُمْ بِعُذْرِكَ وَاعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ ، فَإِنَّ
فِي ذَلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ وَرِفْقًا بِرِعِيَّتِكَ

(١) العاقبة (٢) جوراً (٣) كن واسع النطاق

وإِعْذَارًا تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ
وَلَا تَدْفَعَنَّ صُلْحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ لِلَّهِ فِيهِ رِضًا ،
فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَاً لِحُبُودِكَ وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ
وَأَمَّا لِبِلَادِكَ وَلَكِنَّ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ
بَعْدَ صُلْحِهِ ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ ، فَخُذْ
بِالْحَزْمِ ، وَاتَّهِمْ فِي ذَلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ وَإِنْ عَقَدْتَ
بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً
فَحُطَّ عَهْدُكَ بِالْوَفَاءِ وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ ، وَاجْعَلْ
نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أُعْطِيتَ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ
فَرَائِضِ اللَّهِ شَيْءٌ فِي النَّاسِ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعًا مَعَ تَفَرُّقِ
أَهْوَائِهِمْ وَتَشْتُّ آرَائِهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ
وَقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ

لِمَا اسْتَوْبَلُوا^(١) مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ ، فَلَا تَعْدُرَنَّ
بِدِمَّتِكَ ، وَلَا تَخِيْسَنَّ^(٢) بَعْدَكَ وَلَا تَخْتَلِنَّ عَدُوَّكَ ؛
فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِيٌّ . وَقَدْ جَعَلَ
اللَّهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْنًا أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ
وَحَرِيمًا يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ
فَلَا إِدْغَالَ وَلَا مُدَالَسَةَ ، وَلَا خِدَاعَ فِيهِ وَلَا تَعْقِدَ
عَقْدًا تَجَوَّزُ فِيهِ الْعِلَلَ وَلَا تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ قَوْلٍ
بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَالتَّوَثُّقَةِ وَلَا يَدْعُونَكَ ضَيْقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ
فِيهِ عَهْدُ اللَّهِ إِلَى طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ فَإِنْ
صَبَرَكَ عَلَى ضَيْقِ أَمْرٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَفَضَلَ عَاقِبَتَهُ
خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنْ

اللَّهُ فِيهِ طَلِبَةٌ فَلَا تَسْتَقِيلَ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلَا آخِرَتَكَ .
 إِيَّاكَ وَالِدَّمَاءَ وَسَفَكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ
 أَذْنَى لِنِقْمَةٍ وَلَا أَعْظَمَ لَتَبْعَةٍ وَلَا أُخْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ
 وَاتَّقِطَاعِ مُدَّةٍ مِنْ سَفَكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا . وَاللَّهُ
 سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئُ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ فِيمَا تَسَافَكُوا
 مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا تُقَوِّنَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفَكِ
 دِمِّ حَرَامٍ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ بَلْ يُزِيلُهُ
 وَيَنْقُلُهُ وَلَا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ
 الْعَمْدِ لِأَنَّ فِيهِ قَوْدٌ^(١) الْبَدَنِ وَأَنْ ابْتُلَيْتَ بِمَخْطَأٍ
 وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ سَيْفُكَ أَوْ يَدُكَ بِالْعُقُوبَةِ
 فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ^(٢) فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةٌ فَلَا تَطْمَحَنَّ بِكَ

نَخْوَةٌ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُودِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمُقْتُولِ
حَقَّهُمْ ، وَإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ
مِنْهَا وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرُصِ
الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ ^(١) مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ
الْمُحْسِنِينَ . وَإِيَّاكَ وَالْمَنْ عَلَى رِعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ
أَوْ التَّزْيِيدِ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ
مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ ، فَإِنَّ الْمَنْ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ ، وَالتَّزْيِيدَ
يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللَّهِ
وَالنَّاسِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ
تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) وَإِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ
أَوَانِهَا أَوْ التَّسْقُطَ فِيهَا عِنْدَ امْتِكَانِهَا أَوْ اللَّجَاجَةَ

فِيهَا إِذَا تَنَكَّرْتَ ، أَوْ الْوَهْنِ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحْتَ .
 فَضَعَ كُلُّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ وَأَوْقَعَ كُلُّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ .
 وَإِيَّاكَ وَالِاسْتِثْنَاءَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ وَالتَّغَابِي عَمَّا
 تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ فَإِنَّهُ مَاخُوذٌ مِنْكَ
 لَغَيْرِكَ وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنَكَّشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةٌ^(١)
 الْأُمُورِ ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ أَمْلِكُ حِمِيَّةَ
 أَنْفِكَ ، وَسُورَةَ حَدِّكَ ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ ، وَغَرْبَ
 لِسَانِكَ ؛ وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَفٍّ^(٢) الْبَادِرَةِ ،
 وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ
 الْإِخْتِيَارَ . وَلَنْ تَحْكُمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ
 هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ . وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ

(١) ستارها وحجبها (٢) بصدها وكبح جماحها

أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ حُكُومَةٍ
 عَادِلَةٍ أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، فَتَقْتَدِيَ
 بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمَلْنَا فِيهَا . وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي
 اتِّبَاعِ مَا عَهَدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هَذَا وَاسْتَوْثَقْتُ
 بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ لِكَيْلَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ
 عِنْدَ تَسْرُعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ بِسَعَةِ
 رَحْمَتِهِ وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ أَنْ
 يُوقِّتَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ مِنَ الْإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ
 الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ ، مَعَ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ ،
 وَجَمِيلِ الْأَثَرِ فِي الْبِلَادِ ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ ، وَتَضَعِيفِ
 الْكِرَامَةِ ، وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ

إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا . وَالسَّلَامُ

وَهَاكَ رِسَالَةُ الْبَصْرِيِّ فِي صِفَةِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ ،
وَيُحَدِّثُنَا التَّارِيخُ : أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ ، لَمَّا وَلِيَ الْخِلَافَةَ ، كَتَبَ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ
أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، أَنْ يَكْتُبَ إِلَيْهِ بِصِفَةِ الْإِمَامِ
الْعَادِلِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ رَحِمَهُ اللَّهُ :

اعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْإِمَامَ
الْعَادِلَ قَوَامَ كُلِّ مَائِلٍ ، وَقَصْدَ كُلِّ جَائِرٍ ، وَصَلَاحَ
كُلِّ فَاسِدٍ ، وَقُوَّةَ كُلِّ ضَعِيفٍ ، وَنَصْفَةَ كُلِّ
مَظْلُومٍ ، وَمَفْزَعَ كُلِّ مَلْهُوفٍ . وَالْإِمَامُ الْعَدْلُ

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَالرَّاعِي الشَّفِيقِ عَلَى إِبْلِهِ ، الرَّفِيقِ ،
الَّذِي يَرْتَادُ لَهَا ^(١) أَطْيَبَ الْمَرْعَى وَيَذُودُهَا ^(٢) عَنْ
مَرَاعِ الْمَهْلَكَةِ ، وَيَحْمِيهَا مِنَ السَّبَاعِ ، وَيَكْنُفُهَا
مِنْ أَذَى الْحُرِّ وَالْقُرِّ ^(٣) . وَالْإِمَامُ الْعَدْلُ يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ كَالْأَبِ الْخَانِي عَلَى وَلَدِهِ : يَسْعَى لَهُمْ
صِغَارًا ، وَيُعَلِّمُهُمْ كِبَارًا . يَكْتَسِبُ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ ،
وَيَدَّخِرُ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِ . وَالْإِمَامُ الْعَدْلُ يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ كَالْأُمِّ الشَّفِيقَةِ الْبَرَّةِ الرَّفِيقَةِ بَوْلَدِهَا ،
حَمَلَتْهُ كُرْهًا ، وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ، وَرَبَّتْهُ طِفْلًا ، تَسَهَّرُ
بِسَهْرِهِ ، وَتَسْكُنُ بِسُكُونِهِ ، تُرْضِعُهُ تَارَةً ، وَتَقْطُمُهُ
أُخْرَى ، وَتَفْرَحُ بِعَافِيَتِهِ ، وَتَغْتَمُ بِشِكَايَتِهِ .

وَالْإِمَامُ الْعَدْلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَصِيُّ الْيَتَامَى ،
وَحَازِنُ الْمَسَاكِينِ ، يُرَبِّي صَغِيرَهُمْ وَيُمَوِّنُ كَبِيرَهُمْ .
وَالْإِمَامُ الْعَدْلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَالْقَلْبِ يَنْ
الْجَوَانِحِ ، تَصْلُحُ الْجَوَانِحُ بِصَلَاحِهِ ، وَتَفْسُدُ بِفَسَادِهِ .
وَالْإِمَامُ الْعَدْلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْقَائِمُ بَيْنَ اللَّهِ
وَبَيْنَ عِبَادِهِ ، يَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ وَيُسْمِعُهُمْ ، وَيَنْظُرُ
إِلَى اللَّهِ وَيُرِيهِمْ ، وَيَنْقَادُ إِلَى اللَّهِ وَيَقُودُهُمْ ، فَلَا تَكُنْ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا مَلَكَكَ اللَّهُ كَعَبْدٍ ائْتَمَنَهُ
سَيِّدُهُ ، وَاسْتَحْفَظَهُ^(١) مَالَهُ وَعِيَالَهُ ، فَبَدَدَ الْمَالَ
وَشَرَّدَ الْعِيَالَ ، فَافْقَرَ أَهْلَهُ ، وَفَرَّقَ مَالَهُ . وَاعْلَمْ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْحُدُودَ لِيَزْجُرَ بِهَا

(١) طلب إليه حفظه

عَنْ الْخَبَائِثِ وَالْفَوَاحِشِ ، فَكَيْفَ إِذَا أَتَاهَا مَنْ يَلِيهَا ؟
 وَأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْقِصَاصَ حَيَاةَ إِعْبَادِهِ ، فَكَيْفَ إِذَا
 قَتَلَهُمْ مَنْ يَقْتَصُّ لَهُمْ ؟ وَاذْكُرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
 الْمَوْتَ وَمَا بَعْدَهُ ، وَقِلَّةَ أَشْيَاعِكَ عِنْدَهُ ، وَأَنْصَارِكَ
 عَلَيْهِ ، فَتَزَوَّدْ لَهُ ؛ وَلِمَا بَعْدَهُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ .
 وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَكَ مَنْزِلًا غَيْرَ مَنْزِلِكَ
 الَّذِي أَنْتَ فِيهِ . يَطُولُ فِيهِ ثَوَاؤُكَ ، وَيُفَارِقُكَ
 أَحِبَّاءُكَ ، يُسَلِّمُونَكَ فِي قَعْرِهِ فَرِيدًا وَحِيدًا ، فَتَزَوَّدْ
 لَهُ مَا يَصْحَبُكَ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ
 وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . وَاذْكُرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا بُعِثَ
 مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ، فَأَلْأَسْرَارُ ظَاهِرَةٌ

وَالْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا .
فَإِنَّا لَنَآ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ فِي مَهَلٍ قَبْلَ حُلُولِ الْأَجَلِ
وَانْقِطَاعِ الْأَمَلِ ، لَا تَحْكُمُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي عِبَادِ اللَّهِ
بِحُكْمِ الْجَاهِلِينَ وَلَا تَسْلُكُ بِهِمْ سَبِيلَ الظَّالِمِينَ ،
وَلَا تُسَلِّطُ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ ؛ فَإِنَّهُمْ
لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ^(١) فَتَبَوْا بِأَوْزَارِكِ
وَأَوْزَارٍ مَعَ أَوْزَارِكِ ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكَ وَأَثْقَالًا مَعَ
أَثْقَالِكَ ، وَلَا يَغُرَّنَّكَ الَّذِينَ يَتَنَعَّمُونَ بِمَا فِيهِ
بُؤْسُكَ وَيَأْكُلُونَ الطَّيِّبَاتِ فِي دُنْيَاهُمْ بِإِذْهَابِ
طَيِّبَاتِكَ فِي آخِرَتِكَ . لَا تَنْظُرْ إِلَى قُدْرَتِكَ الْيَوْمَ ،
وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى قُدْرَتِكَ غَدًا ، وَأَنْتَ مَأْسُورٌ

فِي حَبَائِلِ الْمَوْتِ ، مَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ، فِي
تَجْمَعٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَقَدْ عَنَتِ
الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ .

إِنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنْ لَمْ أَبْلُغْ بِعِظَتِي
مَا بَلَغَهُ أُولُو النُّهْيِ مِنْ قَبْلِي ، فَلَمْ آلُكَ شَفَقَةً
وَنُصْحًا ، فَأَنْزَلَ كِتَابِي إِلَيْكَ كَمُدَاوِي حَبِيبِهِ ،
يَسْقِيهِ الْأَذْوِيَّةَ الْكَرِيمَةَ ، لِمَا يَرْجُو لَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ
الْعَافِيَةِ وَالصَّحَّةِ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .



وَالآنَ نَتَقَلُّ بِكَ بَعْدَ أَنْ اسْتَوْعَبْتَ طَرَفًا مِنْ
أَمَالِي الشَّيْخِ وَمُخْتَارَاتِهِ عَنْ أَدَبِ صَدْرِ الْإِسْلَامِ ،

وَطَرَفٍ مِنَ الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ ، إِلَى صُورَةٍ مِنَ الْأَدَبِ
 الْعَبَّاسِيِّ ، مُبْتَدئينَ بِمُشَاوَرَةِ الْمَهْدِيِّ لِأَهْلِ بَيْتِهِ .
 وَمَهْمَا عَزَاهَا النُّقَادُ إِلَى صِنَاعَةِ الْعَصْرِ ، دُونَ مَقَالَتِهَا
 مِمَّنْ غُزِيَتْ إِلَيْهِمْ ، لِاتِّسَاقِ الْأُسْلُوبِ ، وَوَحْدَةِ
 الْوَتِيرَةِ ، وَاطِّرَادِهَا فِي شَكْلِ وَاحِدٍ لُغَةً وَمَنْحَى ،
 وَلَفْظًا وَعِبَارَةً ، فَإِنَّ حَقِيقَةَ أَمْرِهَا لَا يَعْدُو أَنَّهَا مِنْ
 آيَاتِ الْعَصْرِ وَكِتَابَاتِهِ ، وَعَلَيْهَا مَسْحَةٌ ثِقَافَتِهِ
 وَعُلُومِهِ وَيُونَانِيَّةُ حِكْمَتِهِ وَفَارَسِيَّةُ مَوْعِظَتِهِ ،
 وَعَبَّاسِيٌّ طَرِيقَتِهِ .

قَالَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِي الْعِقْدِ الْفَرِيدِ : هَذَا
 مَا تَرَاجَعَ فِيهِ الْمَهْدِيُّ وَوُزَرَاؤُهُ وَمَا دَارَ بَيْنَهُمْ
 مِنْ تَذْيِيرِ الرَّأْيِ فِي حَرْبِ خُرَاسَانَ أَيَّامَ تَحَاكَلَتْ

عَلَيْهِمُ الْعُمَالُ وَأَعْنَفَتْ ، فَحَمَلَتْهُمْ الدَّائَةُ وَمَا تَقَدَّمَ
 لَهُمْ مِنَ الْمَكَانَةِ عَلَى أَنْ نَكْثُوا بَيْعَتَهُمْ ، وَتَقْضُوا
 مَوَاقِفَهُمْ ، وَطَرَدُوا الْعُمَالُ ، وَالتَّوَوَّا بِمَا عَلَيْهِمْ مِنْ
 الْخَرَاجِ ؛ وَحَمَلَ الْمَهْدِيُّ مَا يُحِبُّ مِنْ مَصْلَحَتِهِمْ
 وَيَكْرَهُ مِنْ عَنَتِهِمْ ، عَلَى أَنْ أَقَالَ عَثَرَتَهُمْ ، وَاعْتَفَرَ
 زَلَّتَهُمْ ، وَاحْتَمَلَ دَائَتَهُمْ ، تَطَوُّلاً بِالْفَضْلِ وَاتِّسَاعاً
 بِالْعَفْوِ ، وَأَخْذاً بِالْحُجَّةِ ، وَرِفْقاً بِالسِّيَاسَةِ ، وَلِذَلِكَ
 لَمْ يَزَلْ مُذْ حَمَلَهُ اللَّهُ أَعْبَاءَ الْخِلَافَةِ وَقَلَدَهُ أُمُورَ
 الرِّعْيَةِ رَفِيقاً بِمَدَارِ سُلْطَانِهِ ، بَصِيرَةً بِأَهْلِ زَمَانِهِ ،
 بَاسِطاً لِلْمَعْدَلَةِ فِي رَعِيَّتِهِ ، تَسْكُنُ إِلَى كَنَفِهِ ، وَتَتَأَنَسُّ
 بِعَفْوِهِ ، وَتَتَّقِي بِحِلْمِهِ ، فَإِذَا وَقَعَتِ الْأَقْضِيَةُ الْإِلَازِمَةُ
 وَالْحُقُوقُ الْوَاجِبَةُ ، فَلَيْسَ عِنْدَهُ هَوَادَةٌ وَلَا إِغْضَاءٌ

وَلَا مُدَاهَنَةً ، أَثَرَةً لِلْحَقِّ وَقِيَامًا بِالْعَدْلِ وَأَخْذًا
 بِالْحَزْمِ ، فَدَعَا أَهْلَ خُرَاسَانَ لِإِغْتِرَارِ مُحَامِهِ ؛ وَالثَّقَّةَ
 بِعَفْوِهِ أَنْ كَسَرُوا^(١) الْخُرَاجَ وَطَرَدُوا الْعَمَّالَ وَسَأَلُوا
 مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ، ثُمَّ خَلَطُوا احْتِجَاجًا بِاعْتِذَارٍ ،
 وَخُصُومَةً بِإِقْرَارٍ ، وَتَبَضُّلاً بِإِعْتِلَالٍ ؛ فَلَمَّا انْتَهَى ذَلِكَ
 إِلَى الْمَهْدِيِّ خَرَجَ إِلَى مَجْلِسِ خَلَائِهِ وَبَعَثَ إِلَى نَفَرٍ
 مِنْ لُحَمَتِهِ وَوُزَرَائِهِ ، فَأَعْلَمَهُمُ الْحَالَ وَاسْتَنْصَحَهُمُ
 لِلرَّعِيَّةِ ، ثُمَّ أَمَرَ الْوَالِي بِالْإِبْتِدَاءِ ، وَقَالَ لِلْعَبَّاسِ
 بْنِ مُحَمَّدٍ : أَيُّ عَمٍّ ! تَعَقَّبَ قَوْلَنَا وَكُنْ حَكَمًا يَبْنِي
 وَأَرْسَلَ إِلَى وَلَدَيْهِ مُوسَى وَهَارُونَ فَأَحْضَرَهُمَا الْأَمْرَ

(١) كسروا الخراج أى كفوا عن ادائه

وَشَارَكَهُمَا فِي الرَّأْيِ ، وَأَمَرَ مُحَمَّدٌ ^(١) بِنِ اللَّيْثِ بِحِفْظِ
مُرَاجَعَتِهِمْ ، وَإِثْبَاتِ مَقَالَاتِهِمْ فِي كِتَابٍ .

فَقَالَ سَلَامٌ ^(٢) صَاحِبُ الْمَظَالِمِ :
أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنَّ فِي كُلِّ أَمْرٍ غَايَةً ، وَلِكُلِّ
قَوْمٍ صِنَاعَةً ، اسْتَغْرَعْتُ رَأْيَهُمْ ، وَاسْتَغْرَقْتُ أَشْغَالَهُمْ
وَاسْتَنْفَدْتُ أَعْمَارَهُمْ ، وَذَهَبُوا بِهَا ، وَذَهَبَتْ بِهِمْ ،
وَعُرِفُوا بِهَا وَعُرفَتْ بِهِمْ ، وَلِهَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي
جَعَلْتَنَا فِيهَا غَايَةً ، وَطَلَبْتَ مَعُونَتَنَا عَلَيْهَا أَقْوَامٌ مِنْ
أَبْنَاءِ الْحَرْبِ وَسَاسَةِ الْأُمُورِ وَقَادَةِ الْجُنُودِ وَفُرْسَانِ
الْهَزَاهِرِ ^(٣) وَإِخْوَانِ التَّجَارِبِ ، وَأَبْطَالِ الْوَقَائِعِ الَّذِينَ

(١) هو ابن الليث بن نصر بن سيار. وكان قد أرسل المهدي أباه الليث
لحاربة المقنع فلم يتمكن منه وكان ابنه محمد هذا من كتاب المهدي ولم تعرف
سنة وفاته (٢) هو سلام بن الأبرش ، استعمله المنصور ثم تولى العقوبات
في أيام المهدي (٣) الهزاهز : تحريك البلايا والحروب في الناس

رَشَحْتَهُمْ سِجَالَهَا ، وَفَيَّأَتْهُمْ ظِلَالُهَا ، وَعَضَّتْهُمْ
 شِدَائِدُهَا ، وَقَرَمَتْهُمْ نَوَاحِذُهَا ؛ فَلَوْ عَجَمْتَ مَا قَبْلَهُمْ
 وَكَشَفْتَ مَا عِنْدَهُمْ ؛ لَوَجَدْتَ نَظَائِرَ تُوَيْدُ أَمْرِكَ ،
 وَتَجَارِبَ تُوَافِقُ نَظْرَكَ ، وَأَحَادِيثَ تُقَوِّي قَلْبَكَ ،
 فَأَمَّا نَحْنُ مَعَاشِرَ عُمَّالِكَ ، وَأَصْحَابَ دَوَاوِينِكَ ،
 فَحَسَنَ بِنَا وَكَثِيرٌ مِنَّا أَنْ نَقُومَ بِثِقَلِ مَا حَمَلْتَنَا مِنْ
 عَمَلِكَ ، وَاسْتَوْدَعْتَنَا مِنْ أَمَانَتِكَ ، وَشَغَلْتَنَا بِهِ مِنْ
 إِمْضَاءِ عَدْلِكَ ، وَإِنْفَازِ حُكْمِكَ وَإِظْهَارِ حَقِّكَ .

فَأَجَابَهُ الْمُهْدِيُّ : إِنَّ فِي كُلِّ قَوْمٍ حِكْمَةً :
 وَلِكُلِّ زَمَانٍ سِيَاسَةً ، وَفِي كُلِّ حَالٍ تَذِيرًا يُبْطِلُ
 الْآخِرُ الْأَوَّلَ ، وَنَحْنُ أَعْلَمُ بِزَمَانِنَا وَتَذِيرِ سُلْطَانِنَا ،
 قَالَ نَعَمْ أَيُّهَا الْمُهْدِيُّ ، أَنْتَ مُتَّبِعُ الرَّأْيِ ، وَثِيقُ

الْعُقْدَةُ قَوِيُّ الْمُنَّةِ ^(١) ، يَلِيغُ الْفِطْنَةَ ، مَعْصُومُ
 النِّيَّةِ ، مَحْضُورُ الرَّوِيَّةِ ، مُؤَيَّدُ الْبَدِيَّةِ ، مُوَفَّقُ
 الْعَزِيمَةِ ، مُعَانُ بِالْظَّفَرِ ، مَهْدِيٌّ إِلَى الْخَيْرِ ، إِنْ هَمَّتَ
 نَفَى عَزْمُكَ مَوَاقِعَ الظَّنِّ ، وَإِنْ اجْتَمَعَتْ صَدَعُ
 فِعْلُكَ مُلْتَبَسَ الشَّكِّ ؛ فَأَعِزِّمْ يَهْدِ اللَّهُ إِلَى الصَّوَابِ
 قَلْبَكَ ، وَقُلْ يَنْطِقُ اللَّهُ بِالْحَقِّ لِسَانَكَ ، فَإِنَّ
 جُنُودَكَ جَمَّةٌ ، وَخَزَائِنُكَ عَامِرَةٌ ، وَنَفْسُكَ سَخِيَّةٌ ،
 وَأَمْرُكَ نَافِذٌ .

فَأَجَابَهُ الْمَهْدِيُّ : إِنَّ الْمُشَاوَرَةَ وَالْمُنَازَرَةَ بَابَا
 رَحْمَةٍ ، وَمِفْتَاحَا بَرَكَاتٍ ؛ لَا يَهْلِكُ عَلَيْهِمَا رَأْيٌ ،
 وَلَا يَتَغَيَّلُ ^(٢) مَعَهُمَا حَزْمٌ فَأَشِيرُوا بِرَأْيِكُمْ وَقُولُوا

(١) الننة : القوة (٢) لا يتغيّل : لا يضعف

بِمَا يَحْضُرُكُمْ ، فَإِنِّي مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَتَوْفِيقُ اللَّهِ
مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ .

قَالَ الرَّيِّعُ :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنَّ تَصَارِيفَ وُجُوهِ الرِّأْيِ كَثِيرَةٌ
وَإِنَّ الْإِشَارَةَ بِبَعْضِ مَعَارِيضِ ^(١) الْقَوْلِ يَسِيرَةٌ وَلَكِنَّ
خُرَاسَانَ أَرْضٌ بَعِيدَةٌ الْمَسَافَةِ ، مُتَرَاخِيَةٌ الشُّقَّةِ ،
مُتَفَاوِتَةٌ السَّبِيلِ ، فَإِذَا ارْتَأَيْتُ مِنْ مُحْكَمِ التَّدْبِيرِ
وَمُبْرَمِ التَّقْدِيرِ ، وَلُبَابِ الصَّوَابِ رَأْيًا قَدْ أَحْكَمَهُ
نَظْرُكَ ، وَقَلْبَهُ تَدْبِيرُكَ ، فَلَيْسَ وَرَاءَهُ مَذْهَبُ
طَاعِنٍ وَلَا دُونَهُ مَعْلَقٌ لِخُصُومَةٍ عَائِبٍ ، ثُمَّ أَجَبْتَ
الْبُرْدَ بِهِ ، وَانْطَوَتْ الرُّسُلُ عَلَيْهِ ، كَانَ بِالْحَرَى

(١) معاريف الكلام: ما عرض به ولم يصرح به التورية بالشئ عن الشئ

أَلَّا يَصِلَ إِلَيْهِمْ مُحْكَمُهُ إِلَّا وَقَدْ حَدَثَ مِنْهُمْ مَا
 يَنْقُضُهُ، فَمَا أَيْسَرَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْكَ الرُّسُلُ، وَتَرِدَ عَلَيْكَ
 الْكُتُبُ بِحَقَائِقِ أَخْبَارِهِمْ، وَشَوَارِدِ آثَارِهِمْ،
 وَمَصَادِرِ أُمُورِهِمْ، فَتُحَدِّثَ رَأْيًا غَيْرَهُ وَتَبْتَدِعَ
 تَذِيرًا سِوَاهُ، وَقَدْ انْفَرَجَتْ الْحِلَقُ، وَتَحَلَّتِ الْعُقَدُ،
 وَاسْتَرَخَى الْحَقَابُ^(١)، وَامْتَدَّ الزَّمَانُ، ثُمَّ لَعَلَّمَا مَوْقِعَ
 الْآخِرَةِ كَمَصْدَرِ الْأُولَى؛ وَلَكِنَّ الرَّأْيَ لَكَ أَيُّهَا
 الْمَهْدِيُّ - وَفَقَّكَ اللَّهُ - أَنْ تَصْرِفَ إِجَالََةَ النَّظَرِ،
 وَتَقْلِبَ الْفِكْرَ، فِيمَا جَمَعْتَنَا لَهُ، وَاسْتَشَرْتَنَا فِيهِ
 مِنَ التَّذِيرِ لِحَزْبِهِمْ، وَالْحِيلِ فِي أَمْرِهِمْ، إِلَى الطَّلَبِ
 لِرَجُلٍ ذِي دِينٍ فَاضِلٍ، وَعَقْلٍ كَامِلٍ، وَوَرَعٍ وَاسِعٍ،

(١) الحقاب: شيء يتخذ المرأة تعلق به معاليق الحلي تشده على وسطها

لَيْسَ مَوْصُوفًا بِهَوَىٰ فِي سِوَاكَ ، وَلَا مُهْتَمًّا فِي أَثَرَةٍ
 عَلَيْكَ وَلَا خَائِنًا ^(١) عَلَى دُخْلَةٍ مَكْرُوهَةٍ ، وَلَا مَنُتُوبًا
 إِلَىٰ بِدْعَةٍ مَّخْذُورَةٍ ، فَيَقْدَحَ فِي مُلْكِكَ ، وَيُرَبِّضَ ^(٢)
 الْأُمُورَ لِغَيْرِكَ ، ثُمَّ تُسْنِدَ إِلَيْهِ أُمُورَهُمْ ، وَتَفُوضَ
 إِلَيْهِ حَرَائِمَهُمْ ، وَتَأْمُرُهُ فِي عَهْدِكَ وَوَصِيَّتِكَ إِيَّاهُ
 بِلِزُومِ أَمْرِكَ مَا لَزِمَهُ الْحُزْمُ ، وَخِلَافِ نَهْيِكَ إِذَا
 خَافَهُ الرَّأْيُ عِنْدَ اسْتِحَالَةِ الْأُمُورِ ، وَاشْتِدَادِ
 الْأَحْوَالِ ، الَّتِي يُنْقَضُ أَمْرُ الْغَائِبِ عَنْهَا ، وَيَثْبُتُ
 رَأْيُ الشَّاهِدِ لَهَا ، فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَوَاثِبَ أَمْرَهُمْ
 مِنْ قَرِيبٍ وَسَقَطَ عَنْهُ مَا يَأْتِي مِنْ بَعِيدٍ ، تَمَّتْ

(١) ظنيناً : متهماً ودخلة مكروهة : أى نية سيئة (٢) ويربض :

ربضة : أى أثبتته

الْحِيلَةُ وَقَوِيَتْ الْمَكِيدَةُ ، وَنَفَذَ الْعَمَلُ وَاحِدَ النَّظَرِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

قَالَ الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنَّ وَلِيَّ الْأُمُورِ وَسَائِسَ الْحُرُوبِ
رُبَّمَا نَحَى جُنُودَهُ ، وَفَرَّقَ أَمْوَالَهُ فِي غَيْرِ مَا ضِيقٍ
أَمْرٍ حَزَبُهُ ، وَلَا ضَغْطَةَ حَالٍ اضْطَرَّتْهُ ، فَيَقْعُدَ عِنْدَ
الْحَاجَةِ إِلَيْهَا ، وَبَعْدَ التَّفَرُّقَةِ لَهَا عَدِيمًا مِنْهَا فَاقِدًا
لَهَا ، لَا يَثِقُ بِقُوَّةٍ ، وَلَا يَصُولُ بِعُدَّةٍ ، وَلَا يَفْزَعُ
إِلَى ثِقَةٍ ، فَالرَّأْيُ لَكَ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ — وَفَقَّكَ اللَّهُ —
إِنْ تُعْنِي خَزَائِنُكَ مِنَ الْإِنْفَاقِ لِلْأَمْوَالِ وَجُنُودُكَ مِنْ
مُكَابَدَةِ الْأَسْفَارِ ، وَمُقَارَعَةِ الْأَخْطَارِ ، وَتَغْرِيرِ الْقِتَالِ ،
وَلَا تُسْرِعُ لِلْقَوْمِ فِي الْإِجَابَةِ إِلَى مَا يَطْلُبُونَ ،

وَالْعَطَاءَ لِمَا يَسْأَلُونَ ، فَيَفْسُدَ عَلَيْكَ أَدْبَهُمْ ، وَتَجْرِي
 مِنْ رِعْيَتِكَ غَيْرُهُمْ ؛ وَلَكِنْ اغْزُهُمْ بِالْحِيلَةِ ، وَقَاتِلْهُمْ
 بِالْمَكِيدَةِ ، وَصَارِعْهُمْ بِاللِّينِ ، وَخَاتِلْهُمْ بِالرَّفْقِ ،
 وَأَبْرِقْ^(١) لَهُمْ بِالْقَوْلِ ، وَأَرْعِدْ نَحْوَهُمْ بِالْفِعْلِ ،
 وَأُبْعَثِ الْبُعُوثَ^(٢) ، وَجَنِّدِ الْجُنُودَ ، وَكُتِّبِ الْكِتَابَ ،
 وَاعْقِدِ الْأَلْوِيَةَ ، وَانْصِبِ الرَّايَاتِ ، وَأُظْهِرْ أَنَّكَ
 مُوجَّهٌ إِلَيْهِمْ الْجِيُوشَ مَعَ أَحْنَقِ قُوَادِكَ عَلَيْهِمْ ،
 وَأَسْوَأِهِمْ أَثَرًا فِيهِمْ . ثُمَّ أَدْسُسِ الرُّسُلَ ، وَابْثُ
 الْكُتُبَ ، وَضَعْ بَعْضَهُمْ عَلَى طَمَعٍ مِنْ وَعْدِكَ ،
 وَبَعْضًا عَلَى خَوْفٍ مِنْ وَعِيدِكَ ، وَأَوْقِدْ بِذَلِكَ
 وَأَشْبَاهَهُ نِيرَانَ التَّحَاسُدِ فِيهِمْ ، وَاغْرِسْ أَشْجَارَ

(١) أبرق وأرعد بمعنى تهدد وتوعد . (٢) البعوث : الجيوش .

التَّنَافُسِ يَنْهَمُ ، حَتَّى تَمَلَأَ الْقُلُوبُ مِنَ الْوَحْشَةِ ،
 وَتَنْطَوِيَ الصُّدُورُ عَلَى الْبَغْضَةِ ، وَيَدْخُلَ كَلَامٌ مِنْ
 كُلِّ الْحَذَرِ وَالْهَيْبَةِ ، فَإِنَّ مَرَامَ الظَّفَرِ بِالْغِيلَةِ ،
 وَالْقِتَالِ بِالْحِيلَةِ ، وَالْمُنَاصَبَةِ بِالْكِتْبِ ، وَالْمَكَايِدَةَ
 بِالرُّسُلِ ، وَالْمُقَارَعَةَ بِالْكَلَامِ اللَّطِيفِ الْمُدْخَلِ فِي
 الْقُلُوبِ ، الْقَوِيَّ الْمَوْقِعَ مِنَ النَّفُوسِ ، الْمَعْقُودِ
 بِالْحُجَجِ ، الْمَوْصُولِ بِالْحِيلِ ، الْمَبْنِيَّ عَلَى اللَّيْنِ الَّذِي
 يَسْتَمِيلُ الْقُلُوبَ ، وَيَسْتَرْقُ الْعُقُولَ وَالْآرَاءَ ،
 وَيَسْتَمِيلُ الْأَهْوَاءَ ، وَيَسْتَدْعِي الْمَوَاتَاةَ ، أَنْقَذُ
 مِنَ الْقِتَالِ بِطَبَاتِ السُّيُوفِ وَأَسِنَّةِ الرِّمَاحِ ؛ كَمَا أَنَّ
 الْوَالِيَّ الَّذِي يَسْتَنْزِلُ طَاعَةَ رَعِيَّتِهِ بِالْحِيلِ ، وَيُفَرِّقُ
 كَلِمَةَ عَدُوِّهِ بِالْمَكَايِدَةِ ، أَحْكَمُ عَمَلًا وَالْطَّافُ

مَنْظَرًا ، وَأَحْسَنُ سِيَاسَةً مِنَ الَّذِي لَا يَنَالُ ذَلِكَ إِلَّا
بِالْقِتَالِ ، وَالْإِتْلَافِ لِلْأَمْوَالِ وَالتَّغْرِيرِ وَالْخِطَارِ^(١) .

وَلْيَعْلَمْ الْمَهْدِيُّ أَنَّهُ إِنْ وَجَّهَ لِقِتَائِهِمْ رَجُلًا لَمْ
يَسِرْ لِقِتَائِهِمْ إِلَّا بِجُنُودٍ كَثِيفَةٍ ، تَخْرُجُ عَنْ حَالٍ
شَدِيدَةٍ ، وَتُقَدِّمُ عَلَى أَسْفَارٍ ضَيِّقَةٍ ، وَأَمْوَالٍ مُتَفَرِّقَةٍ ،
وَقُودٍ غَشَشَةٍ ؛ إِنْ ائْتَمَنَهُمْ اسْتَنْفَدُوا مَالَهُ ،
وَإِنْ اسْتَنْصَحَهُمْ كَانُوا عَلَيْهِ لَا لَهُ .

قَالَ الْمَهْدِيُّ : هَذَا رَأْيٌ قَدْ أَسْفَرَ نُورَهُ ،
وَأَبْرَقَ ضَوْؤَهُ ، وَتَمَثَّلَ صَوَابُهُ لِلْعُيُونِ ، وَتَجَدَّدَ حَقُّهُ
فِي الْقُلُوبِ ، وَلَكِنْ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ،
شَمَّ نَظَرَ إِلَى ابْنِهِ عَلِيٍّ فَقَالَ : مَا تَقُولُ ؟

(١) الخطار: الأشراف على هلكة

قَالَ عَلِيٌّ :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ : إِنَّ أَهْلَ خُرَاسَانَ لَمْ يَخْلَعُوا عَنْ طَاعَتِكَ ، وَلَمْ يَنْصِبُوا مِنْ دُونِكَ أَحَدًا يَقْدَحُ فِي تَغْيِيرِ مُلْكِكَ ، وَيُرَبِّضُ الْأُمُورَ لِفَسَادِ دَوْلَتِكَ ، وَلَوْ فَعَلُوا لَكَانَ الْخَطْبُ أَيْسَرَ ، وَالشَّأْنُ أَصْغَرَ وَالْحَالُ أَدَلَّ ، لِأَنَّ اللَّهَ مَعَ حَقِّهِ الَّذِي لَا يَخْذُلُهُ ، وَعِنْدَ مَوْعِدِهِ الَّذِي لَا يُخْلِفُهُ ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، وَطَائِفَةٌ مِنْ شِيعَتِكَ ، الَّذِينَ جَعَلَكَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَالِيًّا ، وَجَعَلَ الْعَدْلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ حَاكِمًا ، طَلَبُوا حَقًّا ، وَسَأَلُوا إِنْصَافًا ، فَإِنْ أُجِبْتَ إِلَى دَعْوَتِهِمْ وَنَفَسْتَ^(١) عَنْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَلَاَحَمَ مِنْهُمْ حَالٌ ،

(١) نفست عنهم : فرجت عنهم .

أَوْ يَحْدُثَ مِنْ عِنْدِهِمْ فَتَقُ ، أَطَعْتَ أَمْرَ الرَّبِّ ،
 وَأَطَفَأْتَ نَارَ^(١) الْحَرْبِ ، وَوَفَّرْتَ خَزَائِنَ الْمَالِ ،
 وَطَرَحْتَ تَغْرِيرَ الْقِتَالِ ، وَحَمَلَ النَّاسُ مَحْمَلَ ذَلِكَ عَلَى
 طَبِيعَةِ جُودِكَ ، وَسَجِيَّةِ حِلْمِكَ ، وَإِسْجَاحِ^(٢) خَلِيقَتِكَ ،
 وَمَعْدَلَةِ نَظْرِكَ ، فَأَمِنْتَ أَنْ تُنْسَبَ إِلَى ضَعْفٍ ،
 وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِيمَا بَقِيَ دُرْبَةً ، وَإِنْ مَنَعْتَهُمْ مَا طَلَبُوا
 وَلَمْ تُجِبْهُمْ إِلَى مَا سَأَلُوا ، اعْتَدَلَتْ بِكَ وَبِهِمُ الْحَالُ ،
 وَسَاوَيْتَهُمْ فِي مَيْدَانِ الْخُطَابِ ؛ فَمَا أَرَبُ الْمَهْدِيَّ
 أَنْ يَعْمِدَ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْ رَعِيَّتِهِ ، مُقَرَّرِينَ بِمَمْلَكَتِهِ ،
 مُذْعِنِينَ لِطَاعَتِهِ ، لَا يُخْرِجُونَ أَنْفُسَهُمْ عَنْ قُدْرَتِهِ ،
 وَلَا يُبْرِئُونَهَا مِنْ عُبودِيَّتِهِ ، فَيَمْلِكُهُمْ أَنْفُسُهُمْ

(١) نائرة الحرب : ما اشتعل واهتد منها (٢) الاسجاح مصدر

أسجح الوالى : إذا أحسن العفو

وَيَخْلَعُ نَفْسَهُ عَنْهُمْ ، وَيَقِفُ عَلَى الْحِيلِ مَعَهُمْ ، ثُمَّ
يُجَازِيهِمُ السُّوءَ فِي حَدِّ الْمُنَازَعَةِ وَمِضْمَارِ الْمُخَاطَرَةِ ؛
أَيُرِيدُ الْمَهْدِيُّ — وَفَقَّهُهُ اللَّهُ — الْأَمْوَالَ ؟ فَلَعَمْرِي
لَا يَنَالُهَا وَلَا يَظْفَرُ بِهَا إِلَّا بِإِنْفَاقٍ أَكْثَرَ مِنْهَا مِمَّا
يُطَلَبُ مِنْهُمْ وَأَضْعَافُ مَا يُدَّعَى قَبْلَهُمْ ، وَلَوْ نَالَهَا
فَحُمِلَتْ إِلَيْهِ ، أَوْ وُضِعَتْ بِخَرَائِطِهَا ^(١) بَيْنَ يَدَيْهِ ،
ثُمَّ تَجَافَى لَهُمْ عَنْهَا وَطَالَ عَلَيْهِمْ بِهَا ، لَكَانَ مِمَّا إِلَيْهِ
يُنْسَبُ وَبِهِ يُعْرَفُ مِنَ الْجُودِ الَّذِي طَبَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ،
وَجَعَلَ قُرَّةَ عَيْنِهِ وَنَهْمَةَ نَفْسِهِ فِيهِ ؛ فَإِنْ قَالَ الْمَهْدِيُّ :
هَذَا رَأْيُ مُسْتَقِيمٍ سَدِيدٍ فِي أَهْلِ الْخَرَاجِ الَّذِينَ شَكَّوْا
ظُلْمَ عُمَّالِنَا ، وَتَحَامُلَ وُلَاتِنَا ، فَأَمَّا الْجُنُودُ الَّذِينَ

(١) الخريطة : وعاء من آدم وغيره

نَقَضُوا مَوَاقِيقَ الْعُهُودِ ، وَأَنطَقُوا لِسَانَ الْأَرْجَافِ^(١) ،
وَفَتَحُوا بَابَ الْمَعْصِيَةِ ، وَكَسَرُوا قَيْدَ الْفِتْنَةِ ، فَقَدْ
يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ أَجْعَلَهُمْ نَكَالًا لغيرِهِمْ ، وَعِظَةً لِسِوَاهُمْ ،
فَيَعْلَمَ الْمَهْدِيُّ أَنَّهُ لَوْ أَتَى بِهِمْ مَغْلُولِينَ فِي الْحَدِيدِ ،
مُقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ ؛ ثُمَّ اتَّسَعَ لِحَقْنِ دِمَائِهِمْ عَفْوُهُ ،
وَلَا قَالَةَ عَثَرَتِهِمْ صَفْحُهُ ؛ وَاسْتَبَقَاهُمْ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ
حِزْبِهِ ، أَوْ لِمَنْ يَأْزَأُهُمْ مِنْ عَدُوِّهِ ، لَمَا كَانَ بَدْعًا
مِنْ رَأْيِهِ وَلَا مُسْتَنَكِرًا مِنْ نَظَرِهِ ، لَقَدْ عَلِمَتِ الْعَرَبُ
أَنَّهُ أَعْظَمُ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ عَفْوًا ، وَأَشَدُّهَا وَقَعًا ،
وَأَصْدَقُهَا صَوْلَةً ، وَأَنَّهُ لَا يَتَعَاطَمُهُ عَفْوُهُ ، وَلَا

(١) الأرجاف : مصدر أرجف القوم إذا خاضوا في أخبار الفتن على

أن يوقعوا في الناس الاضطراب من غير أن يصح عندهم شيء

يَتَكَاَدُهُ^(١) صَفْحٌ ، وَإِنْ عَظُمَ الذَّنْبُ وَجَلَّ الْخَطْبُ ،
فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدَى — وَفَقَّهُ اللَّهُ تَعَالَى — أَنْ يَحُلَّ عُقْدَةَ
الْغَيْظِ بِالرَّجَاءِ مُحْسِنِ ثَوَابِ اللَّهِ فِي الْعَفْوِ عَنْهُمْ ،
وَأَنْ يَذْكُرَ أَوْلَى حَالَاتِهِمْ ، وَضِيعَةَ عِيَالِهِمْ ،
بِرًّا بِهِمْ وَتَوْسَعًا لَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ إِخْوَانُ دَوْلَتِهِ وَأَرْكَانُ
دَعْوَتِهِ وَأَسَاسُ حَقِّهِ الَّذِينَ بَعِزَّتِهِمْ يَصُولُ ، وَبِحُجَّتِهِمْ
يَقُولُ ؛ وَإِنَّمَا مَثَلُهُمْ فِيمَا دَخَلُوا فِيهِ مِنْ مَسَاخِطِهِ ،
وَتَعَرَّضُوا لَهُ مِنْ مَعَاصِيهِ ، وَانْطَوَوْا فِيهِ عَنْ إِجَابَتِهِ ،
وَمَثَلُهُ فِي قِلَّةِ مَا غَيَّرَ ذَلِكَ مِنْ رَأْيِهِ فِيهِمْ ، أَوْ ثِقَلِ
مِنْ حَالِهِ لَهُمْ ، أَوْ تَغَيَّرَ مِنْ نِعْمَتِهِ بِهِمْ ، كَمَثَلِ
رَجُلَيْنِ أَخَوَيْنِ مُتَنَاصِرَيْنِ مُتَآزِرَيْنِ ، أَصَابَ أَحَدُهُمَا

خَبِلُ عَارِضٌ ، وَلَهُوَ حَادِثٌ ، فَهَضَّ إِلَى أَخِيهِ
بِالْأَذَى ، وَتَحَامَلَ عَلَيْهِ بِالْمَكْرُوهِ ، فَلَمْ يَزِدْ أَخُوهُ
إِلَّا رِقَّةً لَهُ وَلُطْفًا بِهِ ، وَاحْتِيَالًا لِمُدَاوَاةِ مَرَضِهِ ،
وَمُرَاجَعَةِ حَالِهِ ، عَطْفًا عَلَيْهِ ، وَبِرًّا بِهِ ، وَمَرَحَةً لَهُ .
فَقَالَ الْمَهْدِيُّ : أَمَّا عَلِيٌّ فَقَدْ كَوَى سَمْتَ اللَّبَانِ
وَفَضَّ الْقُلُوبَ فِي أَهْلِ خُرَاسَانَ ، وَلِكُلِّ نَبَاٍ
مُسْتَقَرٍّ . ثُمَّ قَالَ : مَا تَرَى يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ يَعْنِي
مُوسَى ابْنَهُ .

فَقَالَ مُوسَى :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، لَا تَسْكُنْ إِلَى حَلَاوَةِ مَا يَجْرِي
مِنَ الْقَوْلِ عَلَى السِّنِّهِمْ ، وَأَنْتَ تَرَى الدَّمَاءَ تَسِيلُ
مِنْ خَلَلِ فَعْلِهِمْ ، الْحَالُ مِنَ الْقَوْمِ يُنَادِي بِمُضْمَرَةٍ
(١٠)

شَرٍّ ، وَخَفِيَّةٍ حَقْدٍ ، قَدْ جَعَلُوا الْمَعَاذِيرَ عَلَيْهَا سِتْرًا ،
 وَاتَّخَذُوا الْعِلَلَ مِنْ دُونِهَا حِجَابًا ، رَجَاءً أَنْ يُدَافِعُوا
 الْأَيَّامَ بِالتَّأْخِيرِ ، وَالْأُمُورَ بِالتَّطْوِيلِ ، فَيَكْسِرُوا
 حِيلَ الْمَهْدِيِّ فِيهِمْ ، وَيُفْنُوا جُنُودَهُ عَنْهُمْ حَتَّى
 يَتَلَاَحَمَ أَمْرُهُمْ ، وَتَتَلَاَحَقَ مَادَّتُهُمْ وَيَسْتَفْحِلَ حَرَبُهُمْ ،
 وَتَسْتَمِرَّ الْأُمُورُ بِهِمْ ، وَالْمَهْدِيُّ مِنْ قَوْلِهِمْ فِي
 حَالِ غِرَّةٍ ، وَلِبَاسِ أَمْنَةٍ ، وَقَدْ فَتَرَ لَهَا ، وَأَنَسَ بِهَا
 وَسَكَنَ إِلَيْهَا ، وَلَوْلَا مَا اجْتَمَعَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ ،
 وَبَرَدَتْ عَلَيْهِ جُلُودُهُمْ مِنَ الْمُنَاصَبَةِ بِالْقِتَالِ ، وَالْإِضْمَارِ
 لِلْقِرَاعِ عَنْ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ ، أَوْ شَيْطَانِ فَسَادٍ ، لَرَهَبُوا
 عَوَاقِبَ أَخْبَارِ الْوُلَاةِ ، وَغَبَّ سُكُونِ الْأُمُورِ ،
 فَلْيَشْدُدِ الْمَهْدِيُّ — وَفَقَّهُ اللَّهُ — أَرْزَهُ لَهُمْ ، وَيَكْتَبَ

كِتَابُهُ نَحْوَهُمْ ، وَلِيَضَعَ الْأَمْرَ عَلَى أَشَدِّ مَا يَحْضُرُهُ
 فِيهِمْ ، وَلِيُوقِنَ أَنَّهُ لَا يُعْطِيهِمْ خُطَّةً يُرِيدُ بِهَا
 صَلَاحَهُمْ إِلَّا كَانَتْ دُرْبَةً إِلَى فَسَادِهِمْ ، وَقُوَّةً عَلَى
 مَعْصِيَتِهِمْ ، وَدَاعِيَةً إِلَى عَوْدَتِهِمْ ؛ وَسَبَبًا لِفَسَادِ
 مَنْ بِحَضْرَتِهِ مِنَ الْجُنُودِ ، وَمَنْ بِيَابِهِ مِنَ الْوُفُودِ ،
 الَّذِينَ إِنْ أَقْرَهُمْ وَتِلْكَ الْعَادَةُ ، وَأَجْرَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ
 الْأَرْبِ ، وَلَمْ يَبْرَحْ فِي فَتَقِ حَادِثٍ وَخِلَافِ حَاضِرٍ ،
 لَا يَصْلُحُ عَلَيْهِ دِينٌ ، وَلَا تَسْتَقِيمُ بِهِ دُنْيَا ، وَإِنْ
 طَلَبَ تَغْيِيرَهُ بَعْدَ اسْتِحْكَامِ الْعَادَةِ ، وَاسْتِمْرَارِ
 الدَّرْبَةِ ، لَمْ يَصِلْ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِالْعُقُوبَةِ الْمَفْرُطَةِ ،
 وَالْمُؤْوَنَةِ الشَّدِيدَةِ ، وَالرَّأْيُ لِلْمَهْدِيِّ - وَفَقَّهُ اللَّهُ -
 أَلَّا يُقِيلَ عَثَرَتَهُمْ ، وَلَا يَقْبَلَ مَعْذِرَتَهُمْ ، حَتَّى تَطَّاهُمْ

الْجِيُوشُ وَتَأْخُذَهُمُ السُّيُوفُ ، وَيَسْتَحِرُّ^(١) بِهِمُ الْقَتْلُ ،
وَيُحْدِقَ بِهِمُ الْمَوْتُ ، وَيُحِيطَ بِهِمُ الْبَلَاءُ ، وَيُطَبِّقَ
عَلَيْهِمُ الدُّلُّ ، فَإِنْ فَعَلَ الْمَهْدِيُّ بِهِمْ ذَلِكَ كَانَ
مَقْطَعَةً لِكُلِّ عَادَةٍ سُوءٍ فِيهِمْ ، وَهَزِيمَةً لِكُلِّ
بَادِرَةٍ ، شَرٍّ مِنْهُمْ ، وَاحْتِمَالُ الْمَهْدِيِّ مَوْثُونَةٌ غَزَوَاتِهِمْ
هَذِهِ يَضَعُ عَنْهُ غَزَوَاتٍ كَثِيرَةً ، وَتَفَقَّاتٍ عَظِيمَةً .
قَالَ الْمَهْدِيُّ : قَدْ قَالَ الْقَوْمُ فَاحْكُمْ يَا أَبَا الْفَضْلِ
فَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ مُحَمَّدٍ :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ

أَمَّا الْمَوَالِي فَأَخَذُوا بِفُرُوعِ الرَّأْيِ ، وَسَلَكَوا
جَنَابَاتِ الصَّوَابِ ، وَتَعَدَّوْا أُمُورًا قَصَرَ بِنَظَرِهِمْ

عَنْهَا أَنَّهُ لَمْ تَأْتِ تِجَارِيَهُمْ عَلَيْهَا .
وَأَمَّا الْفَضْلُ فَأَشَارَ بِالْأَمْوَالِ إِلَّا تُنْفَقَ ،
وَالْجُنُودِ إِلَّا تُفَرَّقَ ، وَبِالْأَيِّ يُعْطَى الْقَوْمَ مَا طَلَبُوا ،
وَلَا يُبْذَلُ لَهُمْ مَا سَأَلُوا ، وَجَاءَ بِأَمْرِ بَيْنَ ذَلِكَ
اسْتِصْغَارًا لِأَمْرِهِمْ ، وَاسْتِهَانَةً بِحَرْبِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَهْبِجُ
جَسِيَمَاتِ الْأُمُورِ صِغَارُهَا .

وَأَمَّا عَلَى فَأَشَارَ بِاللَّيْنِ وَإِفْرَاطِ الرِّفْقِ . وَإِذَا
جَرَدَ الْوَالِي لِمَنْ غَمَطَ^(١) أَمْرُهُ وَسَفِهَ حَقَّهُ ، اللَّيْنُ
بَحْتًا ، وَالْخَيْرُ مَحْضًا ، لَمْ يَخْلُطْهُمَا بِشِدَّةٍ تُعْطِفُ
الْقُلُوبَ عَنْ لَيْنِهِ . وَلَا بَشَرٍ يَجْبِسُهُمْ إِلَى خَيْرِهِ ،
فَقَدْ مَلَكَهُمْ الْخَلْعُ لِعُذْرِهِمْ ، وَوَسَّعَ لَهُمُ الْفُرْجَةَ

(١) غمط الأمر : ازدراه . وسفه حقه . امتنه ونجسه

لِشَيْءٍ أَعْنَقِهِمْ ، فَإِنْ أَجَابُوا دَعْوَتَهُ وَقَبِلُوا لِيْنَهُ مِنْ
غَيْرِ خَوْفٍ اضْطَرَّ لَهُمْ وَلَا شِدَّةٍ فَتْرُوةٌ ^(١) فِي رُؤُوسِهِمْ
يَسْتَدْعُونَ بِهَا الْبَلَاءَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَيَسْتَصْرِخُونَ
بِهَا رَأَى الْمَهْدَى فِيهِمْ ، وَإِنْ لَمْ يَقْبَلُوا دَعْوَتَهُ
وَيَسْرِعُوا لِاجَابَتِهِ بِاللَّيْنِ الْمَحْضِ وَالْخَيْرِ الصُّرَاحِ ،
فَذَلِكَ مَا عَلَيْهِ الظَّنُّ بِهِمْ ، وَالرَّأْيُ فِيهِمْ ، وَمَا قَدْ
يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ مِثْلِهِمْ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ
الْجَنَّةَ وَجَعَلَ فِيهَا مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ وَالْمُلْكِ الْكَبِيرِ
مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْفِكْرُ ،
وَلَا تَعْلَمُهُ نَفْسٌ ، ثُمَّ دَعَا النَّاسَ إِلَيْهَا وَرَغَّبَهُمْ
فِيهَا فَلَوْلَا أَنَّهُ خَلَقَ نَارًا جَعَلَهَا لَهُمْ رَحْمَةً يَسْوِقُهُمْ

بَهَا إِلَى الْجَنَّةِ ، لَمَا أَجَابُوا وَلَا قَبِلُوا .

وَأَمَّا مُوسَى فَأَشَارَ بِأَنْ تُعْصَبُوا^(١) بِشِدَّةٍ لَا لِيْنٍ
فِيهَا ، وَأَنْ يُرْمَوْا بِشَرٍّ لَا خَيْرَ مَعَهُ ، وَإِذَا أُضْمَرَ
الْوَالِي لِمَنْ فَارَقَ طَاعَتَهُ ، وَخَالَفَ جَمَاعَتَهُ ، الْخَوْفُ
مُفْرَدًا ، وَالشَّرُّ مُجَرَّدًا ، لَيْسَ مَعَهُمَا صَمْعٌ وَلَا لِيْنٌ
يَنْشِيهِمْ ، اشْتَدَّتِ الْأُمُورُ بِهِمْ وَانْقَطَعَتْ الْحَالُ مِنْهُمْ
إِلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ تَدْخُلَهُمُ الْحِمِيَّةُ مِنْ
الشَّدَّةِ ، وَالْأَنَفَةُ مِنَ الذَّلَّةِ ، وَالْإِمْتِعَاضُ مِنَ الْقَهْرِ ،
فَيَدْعُوهُمْ ذَلِكَ إِلَى التَّمَادِي فِي الْخِلَافِ ، وَالِاسْتِنْسَالِ
فِي الْقِتَالِ ، وَالِاسْتِنْسَالِ لِلْمَوْتِ ، وَإِمَّا أَنْ يَنْقَادُوا
بِالْكُرْهِ ، وَيَدْعُوا بِالْقَهْرِ عَلَى بُغْضَةٍ لَازِمَةٍ ،

(١) عصب الشيء : لواه وشده

وَعَدَاوَةٍ بَاقِيَةٍ ، تُوْرِثُ النِّفَاقَ ، وَتُعْقِبُ الشَّقَاقَ ،
فَإِذَا أَمَكَّنْتَهُمْ فُرْصَةً ، أَوْ نَابَتْ لَهُمْ قُدْرَةٌ ، أَوْ
قَوِيَتْ لَهُمْ حَالٌ ، عَادَ أَمْرُهُمْ إِلَى أَصْعَبِ وَأَغْلَظِ
وَأَشَدِّ مِمَّا كَانَ

وَقَالَ فِي قَوْلِ الْفَضْلِ :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، أَكْفَى دَلِيلٍ ، وَأَوْضَحُ بُرْهَانٍ
وَأَبِينُ خَبَرٍ بَانَ ، قَدْ أَجْمَعَ رَأْيُهُ ، وَحَزَمَ نَظْرُهُ ،
عَلَى الْإِرْشَادِ بِيَعْتَةِ الْجَيُوشِ إِلَيْهِمْ ، وَتَوَجَّيْهِ الْبُعُوثِ
نَحْوَهُمْ ، مَعَ إِعْطَائِهِمْ مَا سَأَلُوا مِنَ الْحَقِّ ، وَإِجَابَتِهِمْ
إِلَى مَا سَأَلُوهُ مِنَ الْعَدْلِ .

قَالَ الْمَهْدِيُّ ذَلِكَ رَأْيٌ :

قَالَ هَارُونُ :

مَا خُلِطَتِ الشَّدَّةُ أَيْهَا الْمَهْدِيُّ بِاللِّينِ ، وَانْتَضَمَ
أَمْرُ الدُّنْيَا بِاللِّينِ ، فَصَارَتْ الشَّدَّةُ أَمْرًا فِطَامًا ^(١)
لِمَا تَكَرَّهُ ، وَعَادَ اللَّيْنُ أَهْدَى قَائِدٍ إِلَى مَا يُحِبُّ ،
وَلَكِنْ أَرَى غَيْرَ ذَلِكَ .

قَالَ الْمَهْدِيُّ :

لَقَدْ قُلْتُ قَوْلًا بَدِيعًا ، خَالَفَتْ فِيهِ أَهْلَ بَيْتِكَ
جَمِيعًا ، وَالْمَرْءُ مُؤْتَمَنٌ بِمَا قَالَ ، وَظَنِينَ ^(٢) بِمَا ادَّعَى
حَتَّى يَأْتِيَ بَيِّنَةٌ عَادِلَةٌ ، وَحُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ ، فَأَخْرُجُ
عَمَّا قُلْتُ .

قَالَ هَارُونُ :

أَيْهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنَّ الْجَرْبَ خُدْعَةٌ ، وَالْأَعَاجِمَ

(١) الفطام هنا : القطع والاستئصال (٢) ظنين بما ادعى : متهم بدعواه

قَوْمٌ مَكْرَةٌ ، وَرُبَّمَا اغْتَدَلَتْ الْحَالُ بِهِمْ ، وَاتَّفَقَتْ
 الْأَهْوَاءُ مِنْهُمْ ، فَكَانَ بَاطِنُ مَا أُسِرُّونَ عَلَى ظَاهِرِ
 مَا يُعْلِنُونَ ، وَرُبَّمَا افْتَرَقَتْ الْحَالَانِ ، وَخَالَفَ الْقَلْبُ
 اللِّسَانُ ، فَانْطَوَى الْقَلْبُ عَلَى مَحْجُوبَةٍ تَبْطُنُ ،
 وَاسْتَسَرَّ بِمَدْخُولَةٍ لَا تُعْلَنُ ، وَالطَّيِّبُ الرَّفِيقُ
 بِطَبِّهِ ، الْبَصِيرُ بِأَمْرِهِ ، الْعَالِمُ بِمُقَدَّمِ يَدِهِ وَمَوْضِعِ
 مِيسَمِهِ ^(١) ، لَا يَتَعَجَّلُ بِالْإِدْوَاءِ حَتَّى يَقَعَ عَلَى مَعْرِفَةِ
 الدَّاءِ ، فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدِيِّ - وَفَقَهُ اللَّهِ - أَنْ يَفْرَّ بَاطِنَ
 أَمْرِهِمْ فَرَّ ^(٢) الْمُسِنَّةِ ، وَيَمْخُضُ ^(٣) ظَاهِرَ حَالِهِمْ مَخْضَ
 السَّقَاءِ ، بِمُتَابَعَةِ الْكُتُبِ وَمُظَاهَرَةِ الرُّسُلِ ، وَمُؤَالَاةِ

(١) الميسم : المكواة . يوسم بها الحيوان (٢) فرّ الدابة : فتح
 فاهها وكشف عن أسنانها ينظر ما سنها . والمُسِنَّةُ من الدواب ما دخل في
 الثامنة (٣) يَمْخُضُ السَّقَاءُ : يحرك قربة اللبن ؛ يقصد الامعان في فحص حالهم

الْعُيُونُ ، حَتَّى تُهْتِكَ حُجُبُ عُيُونِهِمْ ، وَتُكْشَفَ
 أَغْطِيَةُ أُمُورِهِمْ ، فَإِنْ انْفَرَجَتْ الْحَالُ ، وَأَفْضَتْ
 الْأُمُورُ بِهِ إِلَى تَغْيِيرِ حَالٍ أَوْ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ ، إِشْتَمَلَتْ
 الْأَهْوَاءُ عَلَيْهِ ، وَانْقَادَ الرِّجَالُ إِلَيْهِ ، وَامْتَدَّتْ الْأَعْنَاقُ
 نَحْوَهُ بِدِينٍ يَعْتَقِدُونَهُ ، وَإِثْمٍ يَسْتَحِلُّونَهُ ، عَصَبَهُمْ
 بِشِدَّةٍ لَا لَيْنَ فِيهَا ، وَرَمَاهُمْ بِعُقُوبَةٍ لَا عَفْوَ مَعَهَا ،
 وَإِنْ انْفَرَجَتْ الْعُيُونُ ، وَاهْتَصَرَّتِ السُّتُورُ ، وَرُفِعَتْ
 الْحُجُبُ ، وَالْحَالُ فِيهِمْ مَرِيعَةٌ ، وَالْأُمُورُ بِهِمْ مُعْتَدِلَةٌ
 فِي أَرْزَاقٍ يَطْلُبُونَهَا ، وَأَعْمَالٍ يُنْكِرُونَهَا ، وَظُلُمَاتٍ
 يَدْعُونَهَا ، وَحُقُوقٍ يَسْأَلُونَهَا ، بِمَاتَةٍ ^(١) سَابِقَتِهِمْ ،
 وَدَالَةٍ مُنَاصَحَتِهِمْ ؛ فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدِيِّ — وَفَقَهُ اللَّهِ —

أَنْ يَتَّسِعَ لَهُمْ بِمَا طَلَبُوا ، وَيَتَجَانَى لَهُمْ عَمَّا كَرِهُوا ،
 وَيَشْعَبَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا صَدَعُوا ، وَتَرْتَقَ مِنْ فَتَقِهِمْ
 مَا قَطَعُوا ، وَيُوَلَّى عَلَيْهِمْ مَنْ أَحَبُّوا ، وَيُدَاوِي
 بِذَلِكَ مَرَضَ قُلُوبِهِمْ ، وَفَسَادَ أُمُورِهِمْ . فَإِنَّمَا الْمَهْدِيُّ
 وَأُمَّتُهُ ، وَسَوَادُ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، بِمَنْزِلَةِ الطَّيِّبِ الرَّفِيقِ ،
 وَالْوَالِدِ الشَّفِيقِ ، وَالرَّاعِي الْمَجْرَّبِ ، الَّذِي يَحْتَالُ
 لِمَرَابِضِ غَنَمِهِ ، وَضَوَالِ رَعِيَّتِهِ ، حَتَّى يُبْرِئَ الْمَرِيضَةَ
 مِنْ دَاءِ عِلَّتِهَا ، وَيَرُدَّ الصَّحِيحَةَ إِلَى أُنْسِ جَمَاعَتِهَا ؛
 ثُمَّ إِنَّ خُرَاسَانَ بِخَاصَّةِ الدِّينِ لَهُمْ دَالَّةٌ مُحمَّوَةٌ ،
 وَمَاتَةٌ مُقبُولَةٌ ، وَوَسِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَحَقُوقٌ وَاجِبَةٌ ،
 لِأَنَّهُمْ أَيْدِي دَوْلَتِهِ ، وَسُيُوفُ دَعْوَتِهِ ، وَأَنْصَارُ حَقِّهِ ،
 وَأَعْوَانُ عَدْلِهِ ، فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْمَهْدِيِّ الاضْطِّغَانُ

عَلَيْهِمْ ، وَلَا الْمُؤَاخَذَةَ لَهُمْ ، وَلَا التَّوْغِيرَ^(١) بِهِمْ ،
وَلَا الْمَكَافَأَةَ بِإِسَاءَتِهِمْ ، لِأَنَّ مُبَادَرَةَ حَسَمِ الْأُمُورِ
ضَعِيفَةٌ قَبْلَ أَنْ تَقْوَى ، وَمُحَاوَلَةُ قَطْعِ الْأُصُولِ ضَائِلَةٌ
قَبْلَ أَنْ تَغْلُظَ ، أَحْزَمُ فِي الرَّأْيِ ، وَأَصَحُّ فِي التَّدْيِيرِ ،
مِنَ التَّأْخِيرِ لَهَا وَالتَّهَاؤُنِ بِهَا ، حَتَّى يَلْتَمِمْ قَلِيلُهَا
بِكَثِيرِهَا ، وَتَجْتَمِعَ أَطْرَافُهَا إِلَى مُجْمُورِهَا .

قَالَ الْمَهْدِيُّ : مَا زَالَ هَارُونُ يَقَعُ وَقَعَ الْحَيَا حَتَّى
خَرَجَ خُرُوجَ الْقِدْحِ مِنَ الْمَاءِ ، وَانْسَلَّ انْسِلَالِ
السَّيْفِ فِيمَا ادَّعَى ، فَدَعُوا مَا سَبَقَ مُوسَى فِيهِ أَنَّهُ
هُوَ الرَّأْيُ ، وَثَنَى بَعْدَهُ هَارُونُ ، وَلَكِنْ مَنْ لِأَعْنَةِ
الْخَيْلِ ، وَسِيَاسَةِ الْحَرْبِ ، وَقَادَةِ النَّاسِ إِنْ أَمَعَنَ بِهِمْ
اللَّجَاجُ ، وَأَفْرَطَتْ بِهِمُ الدَّالَّةُ .

(١) التَّوْغِيرُ بِهِمْ : التَّشْدِيدُ عَلَيْهِمْ

قَالَ صَالِحٌ :

لَسْنَا نَبْلُغُ أَيُّهَا الْمُهْدِيُّ بِدَوَامِ الْبَحْثِ ، وَطُولِ
الْفِكْرِ ، أَذْنَى فِرَاسَةٍ رَأْيِكَ ، وَبَعْضَ لَحْظَاتِ
نَظَرِكَ ، وَلَيْسَ يَنْفَضُّ عَنْكَ مِنْ يَبُوتَاتِ الْعَرَبِ
وَرِجَالِ الْعَجَمِ ذُو دِينَ فَاضِلٍ ، وَرَأْيٍ كَامِلٍ ، وَتَدْبِيرٍ
قَوِيٍّ ، تُقَلِّدُهُ حَرَبُكَ ، وَتَسْتَوْدِعُهُ جُنْدُكَ ، مِمَّنْ
يَحْتَمِلُ الْأَمَانَةَ الْعَظِيمَةَ وَيَضْطَلِعُ بِالْأَعْبَاءِ الثَّقِيلَةِ ،
وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ مَيِّمُونَ النَّقِيبَةَ ^(١) ، مُبَارَكَ الْعَزِيمَةِ ،
مُخْبِرُ التَّجَارِبِ ، مُحْمُودُ الْعَوَاقِبِ ، مَعْصُومُ الْعَزَمِ
فَلَيْسَ يَقَعُ اخْتِيَارُكَ ، وَلَا يَقِفُ نَظَرُكَ عَلَى أَحَدٍ

(١) أى مبارك النفس ينجح فيما يحاول . ومخبر التجارب :

تَوَلَّيْهِ أَمْرَكَ ، وَتُسْنِدُ إِلَيْهِ ثَغْرَكَ ، إِلَّا أَرَاكَ اللَّهُ
مَا تُحِبُّ ، وَجَمَعَ لَكَ مِنْهُ مَا يُرِيدُ .

قَالَ الْمَهْدِيُّ : إِنِّي لَا زُجُودَ لَكَ لِقَدِيمِ عَادَةِ اللَّهِ
فِيهِ . وَحُسْنِ مَعُونَتِهِ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ أُحِبُّ الْمُوَافَقَةَ
عَلَى الرَّأْيِ ، وَالْأَعْتِبَارَ لِلْمُشَاوَرَةِ فِي الْأَمْرِ الْمُهْمِّ .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ اللَّيْثِ :

أَهْلُ خُرَاسَانَ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، قَوْمٌ ذَوُو عِزَّةٍ
وَمَنْعَةٍ ، وَشَيَاطِينُ خَدَعَةٍ ، زُرُوعُ الْحِمِيَّةِ فِيهِمْ
نَابِتَةٌ ، وَمَلَابِسُ الْأَنْفَةِ عَلَيْهِمْ ظَاهِرَةٌ ، فَالرَّوِيَّةُ
عَنْهُمْ عَازِبَةٌ^(١) ، وَالْعَجَلَةُ فِيهِمْ حَاضِرَةٌ ، تَسْبِقُ

الْحَالُ بِأَمْرِهِمْ ، فَدَخَلَ بِذَلِكَ مِنَ الْفَسَادِ الْكَبِيرِ ،
وَالضِّيَاعِ الْعَظِيمِ ، مَا لَا يَتَلَفَاهُ صَاحِبُ هَذِهِ الصِّفَةِ
وَإِنْ جَدَّ ، وَلَا يَسْتَصْلِحُهُ وَإِنْ جَهَدَ ، إِلَّا بَعْدَ دَهْرٍ
طَوِيلٍ ، وَشَرِّ كَبِيرٍ ؛ وَلَيْسَ الْمَهْدِيُّ — وَفَقَهُ اللَّهُ —
فَاطِمًا عَادَاتِهِمْ ، وَلَا قَارِعًا صِفَاتِهِمْ ، بِمِثْلِ أَحَدِ رَجُلَيْنِ
لَا ثَالِثَ لَهُمَا ، وَلَا عِدْلَ فِي ذَلِكَ بِهِمَا :

أَحَدُهُمَا لِسَانٌ نَاطِقٌ مَوْصُولٌ بِسَمْعِكَ ، وَيَدٌ
مُمَثِّلَةٌ لِعَيْنِكَ ، وَصَخْرَةٌ لَا تُرْعَزُ ، وَبِهْمَةٌ لَا يُشْنَى
وَبَازِلٌ لَا يُفْرَعُهُ صَوْتُ الْجَلْجَلِ ، نَقِيُّ الْعَرَضِ ،
نَزِيهُ النَّفْسِ ، جَلِيلُ الْخَطَرِ ، قَدْ اتَّضَعَتِ الدُّنْيَا
عَنْ قَدَرِهِ ، وَسَمَا نَحْوِ الْآخِرَةِ بِهِمَّتِهِ ، فَجَعَلَ
الْعَرَضَ الْأَقْصَى لِعَيْنِهِ نُصْبًا ، وَالْعَرَضَ الْأَدْنَى

لَقَدَمِهِ مَوْطِنًا ، فَلَيْسَ يَقْبَلُ عَمَلًا ، وَلَا يَتَعَدَّى
أَمَلًا ، وَهُوَ رَأْسُ مُوَالِيكَ ، وَأَنْصَحُ بَنِي أَبِيكَ ،
رَجُلٌ قَدْ غُذِيَ بِلَطِيفِ كَرَامَتِكَ ، وَنَبَتَ فِي ظِلِّ
دَوْلَتِكَ ، وَنَشَأَ عَلَى قَوَائِمِ أَدَبِكَ ، فَإِنْ قَلَّدَتْهُ
أَمْرُهُمْ ، وَحَمَلَتْهُ ثِقَلُهُمْ ، وَأَسْنَدَتْ إِلَيْهِ ثَغَرَهُمْ ،
كَانَ قُفْلًا فَتَحَهُ أَمْرُكَ ، وَبَابًا أَغْلَقَهُ نَهْيُكَ ، فَجَعَلَ
الْعَدْلَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَمِيرًا ، وَالْإِنْصَافَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ
حَاكِمًا ، وَإِذَا حَكَّمَ النِّصْفَةَ وَسَلَكَ الْمَعْدَلَةَ ، فَأَعْطَاهُمْ
وَأَخَذَ مَا عَلَيْهِمْ ، غَرَسَ فِي النَّدَى لَكَ يَنْ
صُدُورِهِمْ ، وَأَسْكَنَ لَكَ فِي السُّوَيْدَاءِ دَاخِلَ قُلُوبِهِمْ
طَاعَةً رَاسِخَةَ الْعُرُوقِ ، بَاسِقَةَ الْفُرُوعِ ، مُتَمَاثِلَةً
فِي حَوَاشِي عَوَامِهِمْ ، مُتَمَكِّنَةً مِنْ قُلُوبِ خَوَاصِّهِمْ

فَلَا يَبْقَى فِيهِمْ رَيْبٌ إِلَّا نَفْوُهُ ، وَلَا يَلْزَمُهُمْ حَقٌّ
إِلَّا أَدْوُهُ وَهَذَا أَحَدُهُمَا .

وَالْآخَرُ عُودٌ مِنْ غِيْضَتِكَ ، وَنَبْعَةٌ مِنْ أَرْوَمَتِكَ
فَتَى السَّنِّ كَهْلُ الْحِلْمِ رَاجِحُ الْعَقْلِ مَحْمُودُ الصَّرَامَةِ
مَأْمُونُ الْخِلَافِ ، يُجَرِّدُ فِيهِمْ سَيْفَهُ ، وَيَبْسُطُ
عَلَيْهِمْ خَيْرَهُ بِقَدْرِ مَا يَسْتَحِقُّونَ ، وَعَلَى حَسَبِ
مَا يَسْتَوْجِبُونَ ، وَهُوَ فَلَانٌ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، فَسَلَّطَهُ
— أَعَزَّكَ اللَّهُ — عَلَيْهِمْ ، وَوَجَّهَهُ بِالْجُيُوشِ إِلَيْهِمْ
وَلَا تَمْنَعُكَ ضَرَاةٌ ^(١) سِنِّهِ ، وَحَدَاثَةُ مَوْلَدِهِ ،
فَإِنَّ الْحِلْمَ وَالثِّقَةَ مَعَ الْحَدَاثَةِ ، خَيْرٌ مِنَ الشَّكِّ
وَالْجَهْلِ مَعَ الْكُهُولَةِ ، وَإِنَّمَا أَحْدَاثُكُمْ أَهْلَ

(١) ضراة سنه : شبابه وحداثة سنه

الْبَيْتِ فِيمَا طَبَعَكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَاخْتَصَّكُمْ بِهِ
 مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَمَحَامِدِ الْفِعَالِ ، وَمَحَاسِنِ
 الْأُمُورِ ، وَصَوَابِ التَّدْبِيرِ ، وَصَرَامَةِ الْأَنْفُسِ ،
 كَفِرَاحِ عِتَاقِ الطَّيْرِ الْمُحْكَمَةِ لِأَخْذِ الصَّيْدِ بِلَا
 تَدْرِيبٍ ، وَالْعَارِفَةِ بُوْجُوهِ النَّفْعِ بِلَا تَأْدِيبٍ ،
 فَالْحِلْمِ وَالْعِلْمِ وَالْعَزْمِ وَالْحَزْمِ وَالْجُودِ وَالرِّفْقِ ثَابِتٌ
 فِي صُدُورِكُمْ ، مَزْرُوعٌ فِي قُلُوبِكُمْ ، مُسْتَحْكَمٌ
 لَكُمْ ، مُتَكَامِلٌ عِنْدَكُمْ ، بِطَبَائِعِ لَازِمَةٍ ،
 وَغَرَائِزٍ ثَابِتَةٍ .

قَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ :

اِفْتَاءَ أَهْلَ يَنَّتِكَ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ فِي الْحِلْمِ عَلَى مَا
 ذَكَرَ ، وَأَهْلَ خُرَاسَانَ فِي حَالِ عِزٍّ عَلَى مَا وُصِفَ ،

وَلَكِنْ إِنْ وَلَّى الْمَهْدَى عَلَيْهِمْ رَجُلًا لَيْسَ بِقَدِيمِ الذِّكْرِ
 فِي الْجُنُودِ ، وَلَا بِنَيْبِهِ ، الصَّوْتِ فِي الْحُرُوبِ ،
 وَلَا بِطَوِيلِ التَّجَرُّبَةِ لِلْأُمُورِ ، وَلَا بِمَعْرِوْفِ السِّيَاسَةِ
 لِلْجُيُوشِ وَالْهَيْبَةِ فِي الْأَعْدَاءِ ، دَخَلَ ذَلِكَ أَمْرَانِ
 عَظِيمَانِ وَخَطَرَانِ مَهُولَانِ ، أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْأَعْدَاءَ
 يَنْتَمِرُونَهَا مِنْهُ وَيَحْتَقِرُونَهَا فِيهِ ، وَيَحْتَرِثُونَ بِهَا عَلَيْهِ
 فِي النَّهْوضِ بِهِ وَالْمُقَارَعَةِ لَهُ ، وَالْخِلَافِ عَلَيْهِ قَبْلَ
 الْإِخْتِبَارِ لِأَمْرِهِ ، وَالتَّكْشُفِ لِحَالِهِ وَالْعِلْمِ بِطِبَاعِهِ .
 وَالْأَمْرُ الْآخَرُ : أَنَّ الْجُنُودَ الَّتِي يَقُودُ ، وَالْجُيُوشَ الَّتِي
 يَسُوسُ إِذَا لَمْ يَخْتَبِرُوا مِنْهُ الْبَأْسَ وَالنَّجْدَةَ ، وَلَمْ
 يَعْرِفُوهُ بِالصِّيتِ وَالْهَيْبَةِ ، انْكَسَرَتْ شَجَاعَتُهُمْ ،
 وَمَاتَتْ نَجْدَتُهُمْ ، وَاسْتَأْخَرَتْ طَاعَتُهُمْ إِلَى حِينٍ

اِخْتِبَارِهِمْ ، وَوُقُوعَ مَعْرِفَتِهِمْ ، وَرَبَّمَا وَقَعَ الْبَوَارُ
 قَبْلَ الْأَخْتِبَارِ ، وَبِبَابِ الْمَهْدِيِّ — وَفَقَّهُ اللَّهُ —
 رَجُلٌ مَهِيْبٌ نَبِيْهُ حَنِيْكَ صَيِّتٌ ، لَهُ نَسَبٌ زَالٍ
 وَصَوْتُ عَالٍ ، قَدْ قَادَ الْجُيُوشَ وَسَاسَ الْحُرُوبَ ،
 وَتَأَلَّفَ أَهْلَ خُرَاسَانَ ، وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ ، بِالْمِلْقَةِ ،
 وَوَثِقُوا بِهِ كُلَّ الثَّقَةِ ، فَلَوْ وَلَاهُ الْمَهْدِيُّ أَمْرَهُمْ ،
 لَكَفَاهُ اللَّهُ شَرَّهُمْ ، قَالَ الْمَهْدِيُّ : جَانَبْتَ قَصْدَ
 الرَّمِيَّةِ ، وَأَيَّتَ إِلَّا عَصَبِيَّةً ، إِذْ رَأَى الْحَدَثَ مِنْ
 أَهْلِ يَلْتِنَا كَرَأَى عَشْرَةَ حُكَمَاءَ مِنْ غَيْرِنَا ، وَلَكِنْ
 أَيْنَ تَرَكَتُمْ وَلِيَ الْعَهْدِ .

قَالُوا :

لَمْ يَمْنَعْنَا مِنْ ذِكْرِهِ إِلَّا كَوْنُهُ شَبِيهَ جَدِّهِ ،

وَنَسِيحَ وَحْدِهِ ، وَمِنَ الدِّينِ وَأَهْلِهِ ، بِحَيْثُ يَقْصُرُ
الْقَوْلُ عَنْ أَذْنَى فَضْلِهِ ، وَلَكِنْ وَجَدْنَا اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ حَجَبَ عَنْ خَلْقِهِ ، وَسَتَرَ مِنْ دُونِ عِبَادِهِ عِلْمَ
مَا تَخْتَلِفُ بِهِ الْأَيَّامُ ، وَمَعْرِفَةَ مَا تَجْرِي عَلَيْهِ
الْمَقَادِيرُ ، مِنْ حَوَادِثِ الْأُمُورِ وَرَيْبِ الْمُنُونِ
الْمُخْتَرِمَةِ لِخَوَالِي الْقُرُونِ وَمَوَاضِي الْمُلُوكِ ، فَكَرِهْنَا
شُسُوعَهُ^(١) عَنْ مَحَلَّةِ الْمُلْكِ وَدَارِ السُّلْطَانِ وَمَقَرِّ
الْإِمَامَةِ وَالْوِلَايَةِ وَمَوْضِعِ الْمَدَائِنِ وَالْخَزَائِنِ وَمُسْتَقَرِّ
الْجُنُودِ وَمَعْدِنِ الْجُودِ ، وَمَجْمَعِ الْأَمْوَالِ الَّتِي جَعَلَهَا
اللَّهُ قُطْبًا لِدَارِ الْمُلْكِ وَمِصْنَدَةً لِقُلُوبِ النَّاسِ وَمَثَابَةً
لِإِخْوَانِ الطَّمَعِ وَثَوَارِ الْفِتَنِ ، وَدَوَاعِيَ الْبِدْعِ

وَفُرْسَانِ الضَّلَالِ وَأَبْنَاءِ الْمَوْتِ . وَقُلْنَا : إِنَّ وَجْهَ
 الْمَهْدِيِّ وَلِيَّ عَهْدِهِ فَحَدَّثَ فِي جُيُوشِهِ وَجُنُودِهِ
 مَا قَدْ حَدَّثَ بِجُنُودِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ ، لَمْ يَسْتَطِعْ
 الْمَهْدِيُّ أَنْ يُعَقِّبَهُمْ بَعِيرَهُ إِلَّا أَنْ يَنْهَدَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ
 وَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ وَهَوْلٌ شَدِيدٌ ، إِنَّ تَنَفَّسَتْ
 الْأَيَّامُ بِمَقَامِهِ ، وَاسْتَدَارَتْ الْحَالُ بِإِمَامِهِ ، حَتَّى
 يَقَعَ عِوَضٌ لَا يُسْتَعْنَى عَنْهُ ، أَوْ يَحْدَثَ أَمْرٌ لَا بُدَّ
 مِنْهُ ، صَارَ مَا بَعْدَهُ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ هَوْلًا وَأَجَلُ
 خَطَرًا لَهُ تَبَعًا وَبِهِ مُتَّصِلًا .

قال المهدي :

الْخُطْبُ الْأَيْسَرُ مِمَّا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ ، وَعَلَى غَيْرِ
 مَا تَصِفُونَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ ، نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ نَجْرِي

مِنْ أَسْبَابِ الْقَضَايَا وَمَوَاقِعِ الْأُمُورِ ، عَلَى سَابِقِ
مِنَ الْعِلْمِ وَمَحْتَوِيمِ مِنَ الْأَمْرِ ، قَدْ أَنْبَأَتْ بِهِ
الْكِتَابُ ، وَنَبَّأَتْ عَلَيْهِ الرُّسُلُ ، وَقَدْ تَنَاهَى ذَلِكَ
بِأَجْمَعِهِ إِلَيْنَا ، وَتَكَامَلَ بِحِذَائِهِ عِنْدَنَا ، فِيهِ نُدَبِّرُ ،
وَعَلَى اللَّهِ تَتَوَكَّلُ . إِنَّهُ لَا بُدَّ لَوْلِيِّ عَهْدِي وَوَلِيِّ
عَهْدِ عَقِيْبِي بَعْدِي أَنْ يَقُودَ إِلَى خُرَاسَانَ الْبُعُوثَ ،
وَيَتَوَجَّهَ نَحْوَهَا بِالْجُنُودِ .

أَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ ، وَيُعْمَلُ
فِيهِمْ حِيلَةٌ ، ثُمَّ يُخْرِجُ نَشِيطًا إِلَيْهِمْ حَقِيقًا عَلَيْهِمْ ،
يُرِيدُ أَلَّا يَدَعَ أَحَدًا مِنْ إِخْوَانِ الْفِتَنِ وَدَوَاعِي
الْبِدْعِ وَفُرْسَانِ الضَّلَالِ ، إِلَّا تَوَطَّأَهُ بِحَرِّ الْقَتْلِ ،
وَالْبَسَهُ قِنَاعَ الْقَهْرِ ، وَقَلَدَهُ طَوْقَ الذُّلِّ ، وَلَا أَحَدًا

مِنَ الَّذِينَ عَمَلُوا فِي قَصِّ جَنَاحِ الْفِتْنَةِ ، وَإِخَادُ نَارِ
 الْبِدْعَةِ ، وَنُصْرَةِ وُلَاةِ الْحَقِّ ، إِلَّا أَجْرَى عَلَيْهِمْ
 دِيمَ فَضْلِهِ ، وَجَدَاوِلَ نَهْلِهِ ، فَإِذَا خَرَجَ مُزْمِعًا بِهِ
 مُجْمِعًا عَلَيْهِ ، لَمْ يَسِرْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى تَأْتِيَهُ أَنْ قَدْ
 عَمِلَتْ حِيلُهُ ، وَكَدَحَتْ^(١) كُتْبُهُ وَتَفَذَتْ مَكَائِدُهُ ،
 فَهَدَّاتْ نَافِرَةَ الْقُلُوبِ ، وَوَقَعَتْ^(٢) طَائِرَةُ الْأَهْوَاءِ ،
 وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْمُخْتَلِفُونَ بِالرِّضَا ، فِيمِيلُ نَظَرًا لَهُمْ ،
 وَبِرًّا بِهِمْ ، وَتَعَطُّفًا عَلَيْهِمْ ، إِلَى عَدُوٍّ قَدْ أَخَافَ
 سَبِيلَهُمْ ، وَقَطَعَ طَرِيقَهُمْ ، وَمَنَعَ حُجَّاجَهُمْ يَبْتَ
 اللَّهُ الْحَرَامَ ، وَسَلَبَ تِجَارَهُمْ رِزْقَ اللَّهِ الْحَلَالَ .

(١) سعت ورأبت حتى أثرت
 غضبها وسكن روعها .

(٢) وقعت طائرة الأهواء : خد

وَأَمَّا الْآخِرُ فَإِنَّهُ يُوجَّهُ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ تُعْتَقَدُ
لَهُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ، بِإِعْطَاءِ مَا يَطْلُبُونَ . وَبَذَلِ
مَا يَسْأَلُونَ ، فَإِذَا سَمَحَتِ الْفِرْقُ لِقَرَابَاتِهَا لَهُ ،
وَجَنَحَ أَهْلُ النَّوَاحِي بِأَغْنَائِهِمْ نَحْوَهُ ، فَأَصْنَعْتُ
إِلَيْهِ الْأَفْنَدَةَ ، وَاجْتَمَعَتْ لَهُ الْكَلِمَةُ ، وَقَدِمَتْ
عَلَيْهِ الْوُفُودُ قَصْدَ لِأَوَّلِ نَاحِيَةٍ نَجَعَتْ بِطَاعَتِهَا
وَأَلْقَتْ بِأَزِمَّتِهَا ، فَأَلْبَسَهَا جَنَاحَ نِعْمَتِهِ ، وَأَنْزَلَهَا
ظِلَّ كَرَامَتِهِ ، وَخَصَّهَا بِعَظِيمِ حَبَائِهِ ، ثُمَّ عَمَّ
الْجَمَاعَةَ بِالْمُعْدَلَةِ ، وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِمْ بِالرَّحْمَةِ ، فَلَا
تَبْقَى فِيهِمْ نَاحِيَةٌ دَانِيَةٌ وَلَا فِرْقَةٌ قَاصِيَةٌ ، إِلَّا
دَخَلَتْ عَلَيْهَا بَرَكَتُهُ ، وَوَصَلَتْ إِلَيْهَا مَنَفَعَتُهُ ،
فَإَغْنَى فَقِيرَهَا ، وَجَبَرَ كَسِيرَهَا ، وَرَفَعَ وَضِيعَهَا ،

وَزَادَ رَفِيعَهَا مَا خَلََا نَاحِيَتَيْنِ ، نَاحِيَةً يَغْلِبُ عَلَيْهَا
الشَّقَاءُ . وَتَسْتَمِيلُهُمُ الْأَهْوَاءُ ، فَتَسْتَخِفُّ بِدَعْوَتِهِ ،
وَتُبْطِئُ عَنْ إِجَابَتِهِ ، وَتَتَثَاقَلُ عَنْ حَقِّهِ ، فَتَكُونُ
آخِرَ مَنْ يَبْعَثُ وَأَبْطَأَ مَنْ يُوجِّهُ ، فَيَصْطَلِي عَلَيْهَا
مُوجِدَةً ، وَيَبْتَغِي لَهَا عِلَّةً ، لَا يَلْبَثُ أَنْ يَجِدَ
بِحَقِّ يَلْزَمُهُمْ وَأَمْرٍ يَجِبُ عَلَيْهِمْ ، فَتَسْتَلْحِمُهُمُ
الْجِيُوشُ ، وَتَأْكُلُهُمُ السُّيُوفُ ، وَيَسْتَحِرُّ بِهِمُ
الْقَتْلُ ، وَيُحِيطُ بِهِمُ الْأَسْرُ ، وَيُفْنِيهِمُ التَّتَبُّعُ ،
حَتَّى يُخَرَّبَ الْبِلَادَ ، وَيُوتِمَ الْأَوْلَادَ ، وَنَاحِيَةً
لَا يَنْسُطُ لَهُمْ أَمَانًا ، وَلَا يَقْبَلُ لَهُمْ عَهْدًا ،
وَلَا يَجْعَلُ لَهُمْ ذِمَّةً ، لِأَنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ فَتَحَ بَابَ
الْفُرْقَةِ ، وَتَدْرَعُ جَلْبَابَ الْفِتْنَةِ ، وَرَبَضَ فِي شَقِّ

الْعَصَا ، وَلَكِنَّهُ يَقْتُلُ أَعْلَامَهُمْ ، وَيَأْسِرُ قُوَادَهُمْ ،
وَيَطْلُبُ هُرَابَهُمْ فِي لُجَجِ الْبَحَارِ ، وَقُلُلِ الْجِبَالِ ،
وَحَمْلِ الْأُودِيَةِ ، وَبُطُونِ الْأَرْضِ ، تَقْتِيلًا وَتَغْلِيلًا
وَتَنْكِيلًا ، حَتَّى يَدَعَ الدِّيَارَ خَرَابًا وَالنِّسَاءَ أَيَامَى ،
وَهَذَا أَمْرٌ لَا نَعْرِفُ لَهُ فِي كُتُبِنَا وَقْتًا ، وَلَا نَصَحَّحُ
مِنْهُ غَيْرَ مَا قُلْنَا تَفْسِيرًا .

وَأَمَّا مُوسَى وَلِيُّ عَهْدِي فَهَذَا أَوَانُ تَوَجُّهِهِ إِلَى
خُرَاسَانَ ، وَحُلُولِهِ بِجُرْجَانَ ، وَمَا قَضَى اللَّهُ لَهُ مِنْ
الشُّخُوصِ إِلَيْهَا ، وَالْمُقَامُ فِيهَا ، خَيْرٌ لِلْمُسْلِمِينَ مَغَبَّةً ،
وَلَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَاقِبَةٌ مِنَ الْمُقَامِ ، بِحَيْثُ يُعْمَرُ فِي لُجَجِ
بُحُورِنَا ، وَمَدَافِعِ سَيُولِنَا ، وَجَمَاعِعِ أَمْوَاجِنَا ، فَيَتَصَاغَرُ

عَظِيمُ فَضْلِهِ ، وَتَذَابُّ^(١) مَشْرِقُ نُورِهِ ، وَيَتَقَلَّلُ
كَثِيرُ مَا هُوَ كَأَنَّ مِنْهُ ، فَمَنْ يَصْحَبُهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ
وَيُخْتَارُ لَهُ مِنَ النَّاسِ .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ اللَّيْثِ :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ : إِنَّ وَلِيَّ عَهْدِكَ أَصْبَحَ لِأُمَّتِكَ وَأَهْلِ
بَيْتِكَ عِلْمًا ، قَدْ تَشَتَّتْ نَحْوُهُ أَعْنَاقُهَا وَمَدَّتْ سَمْتُهُ
أَبْصَارُهَا ، وَقَدْ كَانَ لِقُرْبِ دَارِهِ مِنْكَ ، وَمَحَلِّ
جَوَارِهِ لَكَ ، عُطِّلَ الْحَالِ غُفْلَ الْأَمْرِ وَاسِعَ الْعُذْرِ ،
فَأَمَّا إِذَا انْفَرَدَ بِنَفْسِهِ وَخَلَا بِنَظَرِهِ وَصَارَ إِلَى تَدْيِيرِهِ ،
فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْعَامَّةِ أَنْ تَتَفَقَّدَ^(٢) مَخَارِجَ رَأْيِهِ ،
وَتَسْتَنْصِتَ لِمَوَاقِعِ آثَارِهِ ، وَتَسْأَلَ عَنْ حَوَادِثِ

(١) يَتَذَابُّ : يَجُتُّ (٢) تَتَفَقَّدُ مَخَارِجَ رَأْيِهِ : أَيْ تَفْحَصُ عَنْ

وَجُوهَ رَأْيِهِ وَتَدْيِيرِهِ

أَحْوَالِهِ فِي بَرِّهِ وَمَرْحَمَتِهِ ، وَإِقْسَاطِهِ وَمَعْدَلَتِهِ ، وَتَدْبِيرِهِ
وَسِيَاسَتِهِ ، وَوُزَرَاءِهِ وَأَصْحَابِهِ ، ثُمَّ يَكُونُ مَا سِيقَ
إِلَيْهِمْ أَغْلَبُ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَأَمْلَكُ^(١) الْأُمُورِ بِهِمْ ،
وَالزُّمُّهَا لِقُلُوبِهِمْ ، وَأَشَدُّهَا اسْتِمَالَةً لِرَأْيِهِمْ وَعَظْفًا
لِأَهْوَائِهِمْ ، فَلَا يَفْتَأُ الْمَهْدِيُّ — وَفَقَّهُ اللَّهُ — نَاطِرًا
لَهُ فِيمَا يُقَوِّي عُمْدَ مَمْلَكَتِهِ ، وَيُسَدِّدُ أَرْكَانَ وَلَايَتِهِ ،
وَيَسْتَجْمِعُ رِضَا أُمَّتِهِ بِأَمْرِ هُوَ أَزِينُ لِحَالِهِ وَأَظْهَرُ
لِجَمَالِهِ ، وَأَفْضَلُ مَغَبَّةٍ لِأَمْرِهِ ، وَأَجَلُ مَوْقِعًا فِي قُلُوبِ
رَعِيَّتِهِ ، وَأَحْمَدُ حَالًا فِي نُفُوسِ أَهْلِ مِلَّتِهِ ، وَلَا أَدْفَعُ
مَعَ ذَلِكَ بِاسْتِجْمَاعِ الْأَهْوَاءِ لَهُ ، وَأَبْلَغُ فِي اسْتِعْطَافِ
الْقُلُوبِ عَلَيْهِ ، مِنْ مَرْحَمَةٍ تَظْهَرُ مِنْ فِعْلِهِ ، وَمَعْدَلَةٍ

(١) أملك الأمور : أضبطها

تَنْتَشِرُ عَنْ أَثَرِهِ وَحُبَّةٍ لِلْخَيْرِ وَأَهْلِهِ ، وَأَنْ يَخْتَارَ
 الْمُهْدِيُّ — وَفَّقَهُ اللَّهُ — مِنْ خِيَارِ أَهْلِ كُلِّ بَلَدَةٍ ،
 وَفُقَهَاءِ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ ، أَقْوَامًا تَسْكُنُ إِلَيْهِمُ الْعَامَّةُ
 إِذَا ذُكِرُوا ، وَتَأْنَسُ الرَّعِيَّةُ بِهِمْ إِذَا وُصِفُوا ، ثُمَّ
 تُسَهِّلُ لَهُمْ عِمَارَةَ سُبُلِ الْإِحْسَانِ وَفَتْحُ بَابِ
 الْمَعْرُوفِ ، كَمَا قَدْ كَانَ فُتِحَ لَهُ وَسُهِّلَ عَلَيْهِ .

قَالَ الْمُهْدِيُّ : صَدَقْتَ وَنَصَحْتَ ثُمَّ بَعَثَ فِي ابْنِهِ

مُوسَى فَقَالَ :

أَيُّ بُنَى ، إِنَّكَ قَدْ أَصْبَحْتَ لِسَمْتٍ^(١) وَجُوهِ
 الْعَامَّةِ نُسْبًا ، وَلَمَشْنَى أُعْطَافٍ^(٢) الرَّعِيَّةِ غَايَةً ،

(١) السمت : المذهب والتقصيد (٢) الأعطاف : جمع عطف وهو الجانب

فَحَسَنَتُكَ شَامِلَةٌ ، وَإِسَاءَتُكَ نَائِيَةٌ ، وَأَمْرُكَ ظَاهِرٌ ،
فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، فَاحْتَمِلْ سُخْطَ النَّاسِ
فِيهِمَا ، وَلَا تَطْلُبْ رِضَاهُمْ بِخِلَافِهِمَا ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ كَافِيكَ مَنْ أَسْخَطَهُ عَلَيْكَ إِثَارُكَ رِضَاهُ ،
وَلَيْسَ بِكَافِيكَ مَنْ يُسْخِطُهُ عَلَيْكَ إِثَارُكَ رِضَا
مَنْ سِوَاهُ ، ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ زَمَانٍ
فِتْرَةً مِنْ رُسُلِهِ ، وَبَقَايَا مِنْ صَفْوَةِ خَلْقِهِ وَخَبَايَا
لِنُصْرَةِ حَقِّهِ ، يُجَدِّدُ حَبْلَ الْإِسْلَامِ بِدَعْوَاهُمْ ،
وَيُشِيدُ أَرْكَانَ الدِّينِ بِنُصْرَتِهِمْ ، وَيَتَّخِذُ لِأَوْلِيَاءِ
دِينِهِ أَنْصَارًا ، وَعَلَى إِقَامَةِ عَدْلِهِ أَعْوَانًا ، يَسُدُّونَ
الْخُلَلَ وَيُقِيمُونَ الْمِيلَ ، وَيَدْفَعُونَ عَنِ الْأَرْضِ
الْفَسَادَ ، وَإِنَّ أَهْلَ خُرَاسَانَ أَصْبَحُوا أَيْدِي دَوْلَتِنَا ،

وَسُيُوفَ دَعْوَتِنَا الَّذِينَ نَسْتَدْفِعُ الْمَكَارَةَ بِطَاعَتِهِمْ ،
 وَنَسْتَصْرِفُ نُزُولَ الظَّالِمِ بِمُنَاصَحَتِهِمْ . وَنُدَافِعُ رَيْبَ
 الزَّمَانِ بِعِزَائِهِمْ ، وَنُزَاحِمُ رُكْنَ الدَّهْرِ بِبَصَائِرِهِمْ ،
 فَهُمْ عِمَادُ الْأَرْضِ إِذَا أُرْجِفَتْ كُنُفُهَا ^(١) ، وَخَوْفُ
 الْأَعْدَاءِ إِذَا بَرَزَتْ صَفْحَتُهَا ، وَحُصُونُ الرَّعِيَّةِ إِذَا
 تَضَايَقَتِ الْحَالُ بِهَا ، قَدْ مَضَتْ لَهُمْ وَقَائِعُ
 صَادِقَاتٍ ، وَمَوَاطِنُ صَالِحَاتٍ ، أَخَذَتْ نِيرَانَ الْفِتَنِ
 وَقَسَمَتْ دَوَاعِيَ الْبِدْعِ ، وَأَزَلَّتْ رِقَابَ الْجَبَّارِينَ ،
 وَلَمْ يَنْفَكُوا كَذَلِكَ مَا جَرَوْا مَعَ رِيحِ دَوْلَتِنَا ،
 وَأَقَامُوا فِي ظِلِّ دَعْوَتِنَا ، وَاعْتَصَمُوا بِحَبْلِ طَاعَتِنَا ،
 الَّتِي أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا ذِلَّتَهُمْ وَرَفَعَ بِهَا ضَعْفَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ

(١) الكنفُ جمع كنف وهو الجانب . وأرجفتُ : زلزلتُ

بِهَا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ
 الْعَالَمِينَ بَعْدَ لِبَاسِ الدُّلِّ ، وَقِنَاجِ الْخَوْفِ ، وَإِطْبَاقِ
 الْبَلَاءِ وَمُخَالَفَةِ الْأَسَى ، وَجَهْدِ الْبَاسِ وَالضَّرِّ ،
 فَظَاهِرِ عَلَيْهِمْ لِبَاسَ كِرَامَتِكَ ، وَأَنْزِلْهُمْ فِي حَدَائِقِ
 نِعْمَتِكَ ، ثُمَّ اَعْرِفْ لَهُمْ حَقَّ طَاعَتِهِمْ ، وَوَسِيلَةَ
 دَلَّتِهِمْ ، وَمَاتَةَ سَابِقَتِهِمْ ، وَحُرْمَةَ مُنَاصَحَتِهِمْ ،
 بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَالتَّوَسُّعِ عَلَيْهِمْ ، وَالْإِثَابَةِ
 لِمُحْسِنِهِمْ ، وَالْإِقَالَةِ لِمُسِيئِهِمْ .

أَيُّ مُبْنَى ، ثُمَّ عَلَيْكَ الْعَامَّةُ فَاسْتَدْعِ رِضَاهَا
 بِالْعَدْلِ عَلَيْهَا ، وَاسْتَجْلِبْ مَوَدَّتَهَا بِالْإِنْصَافِ لَهَا ،
 وَتَحَسَّنْ بِذَلِكَ لِرَبِّكَ ، وَتَوَثَّقْ بِهِ فِي عَيْنِ رَعِيَّتِكَ ،
 وَاجْعَلْ عُمَالَ الْعُذْرِ وَوُلَاةَ الْحُجَجِ مُقَدِّمَةً بَيْنَ عَمَلِكَ ،

وَنَصَفَةً مِنْكَ لِرَعِيَّتِكَ ، وَذَلِكَ أَنَّ تَأْمُرَ قَاضِيَ كُلِّ
بَلَدٍ ، وَخِيَارَ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ ، أَنْ يَخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ
رَجُلًا تُؤَلِّيهِ أَمْرَهُمْ ، وَتَجْعَلُ الْعَدْلَ حَاكِمًا بَيْنَهُ
وَبَيْنَهُمْ ، فَإِنْ أَحْسَنَ حُدُثَ ، وَإِنْ أَسَاءَ عُذِرَتْ ،
هُوَ لِأَعْمَالِ الْعُذْرِ وَوُلاَةِ الْحُجَجِ ، فَلَا يَسْقُطَنَّ
عَلَيْكَ مَا فِي ذَلِكَ إِذَا انْتَشَرَ فِي الْآفَاقِ ، وَسَبَقَ
إِلَى الْأَسْمَاعِ ، مِنْ الْعِقَادِ السِّنَةِ الْمُرْجِفِينَ ، وَكَبَّتِ
قُلُوبُ الْحَاسِدِينَ ، وَإِطْفَاءُ نِيرَانِ الْحُرُوبِ ، وَسَلَامَةُ
عَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، وَلَا يَنْفَكَنَّ فِي ظِلِّ كَرَامَتِكَ نَازِلًا ،
وَبِعُرَا حَبْلِكَ مُتَعَلِّقًا رَجُلَانِ : أَحَدُهُمَا كَرِيمَةٌ^(١)
مِنْ كَرَائِمِ رَجَالَاتِ الْعَرَبِ ، وَأَعْلَامُ يُيُوتَاتِ

(١) الكريمة : صاحب الكرم . وكرائم الرجال : أخايرُ رجال
العرب وأحسنهم

الشَّرَفُ ، لَهُ أَدَبٌ فَاضِلٌ ، وَحِلْمٌ رَاجِحٌ ، وَدِينٌ صَحِيحٌ ،
وَالْآخِرُ لَهُ دِينٌ غَيْرُ مَغْمُوزٍ ^(١) ، وَمَوْضِعٌ غَيْرُ مَدْخُولٍ ،
بَصِيرَةٌ بِتَقْلِيلِ الْكَلَامِ وَتَصْرِيفِ الرَّأْيِ وَأَنْحَاءِ
الْعَرَبِ وَوَضْعِ الْكُتُبِ ، عَالِمٌ بِحَالَاتِ الْحُرُوبِ
وَتَصَارِيفِ الْخُطُوبِ ، يَضَعُ آدَابًا نَافِعَةً وَآثَارًا بَاقِيَةً ،
مِنْ مَحَاسِنِكَ وَتَحْسِينِ أَمْرِكَ وَتَحْلِيلَةِ ذِكْرِكَ ، فَتَسْتَشِيرُهُ
فِي حَرْبِكَ ، وَتُدْخِلُهُ فِي أَمْرِكَ ، فَرَجُلٌ أَصَبَتْهُ كَذَلِكَ
فَهُوَ يَأْوِي إِلَى مَحَلَّتِي ، وَيَرْعَى فِي خُضْرَةِ جَنَانِي ،
وَلَا تَدَعُ أَنْ تَخْتَارَ لَكَ مِنْ فُقَهَاءِ الْبُلْدَانِ ، وَخِيَارِ
الْأَمْصَارِ ، أَقْوَامًا يَكُونُونَ جِيرَانَكَ وَسُمَّارَكَ ، وَأَهْلَ
مُشَاوَرَتِكَ فِيمَا تُورِدُ ، وَأَصْحَابَ مُنَاطَرَتِكَ فِيمَا

(١) غير مغموز : غير مطعون . وغير مدخول : لا يداخله فساد

تُصَدِّرُ . فِسرَ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ ، أَصْحَبَكَ اللَّهُ مِنْ عَوْنِهِ
وَتَوْفِيقِهِ دَلِيلًا يَهْدِي إِلَى الصَّوَابِ قَلَمِكَ ، وَهَادِيًا
يُنْطِقُ بِالْخَيْرِ لِسَانِكَ .

* * *

وَإِلَيْكَ عَهْدَ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ ، وَيُحَذِّرُ بِكَ
أَنْ تُقَارَنَهُ بِمَا سَبَقَهُ مِنْ عُهْدٍ ، وَأَنْ يُمَثَّلَ لَكَ
النُّشْرُ الْعَرَبِيُّ فِي أَزْهَى الْعُصُورِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وَمَبْلَغِ
عِلْمِ الْقَوْمِ بِالثَّقَافَاتِ الْأُخْرَى ، واطَّلَاعِهِمْ عَلَى
الْمَدَنِيَّاتِ الْمُتَفَاوِتَةِ :

قَالَ ابْنُ طَيْفُورٍ : وَلَمَّا عَهْدَ طَاهِرُ بْنُ الْحُسَيْنِ
إِلَى عَبْدِ اللَّهِ ابْنِهِ هَذَا الْعَهْدَ ، تَنَازَعَهُ النَّاسُ وَكَتَبُوهُ
وَتَدَارَسُوهُ ، وَشَاعَ أَمْرُهُ ، حَتَّى بَلَغَ الْمَأْمُونُ ،
فَدَعَا بِهِ وَقَرَأَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : مَا أَبْقَى أَبُو الطَّيِّبِ

شَيْئًا مِنَ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا ، وَالتَّذْيِيرِ وَالرَّأْيِ ، وَإِصْلَاحِ
 الْمُلْكِ وَالرَّعِيَّةِ ، وَحِفْظِ الْبَيْعَةِ ، وَطَاعَةِ الْخُلَفَاءِ ،
 وَتَقْوِيمِ الْخِلَافَةِ : إِلَّا وَقَدْ أَحْكَمَهُ ، وَأَوْصَى بِهِ ،
 وَتَقَدَّمَ فِيهِ ؛ وَأَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ بِذَلِكَ إِلَى جَمِيعِ
 الْعُمَّالِ فِي نَوَاحِي الْأَعْمَالِ ، وَهَآكِهِ :

« عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَحُدَّةِ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَخَشْيَتِهِ
 وَمُرَاقَبَتِهِ وَمُزَايَلَةِ سَخَطِهِ ، وَحِفْظِ رَعِيَّتِكَ ؛ وَالزَّمْ
 مَا أَلْبَسَكَ اللَّهُ فِي الْعَافِيَةِ بِالذِّكْرِ لِمَعَادِكَ ، وَمَا أَنْتَ
 صَائِرٌ إِلَيْهِ ، وَمَوْقُوفٌ عَلَيْهِ ، وَمَسْئُولٌ عَنْهُ ، وَالْعَمَلِ
 فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِمَا يَعِصُمُكَ اللَّهُ وَيُنَجِّيكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 مِنْ عَذَابِهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ ،
 وَأَوْجَبَ عَلَيْكَ الرَّأْفَةَ بِمَنْ اسْتَرْعَاكَ أَمْرُهُمْ مِنْ

عِبَادِهِ ، وَأَلْزَمَكَ الْعَدْلَ عَلَيْهِمْ ، وَالْقِيَامَ بِحَقِّهِ
 وَحُدُودِهِ فِيهِمْ ، وَالذَّبَّ عَنْهُمْ ، وَالِدَّفْعَ عَنْ حَرَجِهِمْ
 وَيَبِضَتِهِمْ ، وَالْحَقْنَ لِدِمَائِهِمْ ، وَالْأَمْنَ لِسَبِيلِهِمْ ،
 وَإِذْخَالَ الرَّاحَةِ عَلَيْهِمْ فِي مَعَايِشِهِمْ ، وَمُؤَاخِذَكَ بِمَا
 فَرَضَ عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ ، وَمُؤَقِّفَكَ عَلَيْهِ ، وَمُسَائِلَكَ
 عَنْهُ ، وَمُثِيبَكَ عَلَيْهِ بِمَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ ؛ فَفَرَّغْ
 لَذَلِكَ فِكْرَكَ وَعَقْلَكَ وَبَصْرَكَ وَرَوِيَّتَكَ ، وَلَا يَذْهِلَكَ
 عَنْهُ ذَهَلٌ ، وَلَا يَشْغَلُكَ عَنْهُ شُغْلٌ ، فَإِنَّهُ رَأْسُ
 أَمْرِكَ ، وَمِلَاكُ شَأْنِكَ ، وَأَوَّلُ مَا يُوقِّفُكَ اللَّهُ بِهِ
 لِرَشْدِكَ ؛ وَلَيْسَ أَوَّلُ مَا تُلْزَمُ بِهِ نَفْسُكَ ، وَتُنَسَبُ
 إِلَيْهِ فِعَالُكَ : الْمُوَاطَّاةُ عَلَى مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ مِنْ
 الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ، وَالْجُمَاعَةِ عَلَيْهَا بِالنَّاسِ قِبَلَكَ

فِي مَوَاقِيْتِهَا عَلَى سُنَنِهَا فِي إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ لَهَا وَافْتِتَاحِ
 ذِكْرِ اللَّهِ فِيهَا ، وَتَرْتِلُ فِي قِرَاءَتِكَ ، وَتَمَكَّنْ فِي
 رُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ وَتَشْهَدُكَ ، وَلْتَصَدُقْ فِيهَا لِرَبِّكَ
 نَيْتُكَ ، وَأَحْضُضْ عَلَيْهَا جَمَاعَةً مِنْ مَعَكَ وَتَحْتَ
 يَدِكَ ، وَادَّابُ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ : « تَأْمُرُونَ
 بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، ثُمَّ أَتْبِعْ ذَلِكَ
 الْإِخْذَ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْمُتَابَرَةَ
 عَلَى خَلَائِقِهِ ، وَاقْتِفَاءَ آثَارِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ بَعْدِهِ
 وَإِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ أَمْرٌ ، فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِاسْتِخَارَةِ اللَّهِ
 وَتَقْوَاهُ ، وَلُزُومِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ، مِنْ أَمْرِهِ
 وَنَهْيِهِ ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، وَائْتِمَامِ مَا جَاءَتْ بِهِ
 الْآثَارُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قُمْ فِيهِ

بِمَا يَحِقُّ لِلَّهِ عَلَيْكَ ، وَلَا تَمَلْ عَنِ الْعَدْلِ فِيمَا أَحْبَبْتَ
أَوْ كَرِهْتَ ، لِقَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ بَعِيدٍ ، وَآثِرِ
الْفَقْهَ وَأَهْلَهُ ، وَالِدِّينَ وَحَمَلَتَهُ ، وَكِتَابَ اللَّهِ وَالْعَامِلِينَ
بِهِ ، فَإِنَّ أَفْضَلَ مَا تَزَيَّنَ بِهِ الْمَرْءُ : الْفَقْهُ فِي دِينِ
اللَّهِ ، وَالطَّلَبُ لَهُ ، وَالْحَثُّ عَلَيْهِ ، وَالْمَعْرِفَةُ بِمَا
يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ ،
وَالْقَائِدُ لَهُ ، وَالْأَمْرُ بِهِ ، وَالنَّاهِي عَنِ الْمَعَاصِي
وَالْمُؤَبِّقَاتِ كُلِّهَا ، وَبِهَا مَعَ تَوْفِيقِ اللَّهِ تَزْدَادُ الْعِبَادُ
مَعْرِفَةً بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَإِجْلَالًا لَهُ وَدَرَكًا لِلدَّرَجَاتِ
الْعُلَى فِي الْمَعَادِ مَعَ مَا فِي ظُهُورِهِ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوْقِيرِ
لِأَمْرِكَ ، وَالْهَيْبَةِ لِسُلْطَانِكَ ، وَالْأَنَسَةِ بِكَ ، وَالثِّقَةِ
بِعَدْلِكَ ، وَعَلَيْكَ بِالْاِقْتِصَادِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا ، فَلَيْسَ

شَيْءٌ أَبِينَ نَفْعًا ، وَلَا أَحْضَرَ أَمْنًا ، وَلَا أَجْمَعَ فَضْلًا
 مِنْ الْقَصْدِ ، وَالْقَصْدُ دَاعِيَةٌ إِلَى الرُّشْدِ ، وَالرُّشْدُ
 دَلِيلٌ عَلَى التَّوْفِيقِ ، وَالتَّوْفِيقُ مُنْقَادٌ إِلَى السَّعَادَةِ ،
 وَقَوَامُ الدِّينِ وَالسُّنَنِ الْهَادِيَةِ بِالْاِقْتِصَادِ ، فَآثَرُهُ فِي
 دُنْيَاكَ كُلِّهَا ، وَلَا تُقْصِرْ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ وَالْأَجْرِ
 وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَالسُّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ وَمَعَالِمِ الرُّشْدِ ،
 فَلَا غَايَةَ لِلْاِسْتِكْثَارِ مِنَ الْبِرِّ وَالسَّعْيِ لَهُ ، إِذَا كَانَ
 يُطْلَبُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ وَمَرْضَاتُهُ ، وَمُرَافَقَةُ أَوْلِيَائِهِ ،
 فِي دَارِ كَرَامَتِهِ .

وَأَعْلَمَ : أَنَّ الْقَصْدَ فِي شَأْنِ الدُّنْيَا يُورِثُ الْعِزَّ
 وَيُحَصِّنُ مِنَ الذُّنُوبِ ؛ وَأَنَّكَ لَنْ تَحُوطَ نَفْسَكَ
 وَمَنْ يَلِيكَ ، وَلَا تَسْتَصْلِحَ أُمُورَكَ ، بِأَفْضَلِ مِنْهُ

فَاتِهِ ، وَاهْتَدِ بِهِ ، تَتِمَّ أُمُورُكَ ، وَتَزِدَ مَقْدِرَتُكَ
وَتَصْلُحَ خَاصَّتُكَ ، وَعَامَّتُكَ ؛ وَأَحْسِنِ الظَّنَّ بِاللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ ، تَسْتَقِمَّ لَكَ رَعِيَّتُكَ ، وَالتَّمَسِ الْوَسِيلَةَ
إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا ، تَسْتَدِمَّ بِهِ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ ،
وَلَا تُنْهَضْ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ فِيمَا تُؤَلِّيهِ مِنْ عَمَلِكَ ،
قَبْلَ تَكْشُفِ أَمْرِهِ بِالتُّهْمَةِ ، فَإِنَّ إِيقَاعَ التُّهْمِ
بِالْبِرَاءِ وَالظُّنُونِ السَّيِّئَةِ بِهِمْ مَأْثَمٌ ، وَاجْعَلْ مِنْ
شَأْنِكَ ، حُسْنَ الظَّنِّ بِأَصْحَابِكَ وَاطْرُدْ عَنْكَ سُوءَ
الظَّنِّ بِهِمْ ، وَارْفُضْهُ عَنْهُمْ يُعْنِكَ ذَلِكَ عَلَى اصْطِنَاعِهِمْ
وَرِيَاضَتِهِمْ ، وَلَا يَجِدَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ الشَّيْطَانُ فِي أَمْرِكَ
مَغْمَزًا ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَكْتَفِي بِالْقَلِيلِ مِنْ وَهْنِكَ ،
فَيُدْخِلُ عَلَيْكَ مِنَ النِّعَمِ ، فِي سُوءِ الظَّنِّ ، مَا يُنْغِصُ

عَلَيْكَ لَذَاذَةُ عَيْشِكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ تَجِدُ بِحُسْنِ الظَّنِّ
 قُوَّةً وَرَاحَةً ، وَتَكْفِي بِهِ مَا أُحِبَّتْ كِفَايَتُهُ مِنْ
 أُمُورِكَ ، وَتَدْعُو بِهِ النَّاسَ إِلَى مَحَبَّتِكَ ، وَالْإِسْتِقَامَةِ
 فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا لَكَ ، وَلَا يَمْنَعُكَ حُسْنُ الظَّنِّ
 بِأَصْحَابِكَ ، وَالرَّأْفَةُ بِرَعِيَّتِكَ أَنْ تَسْتَعِيلَ الْمَسْأَلَةَ
 وَابْحَثَ عَنْ أُمُورِكَ وَالْمُبَاشَرَةَ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ ،
 وَالْحَيَاطَةَ لِلرَّعِيَّةِ ؛ وَالنَّظَرَ فِيمَا يُقِيمُهَا وَيُصْلِحُهَا ؛
 بَلْ لَتَكُنِ الْمُبَاشَرَةُ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ ، وَالْحَيَاطَةُ
 لِلرَّعِيَّةِ ، وَالنَّظَرُ فِي حَوَاجِهِمْ ، وَحَمْلُ
 مَوْؤَنَاتِهِمْ : آثَرٌ عِنْدَكَ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ أَقْوَمُ
 لِلدِّينِ وَأَحْيَا لِلسُّنَّةِ ؛ وَأَخْلَصُ نِيَّتِكَ فِي جَمِيعِ هَذَا ،
 وَتَفَرَّدَ بِتَقْوِيمِ نَفْسِكَ ، تَفَرَّدَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَسْئُولٌ

عَمَّا صَنَعَ ، وَحَجَزِيٌّ بِمَا أَحْسَنَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الدِّينَ
 حِرْزًا وَعِزًّا ، وَرَفَعَ مَنْ اتَّبَعَهُ وَعَزَّزَهُ ، فَاسْلُكْ
 بِمَنْ تَسُوسُهُ وَتَرْعَاهُ ، نَهْجَ الدِّينِ ، وَطَرِيقَةَ الْهُدَى ،
 وَأَقِمْ حُدُودَ اللَّهِ فِي أَصْحَابِ الْجَرَائِمِ عَلَى قَدَرِ مَنَازِلِهِمْ ،
 وَمَا اسْتَحَقُّوهُ ، وَلَا تُعْطِلْ ذَلِكَ وَلَا تَهَاوُنْ بِهِ ،
 وَلَا تُؤَخِّرْ عُقُوبَةَ أَهْلِ الْعُقُوبَةِ ، فَإِنَّ فِي تَفْرِيطِكَ
 فِي ذَلِكَ ، لَمَا يُفْسِدُ عَلَيْكَ حُسْنَ ظَنِّكَ ، وَاعْزِمْ عَلَى
 أَمْرِكَ فِي ذَلِكَ بِالسَّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَجَانِبِ الشُّبْهِ
 وَالْبِدْعَاتِ ، يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ ، وَتَقُمْ لَكَ مَرْوَةٌ تَكْ ،
 وَإِذَا عَاهَدْتَ عَهْدًا فَفِ بِهِ ، وَإِذَا وَعَدْتَ الْخَيْرَ
 فَأَنْجِزْهُ ، وَاقْبَلِ الْحَسَنَةَ ، وَادْفَعْ بِهَا ، وَأَغْمِضْ عَنْ
 عَيْبِ كُلِّ ذِي عَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، وَاشْدُدْ لِسَانَكَ

عَنْ قَوْلِ الْكَذِبِ وَالزُّورِ ، وَأَبْغَضُ أَهْلَهُ ، وَأَقْصِ
 أَهْلَ النَّمِيمَةِ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فَسَادِ أَمْرِكَ فِي عَاجِلِ
 الْأُمُورِ وَآجِلِهَا ، تَقْرِيبُ الْكَذُوبِ ، وَالْجُرْأَةُ عَلَى
 الْكَذِبِ لِأَنَّ الْكَذِبَ رَأْسُ الْمَآثِمِ ، وَالزُّورَ
 وَالنَّمِيمَةَ خَاتَمَتُهَا ، لِأَنَّ النَّمِيمَةَ لَا يَسْلُمُ صَاحِبُهَا ،
 وَقَائِلُهَا لَا يَسْلُمُ لَهُ صَاحِبٌ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ لِمُطِيعِهَا
 أَمْرٌ ، وَأَحِبُّ أَهْلَ الصَّدَقِ وَالصَّلَاحِ ، وَأَعِنِ
 الْأَشْرَافَ بِالْحَقِّ ، وَوَاصِلِ الضُّعَفَاءِ ، وَصِلِ الرَّحِمَ ،
 وَابْتَغِ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ ، وَعِزَّةَ أَمْرِهِ وَالتَّمَسُّ فِيهِ
 ثَوَابَهُ وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَاجْتَنِبِ سُوءَ الْأَهْوَاءِ
 وَالْجُورِ ، وَاصْرِفْ عَنْهُمَا رَأْيَكَ ، وَاطْهَرِ مِنْ ذَلِكَ
 لِرَعِيَّتِكَ ، وَأَنْعِمِ بِالْعَدْلِ سِيَاسَتَهُمْ ، وَقُمْ بِالْحَقِّ

فِيهِمْ ، وَبِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَنْتَهِي بِكَ إِلَى سَبِيلِ
 الْهُدَى ، وَامْلِكْ نَفْسَكَ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَآثِرِ
 الْوَقَارَ وَالْحِلْمَ ، وَإِيَّاكَ وَالْحِدَّةَ وَالطَّيْشَ وَالْعُرُورَ
 فِيمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ : إِنِّي مُسَلِّطٌ
 أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ فَإِنَّ ذَلِكَ سَرِيعٌ فَيْكَ إِلَى تَقْصِ
 الرَّأْيِ ، وَقِلَّةِ الْيَقِينِ بِاللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ،
 وَأَخْلِصْ لِلَّهِ وَحَدَهُ النِّيَّةَ فِيهِ ، وَالْيَقِينَ بِهِ ، وَاعْلَمْ
 أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ ، يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ
 يَشَاءُ ، وَلَنْ تَجِدَ تَغْيِيرَ النِّعْمَةِ ، وَحُلُولَ النِّقْمَةِ ، إِلَى
 أَحَدٍ أَسْرَعَ مِنْهُ ، إِلَى حِمْلَةِ النِّعْمَةِ ، مِنْ أَصْحَابِ
 السُّلْطَانِ ، وَالْمَبْسُوطِ لَهُمْ فِي الدَّوْلَةِ ، إِذَا كَفَرُوا
 بِنِعْمِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَاسْتَطَالُوا بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ

فَضْلِهِ ، وَدَعَّ عَنْكَ شَرَّهَ نَفْسِكَ ، وَلِتَكُنْ ذَخَائِرُكَ
وَكُنُوزُكَ الَّتِي تَدَّخِرُ وَتَكْنِزُ ، الْبِرَّ وَالتَّقْوَى ،
وَالْمَعْدَلَةَ ، وَاسْتِصْلَاحَ الرَّعِيَّةِ وَعِمَارَةَ بِلَادِهِمْ ،
وَالْتَفَقُّدَ لِأُمُورِهِمْ ، وَالْحِفْظَ لِدِمَائِهِمْ ، وَالْإِغَاثَةَ
لِمَلْهُوفِهِمْ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمْوَالَ إِذَا كَثُرَتْ وَذُخِرَتْ
فِي الْخَزَائِنِ ، لَا تُثْمِرُ ، وَإِذَا كَانَتْ فِي إِصْلَاحِ
الرَّعِيَّةِ ، وَإِعْطَاءِ حُقُوقِهِمْ وَكَفِّ الْمَوْئِنَةِ عَنْهُمْ ،
نَمَتْ وَرَبَّتْ ، وَصَلَحَتْ بِهِ الْعَامَّةُ ، وَتَرَيْنَتْ بِهِ
الْوَلَاةَ ، وَطَابَ بِهِ الزَّمَانُ ، وَاعْتُقِدَ فِيهِ الْعِزُّ وَالْمَنْفَعَةُ ،
فَلْيَكُنْ كَنْزُ خَزَائِنِكَ تَفْرِيقَ الْأَمْوَالِ فِي عِمَارَةِ
الْأَسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، وَوَفْرٍ مِنْهُ عَلَى أَوْلِيَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
قَبْلَكَ حُقُوقَهُمْ ، وَأَوْفٍ رِعِيَّتِكَ مِنْ ذَلِكَ حِصَصَهُمْ ،

وَتَعَهَّدَ بِمَا يُصْلِحُ أُمُورَهُمْ وَمَعَاشِهِمْ ، فَإِنَّكَ إِذَا
فَعَلْتَ ذَلِكَ قَرَرْتَ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ ، وَاسْتَوْجَبْتَ
الْمَزِيدَ مِنَ اللَّهِ ، وَكُنْتَ بِذَلِكَ عَلَى جَبَايَةِ خَرَاكِ ،
وَجَمَعَ أَمْوَالِ رَعِيَّتِكَ وَعَمَلِكَ أَقْدَرَ ، وَكَانَ الْجَمِيعُ
لِمَا شِئْلَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ وَإِحْسَانِكَ أَسْلَسَ لِبَطَاعَتِكَ ،
وَأَطِيبَ نَفْسًا بِكُلِّ مَا أَرَدْتَ ، فَاجْهَدْ نَفْسَكَ ،
فِيمَا حَدَدْتَ لَكَ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَلْتَعْظُمَ حِسْبَتُكَ
فِيهِ ، فَإِنَّمَا يَبْقَى مِنَ الْمَالِ ، مَا أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ حَقِّهِ ،
وَأَعْرِفْ لِلشَّاكِرِينَ شُكْرَهُمْ ، وَأَثْبِهِمْ عَلَيْهِ ، وَإِيَّاكَ
أَنْ تُنْسِيكَ ، الدُّنْيَا ، وَغُرُورُهَا هَوَلُ الْآخِرَةِ ،
فَتَهَاوَنَ بِمَا يَحِقُّ عَلَيْكَ ، فَإِنَّ التَّهَاوُنَ يُوجِبُ
التَّفْرِيطَ ، وَالتَّفْرِيطَ يُورِثُ الْبَوَارَ ، وَلَيْكُنْ عَمَلُكَ

لِلَّهِ ، وَفِيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَارْجُ الثَّوَابَ ، فَإِنَّ اللَّهَ
قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَأَظْهَرَ لَدَيْكَ
فَضْلَهُ ، فَأَعْتَصِمْ بِالشُّكْرِ ، وَعَلَيْهِ فَاعْتَمِدْ ، يَزِدُّكَ
اللَّهُ خَيْرًا وَإِحْسَانًا ، فَإِنَّ اللَّهَ يُثِيبُ بِقَدْرِ شُكْرِ
الشَّاكِرِينَ ، وَسِيرَةِ الْمُحْسِنِينَ وَقَضَاءِ الْحَقِّ فِيمَا حُمِّلَ
مِنَ النِّعَمِ ، وَالْبَسْ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالْكَرَامَةِ ،
وَلَا تَحْتَقِرَنَّ ذَنْبًا ، وَلَا تُتَمَلِّئَنَّ حَاسِدًا ، وَلَا تَرْحَمَنَّ
فَاجِرًا ، وَلَا تَصِلَنَّ كُفُورًا ، وَلَا تُدَاهِنَنَّ عَدُوًّا ،
وَلَا تُصَدِّقَنَّ نَمَامًا ، وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَارًا ، وَلَا تُوَالِيَنَّ
فَاسِقًا وَلَا تَتَّبِعَنَّ غَاوِيًا ، وَلَا تَحْمَدَنَّ مُرَائِيًا ، وَلَا تَحْقِرَنَّ
إِنْسَانًا ، وَلَا تَرُدَّنَّ سَائِلًا فَقِيرًا ، وَلَا تُجِيبَنَّ بَاطِلًا ،
وَلَا تُلَاحِظَنَّ مُضْحِكًا ، وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا ، وَلَا تُذْهِبَنَّ

فَخَرًّا وَلَا تُظْهِرَنَّ غَضَبًا ، وَلَا تَأْتِينَ بِذَخًا ، وَلَا تَمْشِينَ
مَرَحًا ، وَلَا تَرْكَبَنَّ سَفَهًا ، وَلَا تُفَرِّطَنَّ فِي طَلَبِ
الْآخِرَةِ ، وَلَا تَدْفَعِ الْأَيَّامَ عِيَانًا ، وَلَا تُغْمِضَنَّ عَنِ
الظَّالِمِ رَهْبَةً مِنْهُ ، أَوْ مَخَافَةً ، وَلَا تَطْلُبَنَّ ثَوَابَ
الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَأَكْثِرْ مُشَاوَرَةَ الْفُقَهَاءِ ،
وَأَسْتَعْمِلْ نَفْسَكَ بِالْحِلْمِ ، وَخُذْ عَنْ أَهْلِ التَّجَارِبِ
وَذَوِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ وَالْحِكْمَةِ ، وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي
مَشُورَتِكَ أَهْلَ الدَّقَّةِ وَالْبُخْلِ ، وَلَا تَسْمَعَنَّ لَهُمْ
قَوْلًا ، فَإِنَّ ضَرَرَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ مَنَفَعَتِهِمْ ، وَلَيْسَ
شَيْءٌ أَسْرَعَ فُسَادًا لِمَا اسْتَقْبَلْتَ فِي أَمْرِ رَعِيَّتِكَ
مِنَ الشُّحِّ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ حَرِيصًا ، كُنْتَ
كَثِيرَ الْأَخْذِ ، قَلِيلَ الْعَطِيَّةِ ، وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ

لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا ، فَإِنَّ رَعِيَّتَكَ إِنَّمَا
تَعْتَقِدُ عَلَى مَحَبَّتِكَ بِأَكْفَ عَنْ أُمُورِهِمْ وَتَرْكُ
الْجُورِ عَلَيْهِمْ ، وَيَدُومُ صَفَاءُ أَوْلِيَائِكَ لَكَ بِالْإِفْضَالِ
عَلَيْهِمْ وَحُسْنِ الْعِطِيَّةِ لَهُمْ ، فَاجْتَنِبِ الشُّحَّ ، وَاعْلَمْ
أَنَّهُ أَوَّلُ مَا عَصَى بِهِ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ ، وَأَنَّ الْعَاصِيَ
بِمَنْزِلَةِ خِزْيٍ ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (وَمَنْ يُوقِ
شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) فَسَهِّلْ طَرِيقَ
الْجُودِ بِالْحَقِّ وَاجْعَلْ لِلْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ مِنْ نِيَّتِكَ حَظًّا
وَنَصِيبًا ، وَأَيُّقِنْ أَنَّ الْجُودَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ
فَاعْدِدْهُ لِنَفْسِكَ خُلُقًا ، وَارْضَ بِهِ عَمَلًا وَمَذْهَبًا ،
وَتَفَقَّدْ أُمُورَ الْجُنْدِ فِي دَوَائِينِهِمْ ، وَمَكَاتِبِهِمْ ،
وَأَذِرْ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ ، وَوَسَّعْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ

لِيُذْهِبَ بِذَلِكَ اللَّهُ فَاقْتَهُمْ ، وَيُقَوِّمَ لَكَ أَمْرَهُمْ ،
وَيَزِيدَ بِهِ قُلُوبَهُمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرِكَ ، خُلُوصًا
وَانْشِرَاحًا ، وَحَسْبُ ذِي سُلْطَانٍ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ
يَكُونَ عَلَى جُنْدِهِ وَرَعِيَّتِهِ ، رَحْمَةً فِي عَدْلِهِ وَحَيْطَةً
وَإِنْصَافِهِ وَعِنَايَتِهِ ، وَشَفَقَتِهِ وَبِرِّهِ وَتَوْسِعَتِهِ ، فَرَائِلُ
مَكْرُوهَةٍ إِحْدَى الْبَلِيَّتَيْنِ ، بِاسْتِشْعَارِ تَكْمِلَةِ الْبَابِ
الْآخِرِ وَلُزُومِ الْعَمَلِ بِهِ تَلَقَّ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ نَجَاحًا
وَصَلَاحًا وَفَلَاحًا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْقَضَاءَ مِنَ اللَّهِ ، بِالْمَكَانِ الَّذِي لَيْسَ
مِثْلُهُ شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ ، لِأَنَّهُ مِيزَانُ اللَّهِ الَّذِي
تَعْتَدِلُ عَلَيْهِ الْأَحْوَالُ فِي الْأَرْضِ ، وَبِإِقَامَةِ الْعَدْلِ
فِي الْقَضَاءِ وَالْعَمَلِ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ ، وَتُؤَمِّنُ السُّبُلُ ،

وَيَنْتَصِفُ الْمَظْلُومُ ، وَيَأْخُذُ النَّاسُ حُقُوقَهُمْ ،
وَتَحْسُنُ الْمَعِيشَةُ ، وَيُؤَدَّى حَقُّ الطَّائِعَةِ وَيَرْزُقُ
اللَّهُ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ ، وَيَقُومُ الدِّينُ ، وَتَجْرِي
السُّنَنُ وَالشَّرَائِعُ ، وَعَلَى مَجَارِيهَا يُنْتَجَزُ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ
فِي الْقَضَاءِ ، وَاشْتَدَّ فِي أَمْرِ اللَّهِ ، وَتَوَرَّعَ عَنِ النَّطْفِ
وَأَمَضَ لِإِقَامَةِ الْحُدُودِ ، وَأَقْلَلَ الْعَجَلَةَ ، وَابْعَدَ مِنَ
الضَّجَرِ وَالْقَلَقِ ، وَاقْنَعَ بِالْقِسْمِ ، وَلَتَسْكُنَ رِيحُكَ ،
وَيَقْرُ جَدُّكَ ، وَانْتَفَعَ بِتَجَرِبَتِكَ ، وَانْتَبَهَ فِي صَمَتِكَ ،
وَاسْتَدَّ فِي مَنْطِقِكَ ، وَأَنْصَفَ الْخُصَمَ ، وَقَفَ عِنْدَ
الشُّبْهَةِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْحُجَّةِ ، وَلَا يَأْخُذُكَ فِي أَحَدٍ
مِنْ رَعِيَّتِكَ مُحَابَاةٌ وَلَا مُجَامَلَةٌ ، وَلَا لَوْمٌ لِأَيِّمٍ ،
وَتَثَبَّتْ وَتَأَنَّنَ ، وَرَاقِبْ وَانْظُرْ ، وَتَدَبَّرْ وَتَفَكَّرْ ،

واعتبر وتواضع لرَّبِّكَ ، وارأف بجميع الرعية ،
وسلط الحق على نفسك ولا تسرعن إلى سفك
دم فإن الدماء من الله بمكان عظيم انتهاباً لها
بغير حقها ، وانظر هذا الخراج الذي استقامت
عليه الرعية ، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعاً
ولأهله سعة ومنعة ، ولعدوّه وعدوهم كبتاً وغيظاً ،
ولأهل الكفر من معاہداتهم ذلاً وصغاراً فوزعهُ
بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية ، والعموم
فيه ، ولا تدفعن منه شيئاً عن شريفٍ لشرفه ،
وعن غنيٍ لغناه ، ولا عن كاتبٍ لك ، ولا أحدٍ
من خاصتك ، فلا تأخذن منه ، فوق الاحتمال
له ، ولا تُكلفن أمراً فيه شطط . واحمل الناس

كُلَّهُمْ عَلَى مُرِّ الْحَقِّ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ لِأُلْفَتِهِمْ ،
 وَالزَّمُ لِرِضَى الْعَامَّةِ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ جُمَلَاتُ بَوَالَيْتِكَ
 خَازِنًا وَحَافِظًا ، وَرَاعِيًا ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ أَهْلُ عَمَلِكَ
 رَعِيَّتَكَ ، لِأَنَّكَ رَاعِيهِمْ ، وَقِيَمُهُمْ ، تَأْخُذُ مِنْهُمْ
 مَا أَعْطَوْكَ ، مِنْ عَفْوِهِمْ وَمَقْدِرَتِهِمْ ، وَتُنْفِقُهُ فِي
 قَوَامِ أَمْرِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ ، وَتَقْوِيمِ أَوْدِهِمْ ، فَاسْتَعْمِلْ
 عَلَيْهِمْ فِي كَوْرِ عَمَلِكَ ، ذَوِي الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّجَرِبَةِ
 وَالْخَبَرَةِ بِالْعَمَلِ ، وَالْعِلْمِ بِالسِّيَاسَةِ وَالْعَفَافِ ، وَوَسَّعْ
 عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْحُقُوقِ اللَّازِمَةِ لَكَ
 فِيمَا تَقَلَّدْتَ ، وَأُسْنَدَ إِلَيْكَ ، وَلَا يَشْغَلَنَّ عَنْهُ
 شَاغِلٌ ، وَلَا يَصْرِفَنَّ عَنْهُ صَارِفٌ ، فَإِنَّكَ مَتَى
 آثَرْتَهُ ، وَقَمْتَ فِيهِ بِالْوَاجِبِ ، اسْتَدْعَيْتَ بِهِ زِيَادَةَ

النَّعْمَةُ مِنْ رَبِّكَ ، وَحُسْنَ الْأَحْدُوثَةِ فِي عَمَلِكَ ،
 وَاسْتَجْرَرْتَ بِهِ الْمَحَبَّةَ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، وَأَعْنَتْ عَلَى
 الصَّلَاحِ ، فَدَرَّتْ الْخَيْرَاتُ بِبَيْدِكَ ، وَفَشَتْ الْعِمَارَةُ
 بِنَاحِيَّتِكَ ، وَظَهَرَ الْخُصْبُ فِي كُورِكَ ، وَكَثُرَ خَرَاجُكَ ،
 وَتَوَفَّرَتْ أَمْوَالُكَ ، وَقَوِيَتْ بِذَلِكَ عَلَى ارْتِبَاطِ
 جُنْدِكَ ، وَإِرْضَاءِ الْعَامَّةِ ، بِإِفَاضَةِ الْعَطَاءِ فِيهِمْ مِنْ
 نَفْسِكَ وَكَُنْتَ مَحْمُودَ السِّيَاسَةِ ، مَرْضِيَّ الْعَدْلِ فِي
 ذَلِكَ عِنْدَ عَدُوِّكَ ، وَكَُنْتَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ذَا
 عَدْلٍ وَقُوَّةٍ ، وَآلَةٍ وَعُدَّةٍ ، فَنَافِسٌ فِي هَذَا ،
 وَلَا تُقَدِّمُ عَلَيْهِ شَيْئًا ، تَحْمَدُ مَغَبَّةَ أَمْرِكَ ،
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَاجْعَلْ فِي كُلِّ كُورَةٍ مِنْ عَمَلِكَ أَمِينًا ،
 يُخْبِرُكَ أَخْبَارَ عُمَّالِكَ ، وَيَكْتُبُ إِلَيْكَ بِسِيرَتِهِمْ

وَأَعْمَالِهِمْ ، حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ فِي عَمَلِهِ ،
مُعَايِنٌ لِأَمْرِهِ كُلِّهِ ، وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرَهُ بِأَمْرٍ ،
فَانْظُرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتَ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنْ رَأَيْتَ
السَّلَامَةَ فِيهِ وَالْعَافِيَةَ وَرَجَوْتَ فِيهِ حُسْنَ الدِّفَاعِ
وَالنُّصْحِ وَالصُّنْعِ فَأْمُضِهِ ، وَإِلَّا فَتَوَقَّفْ عَنْهُ ، وَرَاجِعْ
أَهْلَ الْبَصَرِ وَالْعِلْمِ ، ثُمَّ خُذْ فِيهِ عُدَّتَهُ ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا
نَظَرَ الرَّجُلُ فِي أَمْرٍ مِنْ أَمْرِهِ ، قَدْ وَاثَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى ،
فَقَوَّاهُ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْجَبَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِهِ
أَهْلَكَهُ ، وَتَقِضَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ ، فَاسْتَعْمِلِ الْحَزْمَ فِي
كُلِّ مَا أَرَدْتَ وَبَاشِرْهُ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ بِالْقُوَّةِ ، وَأَكْثِرْ
اسْتِخَارَةَ رَبِّكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ ، وَافْرَغْ مِنْ عَمَلِ
يَوْمِكَ ، وَلَا تُؤَخِّرْهُ لِعَدِكَ ، وَأَكْثِرْ مُبَاشَرَتَهُ بِنَفْسِكَ

فَإِنَّ لِنَدِّ أُمُورًا وَحَوَادِثَ تُلْهِيكَ عَنْ عَمَلِ يَوْمِكَ
الَّذِي أَخَّرْتَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَوْمَ إِذَا مَضَى ذَهَبَ
بِمَا فِيهِ ، وَإِذَا أَخَّرْتَ عَمَلَهُ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ أَمْرُ يَوْمَيْنِ
فَشَغَلَكَ ذَلِكَ حَتَّى تُعْرِضَ عَنْهُ ، فَإِذَا أَمْضَيْتَ
لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ ، أَرَحْتَ نَفْسَكَ وَبَدَنَكَ ،
وَأَحْكَمْتَ أُمُورَ سُلْطَانِكَ ، وَانْظُرْ أَحْرَارَ النَّاسِ
وَذَوِي الشَّرَفِ مِنْهُمْ ، ثُمَّ اسْتَيْقِنْ صَفَاءَ طَوَيْتِهِمْ
وَتَهْذِيبَ مَوَدَّتِهِمْ لَكَ ، وَمُظَاهَرَتِهِمْ بِالنُّصْحِ ،
وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى أَمْرِكَ ، فَاسْتَخْلِصْهُمْ ، وَأَحْسِنْ إِلَيْهِمْ ،
وَتَعَاهَدْ أَهْلَ الْبُيُوتَاتِ مِمَّنْ قَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْحَاجَةُ ؛
فَاحْتَمِلْ مَوْؤَنَتَهُمْ وَأَصْلِحْ حَالَهُمْ حَتَّى لَا يَجِدُوا
خَلَّتِهِمْ مَسًّا ؛ وَأَفْرِدْ نَفْسَكَ لِلنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْفُقَرَاءِ

وَالْمَسَاكِينَ ؛ وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى رَفْعِ مَظْلَمَةٍ إِلَيْكَ
وَالْمُحْتَقَرُ الَّذِي لَا عِلْمَ لَهُ بِطَلَبِ حَقِّهِ ، فَاسْأَلْ
عَنْهُ أَحْفَى مَسْأَلَةً وَوَكِّلْ بِأَمْثَالِهِ أَهْلَ الصَّلَاحِ مِنْ
رَعِيَّتِكَ ، وَمُرَّهُمْ بِرَفْعِ حَوَائِجِهِمْ وَحَالَاتِهِمْ إِلَيْكَ ،
لِتَنْظُرَ فِيهَا بِمَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَهُمْ ، وَتَعَاهَدَ
ذَوِي الْبِئْسَاءِ وَيَتَامَاهُمْ وَأَرَامِلَهُمْ ، وَاجْعَلْ لَهُمْ أَرْزَاقًا
مِنْ يَيْتِ الْمَالِ اقْتِدَاءً بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّهُ اللَّهُ فِي
الْعُطْفِ عَلَيْهِمْ وَالصَّلَةِ لَهُمْ ، لِيُصْلِحَ اللَّهُ بِذَلِكَ
عَيْشَهُمْ ، وَيَرْزُقَكَ بِهِ بَرَكَهَ وَزِيَادَةً ، وَأَجْرَ لِلْأَمْرَاءِ
مِنْ يَيْتِ الْمَالِ وَقَدِّمْ حِمْلَةَ الْقُرْآنِ مِنْهُمْ ، وَالْحَافِظِينَ
لَا كَثَرِهِ فِي الْجَرَايَةِ عَلَى غَيْرِهِمْ ، وَأَنْصِبْ لِمَرْضَى
الْمُسْلِمِينَ دُورًا تُؤْوِيهِمْ ، وَقُورًا يَرْفُقُونَ بِهِمْ ،

وَأَطِبَّاءَ يُعَالِجُونَ أَسْقَامَهُمْ ، وَأَسْعِفُهُمْ بِشَهَوَاتِهِمْ مَا لَمْ
يُودَّ ذَلِكَ إِلَى سَرَفٍ فِي بَيْتِ الْمَالِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ
إِذَا أُعْطُوا حُقُوقَهُمْ ، وَأَفْضَلَ أَمَانِيهِمْ ، لَمْ يُرْضِهِمْ
ذَلِكَ ، وَلَمْ تَطِبْ أَنْفُسُهُمْ دُونَ رَفْعِ حَوَائِجِهِمْ إِلَى
وُلَايَتِهِمْ ، طَمَعًا فِي نَيْلِ الزِّيَادَةِ ، وَفَضْلِ الرَّفْقِ مِنْهُمْ ،
وَرُبَّمَا بَرِمَ الْمُتَصَفِّحُ لِأُمُورِ النَّاسِ لِكَثْرَةِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ
وَيَشْغَلُ فِكْرَهُ وَذَهْنَهُ ، وَمِنْهَا مَا يَنَالُهُ بِهِ مَوْؤُونَةٌ
وَمَشَقَّةٌ ، وَلَيْسَ مَنْ يَرْغَبُ فِي الْعَدْلِ وَيَعْرِفُ مُحَاسِنَ
أُمُورِهِ فِي الْعَاجِلِ ، وَفَضْلَ ثَوَابِ الْآجِلِ ، كَالَّذِي
يَسْتَقْبِلُ مَا يُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ ، وَيَلْتَمِسُ رَحْمَتَهُ بِهِ ،
وَأَكْثَرَ الْإِذْنِ لِلنَّاسِ عَلَيْكَ ، وَأَبْرَزَ لَهُمْ وَجْهَكَ ،

وَسَكَنَ لَهُمْ أَحْرَاسَكَ ، وَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ،
وَأُظْهِرْ لَهُمْ بِشْرَكَ ، وَلِنْ لَهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ وَالْمَنْطِقِ
وَأَعْطِفْ عَلَيْهِمْ بِجُودِكَ وَفَضْلِكَ ، وَإِذَا أُعْطِيتَ
فَاعْطِ بِسَمَاحَةٍ وَطِيبِ نَفْسٍ ، وَالتَّمْسِ الصَّنِيعَةَ
وَالْأَجَرَ ، غَيْرَ مُكْدِرٍ وَلَا مَنَّانٍ ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى
ذَلِكَ تِجَارَةٌ مُرَبِّحَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَاعْتَبِرْ بِمَا تَرَى
مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ مَضَى مِنْ قَبْلِكَ مِنْ أَهْلِ
السُّلْطَانِ وَالرِّيَّاسَةِ ، فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ وَالْأُمَمِ
الْبَائِدَةِ ، ثُمَّ اعْتَصِمْ فِي أَحْوَالِكَ كُلِّهَا بِأَمْرِ اللَّهِ ،
وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مُحَبَّتِهِ ، وَالْعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِ وَسُنَّتِهِ ،
وِإِقَامَةِ دِينِهِ وَكِتَابِهِ ، وَاجْتَنِبْ مَا فَارَقَ ذَلِكَ
وَخَالَفَهُ ، وَدَعَا إِلَى سَخَطِ اللَّهِ ، وَاعْرِفْ مَا تَجْمَعُ

عُمَّالِكَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَيُنْفِقُونَ مِنْهَا ، وَلَا تَجْمَعُ
 حَرَامًا ، وَلَا تُنْفِقُ إِسْرَافًا ، وَأَكْثَرُ مُجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ
 وَمُشَاوَرَتِهِمْ وَمُخَالَطَتِهِمْ ، وَلْيَكُنْ هَوَاكَ اتِّبَاعَ السُّنَنِ
 وَإِقَامَتَهَا ، وَإِثَارَ مَكَارِمِ الْأُمُورِ وَمَعَالِيهَا ، وَلْيَكُنْ
 أَكْرَمُ دُخْلَائِكَ وَخَاصَّتِكَ عَلَيْكَ مَنْ إِذَا رَأَى عَيْبًا
 فِيكَ لَمْ تَمْنَعْهُ هَيْبَتِكَ مِنْ إِنْهَاءِ ذَلِكَ إِلَيْكَ ،
 فِي سِرٍّ ، وَإِعْلَامِكَ مَا فِيهِ مِنَ النَّقْصِ ، فَإِنَّ
 أَوْلِيَّكَ أَنْصَحُ أَوْلِيَائِكَ وَمُظَاهِرِيكَ ، وَانْظُرْ عُمَّالَكَ
 الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ ، وَكُتَابَكَ فَوْقَ لِكُلِّ رَجُلٍ
 مِنْهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَقْتًا يَدْخُلُ عَلَيْكَ فِيهِ بِكُتُبِهِ
 وَمُؤَامَرَتِهِ ، وَمَا عِنْدَهُ مِنْ حَوَائِجِ عُمَّالِكَ وَأَمْرِ
 كُورِكَ وَرَعِيَّتِكَ ، ثُمَّ فَرِّغْ لِمَا يُورِدُهُ عَلَيْكَ مِنْ

ذَلِكَ سَمِعَكَ وَبَصَرَكَ وَفَهَمَكَ وَعَقْلَكَ ، وَكَرَّرَ
 النَّظَرَ إِلَيْهِ ، وَالتَّذْيِيرَ لَهُ ، فَمَا كَانَ مُوَافِقًا لِلْحَزْمِ
 وَالْحَقِّ ، فَأَمَضِهِ وَاسْتَخَرِ اللَّهَ فِيهِ ، وَمَا كَانَ مُخَالِفًا
 لَذَلِكَ فَاصْرِفْهُ إِلَى التَّثَبُّتِ فِيهِ ، وَالسَّأَلَةِ عَنْهُمْ ،
 وَلَا تَمْنُنْ عَلَى رَعِيَّتِكَ وَلَا عَلَى غَيْرِهِمْ بِمَعْرُوفٍ
 تَأْتِيهِ إِلَيْهِمْ ، وَلَا تَقْبَلْ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ
 وَالِاسْتِقَامَةَ وَالْعَوْنَ فِي أُمُورِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا
 تَضَعَنَّ الْمَعْرُوفَ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ ، وَتَفْهَمَنَّ كِتَابِي إِلَيْكَ
 وَأَكْثَرَ النَّظَرِ فِيهِ ، وَالْعَمَلَ بِهِ ، وَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ عَلَى
 جَمِيعِ أُمُورِكَ وَاسْتَخِرْهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّالِحِ
 وَأَهْلِهِ ، وَلَيَكُنْ أَعْظَمُ سِيرَتِكَ ، وَأَفْضَلُ رَغْبَتِكَ ،
 مَا كَانَ لِلَّهِ رِضًا ، وَلِدِينِهِ نِظَامًا ، وَلِأَهْلِهِ عِزًّا

وَتَمَكِّنَا ، وَلِلذِّمَّةِ وَالْمِلَّةِ عَدْلًا وَصَلَاحًا ، وَأَنَا أَسْأَلُ
 اللَّهَ أَنْ يُحْسِنَ عَوْنَكَ وَتَوْفِيقَكَ ، وَرُشْدَكَ وَكَلَامَكَ ،
 وَأَنْ يُنْزِلَ عَلَيْكَ فَضْلَهُ وَرَحْمَتَهُ بِتَمَامِ فَضْلِهِ
 عَلَيْكَ ، وَكَرَامَتِهِ لَكَ ، حَتَّى يَجْعَلَكَ أَفْضَلَ أَمْثَالِكَ
 نَصِيبًا ، وَأَوْفَرَهُمْ حَظًّا ، وَأَسْنَاهُمْ ذِكْرًا وَأَمْرًا ،
 وَأَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكَ وَمَنْ نَاوَأَكَ ، وَبَغَى عَلَيْكَ ،
 وَيَرْزُقَكَ مِنْ رِعِيَّتِكَ الْعَافِيَةَ ، وَيَحْجُزَ الشَّيْطَانَ
 عَنْكَ وَوَسَاوِسَهُ ، حَتَّى يَسْتَعْلِيَ أَمْرُكَ بِالْعِزِّ وَالْقُوَّةِ
 وَالتَّوْفِيقِ ، إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ .



وَإِلَيْكَ مَا كَتَبَهُ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ فِي الْبُخْلِ
وَهِيَ مِنْ عَيُونِ كِتَابَاتِ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الزَّاهِرِ ،
قَالَ : —

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَصْلَحَ اللَّهُ أَمْرَكُمْ ،
وَجَمَعَ شَمْلَكُمْ ، وَعَلَّمَكُمْ الْخَيْرَ ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ
أَهْلِهِ . قَالَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ : يَا مَعْشَرَ بَنِي تَمِيمٍ ،
لَا تُسْرِعُوا إِلَى الْفِتْنَةِ ، فَإِنَّ أَسْرَعَ النَّاسِ إِلَى الْقِتَالِ
أَقْلَهُمْ حَيَاءً مِنَ الْفِرَارِ . وَقَدْ كَانُوا يَقُولُونَ : إِذَا
أَرَدْتَ أَنْ تَرَى الْعُيُوبَ جَمَّةً فَتَأَمَّلْ عَيَّابًا فَإِنَّهُ إِنَّمَا
يَعِيبُ النَّاسَ بِفَضْلِ مَا فِيهِ مِنَ الْعَيْبِ ، وَمَنْ أَعْيَبَ
الْعَيْبِ أَنْ تَعِيبَ مَا لَيْسَ بِعَيْبٍ . وَقَبِيحٌ أَنْ تَنْهَى
مُرْشِدًا وَأَنْ تُعْرِى بِمُشْفِقٍ . وَمَا أَرَدْنَا بِمَا قُلْنَا إِلَّا

هَدَايَتِكُمْ ، وَتَقْوِيَتِكُمْ ، وَإِصْلَاحَ فَاسِدِكُمْ ، وَإِبْقَاءَ
النِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ . وَمَا أَخْطَأْنَا سَبِيلَ حُسْنِ النِّيَّةِ فِيمَا
يَبْنِيْنَا وَيُبْنِيكُمْ . وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّا مَا أَوْصَيْنَاكُمْ إِلَّا
بِمَا اخْتَرْنَاهُ لَكُمْ ، وَلِأَنْفُسِنَا قَبْلَكُمْ ، وَشَهْرِنَا بِهِ
فِي الْآفَاقِ دُونَكُمْ .

ثُمَّ تَقُولُ فِي ذَلِكَ مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ لِقَوَّيْهِ :
(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ
أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا
بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) . فَمَا كَانَ أَحَقَّنَا
مِنْكُمْ فِي حُرْمَتِنَا بِكُمْ أَنْ تَرْعَوْا حَقَّ قَصْدِنَا بِذَلِكَ
إِلَيْكُمْ ! عَلَى مَا رَعَيْنَاهُ مِنْ وَاجِبِ حَقِّكُمْ ! فَلَا
الْعُذْرَ الْمَبْسُوطَ بَلَّغْتُمْ ، وَلَا بِوَاجِبِ الْحُرْمَةِ قُتُّمُ .

وَلَوْ كَانَ ذِكْرُ الْعُيُوبِ يُرَادُّ بِهِ فَنَحْرُهُ لَرَأَيْنَا فِي أَنْفُسِنَا
مِنْ ذَلِكَ شُغْلًا .

عَبْتُمُونِي بِقَوْلِي لِخَادِمِي : أَجِيدِي الْعَجِينَ فَهُوَ أَطْيَبُ
لِطَعْمِهِ وَأَزِيدُ فِي رَيْعِهِ ^(١) . وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَمْلِكُوا ^(٢) الْعَجِينَ فَإِنَّهُ أَحَدُ
الرَّيْعَيْنِ .

وَعَبْتُمُونِي حِينَ خَتَمْتُ عَلَى مَا فِيهِ شَيْءٌ ثَمِينٌ
مِنْ فَاكِهَةٍ رَطْبَةٍ نَقِيَّةٍ وَمِنْ رَطْبَةٍ غَرِيْبَةٍ عَلَى عَبْدٍ
نِهِمٍ وَصَبِيٍّ جَشِيعٍ وَأَمَةٍ لَكُوعٍ ^(٣) وَزَوْجَةٍ مُضِيعَةٍ .
وَعَبْتُمُونِي بِإِخْلَافِي وَقَدْ خَتَمَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ عَلَى

(١) الرِّيع : النِّماء والزيادة (٢) أَمْلَكَ الْعَجِينَ إِنْعَامٌ عَجَنَهُ

(٣) اللَّكُوع : الْحَقَاء

مَزُودٍ سَوِيقٍ^(١) وَعَلَى كَيْسٍ فَارِغٍ . وَقَالَ : طِينَةٌ
 خَيْرٌ مِنْ طَيَّةٍ . فَأَنْسَكْتُمْ عَمَّنْ خَتَمَ عَلَى لَا شَيْءٍ .
 وَعَبِئْتُمْ مَنْ خَتَمَ عَلَى شَيْءٍ . وَعَبِئْتُمُونِي أَنْ قُلْتُ
 لِلْغُلَامِ : إِذَا زِدْتَ فِي الْمَرْقِ فَزِدْ فِي الْإِنْضَاجِ
 لِيَجْتَمَعَ مَعَ التَّادِيمِ بِاللَّحْمِ طِيبُ الْمَرْقِ

وَعَبِئْتُمُونِي بِخَصِيفِ^(٢) النَّعْلِ وَبِتَصْدِيرِ^(٣) الْقَمِيصِ
 وَحِينَ زَعَمْتُ أَنْ الْمَخْصُوفَةَ مِنَ النَّعْلِ أَبْقَى وَأَقْوَى
 وَأَشْبَهُ بِالشَّدِّ ، وَأَنَّ التَّرْقِيعَ مِنَ الْحَزْمِ وَالتَّفْرِيطَ
 مِنَ التَّضْيِيعِ . وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ ، وَيَرْقَعُ ثَوْبَهُ ، وَيَقُولُ : لَوْ

(١) المزود : وعاء الزاد والسويق : طعام يتخذ من الحنطة أو الشعير

(٢) خصف النعل : خرزها (٣) تصدير القميص : أن يجعل

أَهْدَى إِلَى ذِرَاعٍ لَقَبْتُ ، وَلَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ
لَأَجَبْتُ . وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ : لَا جَدِيدَ لِمَنْ لَمْ
يَلْبَسِ الْخَلْقَ . وَبَعَثَ زِيَادُ رَجُلًا يَرْتَادُ لَهُ مُحَدَّثًا
وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ عَاقِلًا فَاتَّاهُ بِهِ مُوَافِقًا .
فَقَالَ لَهُ : أَكُنْتَ بِهِ ذَا مَعْرِفَةٍ ؟ قَالَ : لَا ،
وَلَكِنِّي رَأَيْتُهُ فِي يَوْمٍ قَائِظٍ يَلْبَسُ خَلْقًا وَيَلْبَسُ
النَّاسُ جَدِيدًا ، فَتَفَرَّسْتُ فِيهِ الْعَقْلَ وَالْأَدَبَ . وَقَدْ
عَلِمْتُ أَنَّ الْخَلْقَ فِي مَوْضِعِهِ مِثْلُ الْجَدِيدِ فِي مَوْضِعِهِ .
وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . وَسَمَّا بِهِ مَوْضِعًا
كَمَا جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ زَمَانٍ رَجَالًا ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ
مَقَالًا . وَقَدْ أَحْيَا اللَّهُ بِالسُّمِّ وَأَمَاتَ بِالْدَّوَاءِ وَأَغَصَّ
بِالْمَاءِ . وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْإِصْلَاحَ أَحَدُ الْكَاسِبِينَ ،

كَمَا زَعَمُوا أَنَّ قِلَّةَ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارِينِ . وَقَدْ جَبَرَ
الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ يَدَ عَزْرٍ وَأَمَرَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ
بِفَرْكِ النَّعْلِ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :
مَنْ أَكَلَ بَيْضَةً فَقَدْ أَكَلَ دَجَاجَةً . وَلَبَسَ سَالِمُ
بْنُ عَبْدِ اللَّهِ جِلْدَ أُخْصِيَةٍ . وَقَالَ رَجُلًا لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ :
أُرِيدُ أَنْ أَهْدِيَ إِلَيْكَ دَجَاجَةً . فَقَالَ : إِنْ كَانَ
لَا بُدَّ فَاجْعَلْهَا يَبُوضًا .

وَعَبْتُمُونِي حِينَ قُلْتُ : مَنْ لَمْ يَعْرِفْ
مَوَاضِعَ السَّرَفِ فِي الْمَوْجُودِ الرَّخِيسِ لَمْ يَعْرِفْ
مَوَاضِعَ الْاِقْتِصَادِ فِي الْمُتَمَتِّعِ الْعَالِي . وَلَقَدْ أُوتِيتُ
بِمَاءٍ لِلْوُضُوءِ عَلَى مَبْلَغِ الْكِفَايَةِ . وَأَشَدَّ مِنْ
الْكِفَايَةِ ، فَلَمَّا صِرْتُ إِلَى تَفْرِيقِ أَجْزَائِهِ عَلَى

الْأَعْضَاءَ وَإِلَى التَّوْفِيرِ عَلَيْهَا مِنْ وَضِيعَةٍ ^(١) الْمَاءِ :
 وَجَدْتُ فِي الْأَعْضَاءِ فَضْلًا عَنِ الْمَاءِ ، فَعَلِمْتُ أَنَّ
 لَوْ كُنْتُ سَلَكْتُ الْاِقْتِصَادَ فِي أَوَائِلِهِ لَخَرَجَ آخِرُهُ
 عَلَى كِفَايَةِ أَوَّلِهِ ، وَلَكَانَ نَصِيبُ الْأَوَّلِ كَنَصِيبِ
 الْآخِرِ ، فَعِبْتُمُونِي بِذَلِكَ وَشَتَّعْتُمْ عَلَيَّ ؛ وَقَدْ قَالَ
 الْحَسَنُ وَذَكَرَ السَّرَفَ : أَمَّا إِنَّهُ لَيَكُونُ فِي الْمَاءِ
 وَالْكَلاَّ فَلَمْ يَرْضَ بِذَكَرِ الْمَاءِ حَتَّى أُرْدَفَهُ الْكَلاَّ .
 وَعِبْتُمُونِي . أَنَّ قُلْتُ : لَا يَغْتَرَّنَ أَحَدُكُمْ بِطُولِ
 عُمرِهِ وَتَقْوَيْسِ ظَهْرِهِ وَرِقَّةِ عَظْمِهِ وَوَهْنِ قُوَّتِهِ ،
 وَأَنْ يَرَى نَحْوَهُ أَكْثَرَ ذُرِّيَّتِهِ فَيَدْعُوهُ ذَلِكَ إِلَى
 إِخْرَاجِ مَالِهِ مِنْ يَدِهِ وَتَحْوِيلِهِ إِلَى مَلِكٍ غَيْرِهِ ، وَإِلَى

(١) الوضعية هنا : النقص

تَحْكِيمِ السَّرَفِ فِيهِ ، وَتَسْلِيْطِ الشَّهَوَاتِ عَلَيْهِ ،
 فَلَعَلَّهُ يَكُونُ مُعَمَّرًا وَهُوَ لَا يَدْرِي ، وَمَمْدُودًا لَهُ
 فِي السَّنِّ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ ، وَلَعَلَّهُ أَنْ يُرْزَقَ الْوَلَدَ
 عَلَى الْيَأْسِ وَيَحْدُثَ عَلَيْهِ مِنْ آفَاتِ الدَّهْرِ مَا لَا يَخْطُرُ
 عَلَى بَالٍ وَلَا يُدْرِكُهُ عَقْلٌ ، فَيَسْتَرِدُّهُ مِمَّنْ لَا يَرُدُّهُ
 وَيُظْهِرَ الشَّكْوَى إِلَى مَا لَا يَرْجُوهُ أَصْعَبَ مَا كَانَ
 عَلَيْهِ الطَّلَبُ وَأَقْبَحَ مَا كَانَ بِهِ يَطْلُبُ ، فَعِبْتُمُونِي
 بِذَلِكَ ؛ وَقَدْ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : « إِعْمَلْ لِدُنْيَاكَ
 كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا ، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ
 تَمُوتُ غَدًا » .

وَعِبْتُمُونِي بِأَنْ قُلْتُ : بِأَنَّ السَّرَفَ وَالتَّبْذِيرَ إِلَى
 مَالِ الْمَوَارِيثِ وَأَمْوَالِ الْمُلُوكِ ، وَأَنَّ الْحِفْظَ لِلْمَالِ

الْمُكْتَسَبِ ، وَالْغِنَى الْمُجْتَلَبِ وَإِلَى مَنْ لَا يُعَرِّضُ فِيهِ
 بِذَهَابِ الدِّينِ ، وَاهْتِضَامِ الْعَرِضِ ، وَلَنْصَبِ الْبَدَنِ ،
 وَاهْتِمَامِ الْقَلْبِ أَسْرَعُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْسِبْ نَفَقَتَهُ لَمْ
 يَحْسِبْ دَخْلَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْسِبِ الدَّخْلَ فَقَدْ أَضَاعَ
 الْأَصْلَ . وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ لِلْغِنَى قَدْرَهُ فَقَدْ أُوزِنَ
 بِالْفَقْرِ ، وَطَابَ نَفْسًا بِالذُّلِّ .

وَعِبْتُمُونِي بِأَنْ قُلْتُ : إِنَّ كَسْبَ الْحَلَالِ يَضْمَنُ
 الْإِتْقَانَ فِي الْحَلَالِ . وَإِنَّ الْخِلِيقَ يَنْزِعُ إِلَى الْخِلِيقِ ،
 وَإِنَّ الطَّيِّبَ يَدْعُو إِلَى الطَّيِّبِ . وَإِنَّ الْإِتْقَانَ فِي
 الْهَوَايِ حِجَابٌ دُونَ الْهُدَى ، فَعَبِثْتُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ .
 وَقَدْ قَالَ مُعَاوِيَةُ : لَمْ أَرْ تَبْذِيرًا قَطُّ إِلَّا وَإِلَى جَنْبِهِ
 حَقٌّ مُضِيعٌ . وَقَدْ قَالَ الْحَسَنُ : إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَعْرِفُوا

مِنْ أَيْنَ أَصَابَ الرَّجُلُ مَالَهُ فَانْظُرُوا فِيمَاذَا يُنْفِقُهُ ، فَإِنَّ
 الْخَبِيثَ إِنَّمَا يُنْفِقُ فِي السَّرَفِ . وَقُلْتُ لَكُمْ بِالشَّقَةِ
 عَلَيْكُمْ وَحُسْنِ النَّظَرِ مِنِّي لَكُمْ وَأَنْتُمْ فِي دَارِ
 الْآفَاتِ ، وَالْحَوَائِجِ غَيْرِ مَأْمُونَاتٍ : فَإِنْ أَحَاطَتْ بِمَالِ
 أَحَدِكُمْ آفَةٌ لَمْ يَرْجِعْ إِلَّا إِلَى نَفْسِهِ . فَاحْذَرُوا النَّقْمَ
 بِاخْتِلَافِ الْأَمِكِنَةِ فَإِنَّ الْبَلِيَّةَ لَا تَجْرِي فِي الْجَمِيعِ
 إِلَّا بِمَوْتِ الْجَمِيعِ .

وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْعَبْدِ
 وَالْأَمَةِ وَالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ : فَرَّقُوا بَيْنَ الْمَنَايَا . وَقَالَ ابْنُ
 سِيرِينَ لِبَعْضِ الْبَحْرِيِّينَ : كَيْفَ تَصْنَعُونَ بِأَمْوَالِكُمْ ؟
 قَالُوا نَفَرِّقُهَا فِي السُّفُنِ فَإِنْ عَطَبَ بَعْضُ سَلَمٍ بَعْضٌ .
 وَلَوْ لَا أَنَّ السَّلَامَةَ أَكْثَرُ مَا حَمَلْنَا أَمْوَالَنَا فِي الْبَحْرِ .

قَالَ ابْنُ سِيرِينَ : « تَحَسَّبَهَا خَرْقَاءُ وَهِيَ صَنَاعٌ ^(١) » .

وَعِبْتُمُونِي بِأَنْ قُلْتُ لَكُمْ عِنْدَ إِشْفَاقِي عَلَيْكُمْ :
 إِنَّ لِلْغَنَى لُسْكَرًا وَلِلْمَالِ لَنَزْوَةً ^(٢) فَمَنْ لَمْ يَحْفَظِ
 الْغَنَى مِنْ سُكْرِهِ فَقَدْ أَضَاعَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَرْتَبِطِ الْمَالُ
 بِخَوْفِ الْفَقْرِ فَقَدْ أَهْمَلَهُ .

فَعِبْتُمُونِي بِذَلِكَ ، وَقَدْ قَالَ زَيْدُ بْنُ جَبَلَةَ : لَيْسَ
 أَحَدٌ أَقْصَرَ عَقْلاً مِنْ غَنِيٍّ أَمِنَ الْفَقْرَ ، وَسُكْرُ الْغَنَى
 أَكْثَرُ مِنْ سُكْرِ الْخَمْرِ . وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ فِي يَحْيَى
 ابْنِ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ :

(١) هذا مثل يضرب لمن تظن به الغفلة وهو فطن يفظ

(٢) النزوة : الثورة أو الوثبة

وَهُوبٌ تِلَادِ الْمَالِ فِيمَا يَنْوِبُهُ

مَنْوَعٌ إِذَا مَا مَنَعُهُ كَانَ أَحْزَمًا

وَعَبْتُمُونِي حِينَ زَعَمْتُمْ أَنِّي أُقَدِّمُ الْمَالَ عَلَى الْعِلْمِ ،
لَإِنَّ الْمَالَ بِهِ يُفَادُ الْعِلْمُ وَبِهِ تَقُومُ النَّفْسُ قَبْلَ أَنْ
تَعْرِفَ فَضْلَ الْعِلْمِ فَهُوَ أَصْلُ وَالْأَصْلُ أَحَقُّ بِالتَّفْضِيلِ
مِنَ الْفَرْعِ ، فَقُلْتُمْ : كَيْفَ هَذَا ؟ وَقَدْ قِيلَ لِرَأْسِ
الْحُكَمَاءِ : الْأَغْنِيَاءُ أَفْضَلُ أَمِ الْعُلَمَاءُ ؟ قَالَ : الْعُلَمَاءُ
قِيلَ لَهُ : فَمَا بَالُ الْعُلَمَاءِ يَأْتُونَ أَبْوَابَ الْأَغْنِيَاءِ
أَكْثَرَ مَا يَأْتِي الْأَغْنِيَاءُ أَبْوَابَ الْعُلَمَاءِ ؟ قَالَ : ذَلِكَ
لِمَعْرِفَةِ الْعُلَمَاءِ بِفَضْلِ الْمَالِ وَجَهْلِ الْأَغْنِيَاءِ بِحَقِّ الْعِلْمِ .
فَقُلْتُ : حَالُهُمَا هِيَ الْقَاضِيَةُ بَيْنَهُمَا . وَكَيْفَ يَسْتَوِي
شَيْءٌ حَاجَةٌ الْعَامَّةِ إِلَيْهِ وَشَيْءٌ يَغْنَى فِيهِ بَعْضُهُمْ عَنْ

بَعْضٍ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُ الْأَغْنِيَاءَ
بِاتِّخَاذِ النِّعَمِ وَالْفُقَرَاءَ بِاتِّخَاذِ الدَّجَاجِ .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إِنِّي لَا بُغِضُ أَهْلَ
بَيْتٍ يُنْفِقُونَ نَفَقَةَ الْأَيَّامِ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ . وَكَانَ
أَبُو الْأَسْوَدِ الدَّوَلِيُّ يَقُولُ لَوْلَدِهِ : إِذَا بَسَطَ اللَّهُ لَكَ
الرِّزْقَ فَابْسُطْ وَإِذَا قَبَضَ فَاقْبِضْ .

وَعَبَّئُمُونِي حِينَ قُلْتُ : فَضْلُ الْغِنَى عَلَى الْقُوَّةِ
إِنَّمَا هُوَ كَفَضْلِ الْآلَةِ تَكُونُ فِي الْبَيْتِ إِذَا احْتِيجَ
إِلَيْهَا اسْتُعْمِلَتْ وَإِنْ اسْتُغْنِيَ عَنْهَا كَانَتْ عُدَّةً وَقَدْ
قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْمُنْذِرِ وَدِدْتُ أَنْ لِي مِثْلَ أَحَدِ ذَهَبًا
لَا أَتَفِيعُ مِنْهُ بِشَيْءٍ قِيلَ لَهُ : فَمَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِهِ ؟
قَالَ : لِكَثْرَةِ مَنْ كَانَ يَخْدُمُنِي عَلَيْهِ لِأَنَّ الْمَالَ يَخْدُومُ

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ عَلَيْكَ بِطَلَبِ الْغِنَى فَلَوْ لَمْ
 أَكُنْ فِيهِ إِلَّا أَنَّهُ عِزٌّ فِي قَلْبِكَ وَذُلٌّ فِي قَلْبِ
 عَدُوِّكَ لَكَانَ الْحُظُّ فِيهِ جَسِيماً وَالنَّفْعُ فِيهِ عَظِيماً .

وَلَسْنَا نَدْعُ سِيرَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَتَعْلِيمَ الْخُلَفَاءِ
 وَتَأْدِيبَ الْحُكَمَاءِ لِأَصْحَابِ اللَّهِ ، وَلَسْتُمْ عَلَى
 تَرْدُونِ وَلَا رَأْيٍ تُفَنِّدُونَ فَقَدِّمُوا النَّظَرَ قَبْلَ الْعِزِّ
 وَأَذْرِكُوا مَا لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُدْرِكُوا مَا لَكُمْ وَالسَّلَامُ
 عَلَيْكُمْ .



وَمِنْ شَيْقِ الرِّسَائِلِ الْعَبَّاسِيَّةِ الْمُخْتَارَةِ ، الَّتِي
 سَمَتْ مَرْتَبَةً بِبَلَاغَتِهَا ، وَرَقَّتْ مَائِيَّةُ الْفَاطِمَا ،
 وَالَّتِي هِيَ آيَةٌ فِي الْفَصَاحَةِ وَالرَّجَاحَةِ ، وَالْجَلَالِ

وَالْمَلَاخَةِ ، وَالَّتِي تُذَكِّرُ بِسَحْبَانِ وَائِلٍ ، وَأَبْلَغَ
 قَائِلٍ ، رِسَالَةَ أَبِي إِسْحَاقَ الصَّابِيِّ كَاتِبِ الْخُلَفَاءِ ،
 وَأَمِينِ أَسْرَارِهِمْ ، وَعَمِيدِ دِيَوَانِهِمْ ، كَتَبَهَا وَهُوَ
 الْوَقُورُ النَّفْسِ الْمُشْتَطُّ مَدَى الْهِمَّةِ رَحْبُ الصَّدْرِ
 وَالْعَطَنِ ، رَاجِحُ الْخِصَاةِ وَالْفِطَنِ إِلَى الصَّاحِبِ
 أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ عَبَّادٍ - وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ نَضَعَ لَكَ
 فِيهِ كِتَابًا نُفَرِّدُهُ لِتَحْلِيلِ شَخْصِهِ وَدِرَاسَةِ عَصْرِهِ .

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّابِيُّ :

« أَنَا أَعْتَذِرُ إِلَى سَيِّدِي أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ مِنْ
 تَأَخُّرِ كُتُبِي عَنْ حَضْرَتِهِ الْجَلِيلَةِ ، بِعُذْرٍ إِذَا تَأَمَّلَهُ
 حَقَّ تَأَمَّلَهُ وَعَرَضَهُ عَلَى نَقْدِهِ وَتَمْيِيزِهِ ، وَعَرَفَ صِدْقَ
 مَنَظِّقِهِ وَخُلُوصَ مَصْدَرِهِ ، عَلِمَ أَنَّي مُوَاصِلٌ بَيَاطِنِ

مُرَادِي وَإِنْ صَرَمْتُ بِظَاهِرِ فِعْلِي ، وَمُلَازِمٌ بِخَافِي
مَقْصِدِي وَإِنْ أَخَلَّتْ بِيَادِي مَسْلَكِي ، وَهُوَ أَنِّي
جَرَبْتُ مَكَاتِبَتَهُ أَيَّدَهُ اللَّهُ مُوَاطِبًا عَلَيْهَا مُكِبًّا ،
وَمُرَاحِيًا بَيْنَ أَوْقَاتِهَا مُغِبًّا ، لِاتَّبِعَ أَحَبَّ الْأَمْرَيْنِ
إِلَيْهِ ، وَأَوْقَعَهُمَا لَدَيْهِ ، فَلَمَّا لَاحَ لِي أَنَّ الْإِجْمَامَ ^(١)
أَنْفَقُ ، وَالتَّرْفِيَةَ أَوْفَقُ ، وَوَثِقْتُ بِأَنَّ رَأْيَهُ عَلَى فِي
الْحَالَيْنِ مَخْرُوسُ النَّوَاحِي وَالْجَوَانِبِ ، مَحْمِيٌّ الشَّرَائِعِ ^(٢)
وَالْمَشَارِبِ ، اقْتَصَرْتُ عَلَى أَنْ أَتَعَرَّفَ أَخْبَارَهُ وَأَسْرَرَ
بِاسْتِقَامَتِهَا ، وَانْتِظَامِهَا ، وَأَتَنَسَّمَ أَحْوَالَهَا ، وَأَسْكُنَ
إِلَى اطِّرَادِهَا وَالتَّثَامِهَا ، وَابْتَهَجَ بِمَا يَصِيرُ أَيْدِ اللَّهِ
مِنْ ذِرْوَةِ مَرْتَبَةٍ يَعْتَلِيهَا ، وَغَارِبِ مَرَقَبَةٍ يَمْتَطِيهَا ،

وَأَنَّ أَدْلَ الْمُتَحَدِّثِينَ عَنْهُمَا وَالسَّامِعِينَ بِهِمَا ، عَلَى
 أَنَّهُ لَمْ يَسْتَوْفِ بَعْدَ حَظِّهِ ، وَلَمْ يَسْتَوْعِبْ قِسْطَهُ ،
 فَإِنَّ لِلدُّنْيَا مَوَاعِيدَ فِيهِ ، لَا بُدَّ أَنْ يُنَجِّزَهَا
 بِمَسَاعِيهِ ، وَمَا أَخَافُ فِي هَذَا الْقَوْلِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
 مِنْ غَلَطِ الْفِرَاسَةِ وَكَذِبِ الْمَخِيلَةِ ، وَلَا بِمُعَارَضَةِ
 الْمُعَارِضِ ، وَمُنَاقَضَةِ الْمُنَاقِضِ ، وَلَا أَعْدَمُ صِحَّةَ
 الشَّهَادَةِ وَقِيَامِ الدَّلَالَةِ ، وَقَبُولِ الْمُسْتَمِعِ ، وَتَشْيِيعِ
 الْمُتَّبِعِ ، وَكَفَى بِعِلْمِ اللَّهِ أَنِّي أَغْتَبِطُ بِنِعْمِهِ جَلَّ وَعَزَّ
 عِنْدَهُ ، إِغْتِبَاطِي بِهَا إِذَا كَانَتْ عِنْدِي ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّهَا
 فِي فَنَائِهِ عَمَرُهُ اللَّهُ مُسْتَقَرَّةُ الْوَطَنِ قَاطِنَةٌ ، وَفِي كَثِيرٍ
 مِنَ الْأَفْنِيَةِ قَلِقَةٌ الرُّكَّابِ ظَاعِنَةٌ ، لِبُعْدِ فُضْلَاءِ الزَّمَانِ
 عَنْ مُسَاوَاتِهِ فِي اسْتِحْقَاقِهَا ، وَمُدَانَاتِهِ فِي اسْتِيجَابِهَا ،

وَاسْتَبْدَادِهِ عَلَيْهِمْ بِحِيَازَةٍ مَا يَتَفَرَّقُ فِيهِمْ ، وَاسْتِكْمَالِ
 مَا يَتَقَسَّمُ يَنْتَهَمُ مِنْ أَصْلِ رَاسِخٍ ، وَفَرْعٍ شَامِخٍ ،
 وَحِلْمٍ رَاجِحٍ ، وَقَدَرٍ طَامِحٍ ، وَأَدَبٍ جَزَلٍ ، وَمَنْطِقٍ
 فَصْلٍ ، وَقَرِيحَةٍ ثاقِبَةٍ ، وَدِرَايَةٍ صَائِبَةٍ ، وَنَفْسٍ
 سَامِيَةٍ ، وَكَيْفِ هَامِيَةٍ ، وَأَوْصَافٍ لَا تُعْبِرُ عَنْهَا بِلَاغَةٍ
 الْفُصَحَاءِ ، وَلَا يُحِيطُ بِهَا اسْتِحْفَازُ الْخُطَبَاءِ ، وَلَا تُجَارِيهِ
 فِيهَا أَقْدَامُ النُّظَرَاءِ ، وَلَا تُزَاحِمُهُ عَلَيْهَا مَنَاكِبُ
 الْأَكْفَاءِ ، بَلْ هِيَ مُسَمَّاةٌ إِلَيْهِ إِذَا نُوزِعَ مُدَّعُوهَا ،
 وَمُقَرَّرٌ لَهُ بِهَا إِذَا دُوفِعَ مُتَّحِلُوهَا ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى أَنْ
 أُعْطِيَ قَوْسَ السِّيَادَةِ مِنْهُ بَارِيهَا ^(١) ، وَأَضَافَهَا إِلَى كُفَّهَا
 وَكَافِيَهَا ، وَفَسَخَ بِهِ شَرْطَ الدُّنْيَا الْفَاسِدَ فِي إِهْدَاءِ

حُظُوظَهَا إِلَى أَوْغَادِهَا^(١) ، وَتَقْضَ لَهُ حُكْمَهَا الْجَائِرُ
 فِي الْعُدُولِ بِهَا عَنْ نُجْبَاءِ أَوْلَادِهَا ، وَإِيَّادِ أَسْأَلِ سُوءِ
 الضَّارِعِ إِلَيْهِ ، الطَّالِبِ لَدَيْهِ ، أَنْ يُطِيلَ بَقَاءَ سَيِّدِي
 الْإِطَالَةَ الْمُتْرَامِيَّةَ^(٢) ، وَيُؤَفِّقَهُ أَقْصَى الْمُدَدِ الْمُتِمَادِيَةِ ،
 وَلَا يَعْدِمَهُ التَّوْغُلُ فِي هَضْبَاتِهِ عَلَى رَفَاعَةٍ مِنْ مَعَاشِهِ ،
 وَالْارْتِقَاءِ إِلَى دَرَجَاتِهِ ، فِي سُكُونٍ مِنْ جَاشِهِ ، وَلَا
 يَبْتَلِيهِ فِي شَيْءٍ مِنْهَا بَعَثَرَةٌ وَلَا هَفْوَةٌ وَأَنْ يُبْلَغَهُ
 مَدَى هِمَّتِهِ الْعَالِيَةِ الْمُشْتَطَّةِ ، وَأُمْنِيَّتِي لَهُ الْمُنْبَسِطَةِ ،
 فَلَا مَزِيدَ عَلَيْهِ أَيْدَهُ اللَّهُ لِمُفْرِطٍ مُسْرِفٍ . وَلَا
 عَلَى فِي هَذَا لِمُتَطَلِّعٍ مُتَشَوِّفٍ .

وَأَمَّا بَعْدُ أَيْدَ اللَّهِ سَيِّدِي الصَّاحِبَ فَإِنَّ نُوبَ

الدَّهْرُ تَرَدَّدُ مِنْذُ سِنِينَ عَلَى وَعَلَى أَهْلِ صِنَاعَتِنَا
 الْمَنْحُوسَةِ بِالْعِرَاقِ ، مُنِيخَةً بِنَوَازِلِهَا ، مُلْقِيَةً
 بِكَلَاكِلِهَا ، كَالِحَةً بِوُجُوهِهَا ، كَاشِرَةً عَنْ أَنْيَابِهَا ،
 لَتَعَاقِبِ الْأَيْدِي الْوَالِيَةَ عَلَيْنَا ، وَتَدْرُجُهَا فِي الْإِسَاءَةِ
 إِلَيْنَا ، وَتَزَايِدُهَا فِي الْفَظَاطَةِ بِنَا ، وَتَجَاوُزُهَا الْمَنْزِلَةَ
 إِلَى الْمَنْزِلَةِ فِي الْأَسْتِئْصَالِ لِأَحْوَالِنَا ، وَقَدْ تَوَفَّرَ
 قِسْطِي فِي تَأْثِيرِهَا ، بِحَسَبِ صُنِّي بِعَرْضِي وَصَوْنِي
 نَفْسِي وَبَذْلِي دُونَهَا مَالِي ، وَوَقَايَتِي إِيَّاهُمَا بِمَا مَلَكَتْ
 يَدِي ، حَيْثُ لَمْ أَسْأَلِ الْمَعُونَةَ أَحَدًا ، وَلَا سَمَحْتُ
 أَنْ أُسْتَمِيحَ مُسَوِّدًا وَلَا سَيِّدًا ، رَاجِعًا إِلَى شَيْءٍ مِمَّا
 يَرْجِعُ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ مَوْرُوثٍ تَالِدٍ ، وَمُكْتَسَبٍ
 طَارِفٍ ، حَتَّى انْتَهَتْ مَغَارِمِي إِلَى نَحْوِ خَمْسِمِائَةِ أَلْفِ

دِرْهِمٌ ، لَمْ يَبْقَ لِي بَعْدَهَا ضَيْعَةٌ ، وَلَا مَزْلَةٌ ،
 وَلَا بَاطِنٌ وَلَا ظَاهِرٌ . فَلَمَّا صَارَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ
 تَتَوَغَّلُ بَعْدَ التَّطَرُّفِ ، وَتَجْحَفُ بَعْدَ التَّحْيِفِ ،
 وَصَادَفَ مَا تَجَدَّدَ عَلَى مِنْهَا فِي الْوَقْتِ أَشْلَاءٌ مَنُوكَةٌ ،
 وَأَعْظَمَاءٌ مَبْرِيَّةٌ ، وَحُشَاشَةٌ مَشْفِيَّةٌ ، وَبَقِيَّةٌ مُودِيَّةٌ ،
 فَارْقَتْ الْإِيثَارَ وَأَطَعَتْ دَوَاعِيَ الْإِضْطِرَارِ وَجَعَلَتْ
 اخْتَارُ الْجِهَاتِ ، وَأَعْتَامُ^(١) الْجَنَبَاتِ ، لِأَنَّهُوَ مِنْهَا مَا لَا يِعَابُ
 سَأَلُهُ إِذَا سَأَلَ ، وَلَا يُخَيِّبُ آمِلُهُ إِذَا أَمَّلَ ، فَكَانَ
 سَيِّدِي أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ أَوْلَاهَا إِذَا عَدَدْتُ ، وَأَوْلَاهَا
 إِذَا اعْتَمَدْتُ .

وَكَتَبْتُ كِتَابِي هَذَا بِيَدٍ يَكَادُ وَجْهِي يَتَظَلَّمُ مِنْهَا

إِذْ تَخُطُّهُ ، إِشْفَاقًا عَلَى مَائِهِ مِمَّا يَهْرِيْقُهُ^(١) لَوْلَا الثَّقَّةُ
بِأَنَّهُ أَيْدُهُ اللَّهُ يَحْقِنُ مِيَاهَ الْوُجُوهِ وَيَحْمِيهَا وَيَجْمَعُهَا
وَلَا يَقْذِيهَا^(٢) وَخَاصَّةً مَنْ كَانَتْ لَهُ فِي نَفْسِهِ الْمَرْيَّةُ
الَّتِي لِي عَلَى غَيْرِي مِمَّنْ شَحَطَتْ^(٣) دَارُهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ
وَأَوْدَائِهِ بِمُشَاهَدَتِي شَخْصَهُ الشَّرِيفَ وَاعْتِلَاقِي حَبْلَهُ
الْحَصِيفَ وَكَوْنِي تَحْتَ ظِلِّ الدَّوْلَةِ وَالْجُمْلَةِ وَعِصْمَتِهَا ،
وَفِي ذِمَامِ الْمُمَالِحَةِ وَالْمُرَاضَعَةِ وَحُرْمَتَيْهَا ، وَالْأَسْبَابِ الَّتِي
هُوَ لَهَا بِكَرَمِ عَهْدِهِ حَافِظٌ ، وَبِعَيْنِ رِعَايَتِهِ مُلَاحِظٌ ،
وَأَنْفَذْتُ دَرْجَهُ كِتَابًا إِلَى مَوْلَانَا الْأَمِيرِ مُؤَيِّدِ الدَّوْلَةِ
سَلَكْتُ فِيهِ سَبِيلَ الْعَبْدِ اللَّائِذِ بِمَوْلَاهُ ، وَالْخَادِمِ
الْمُحْتَاجِ إِلَى نَدَائِهِ ، وَأَشْرْتُ إِلَى مَا كَانَ سَيِّدِي أَيْدُهُ

(١) يريقه (٢) يدها ويضميها (٣) بعدت : شحطت الدار

اللَّهُ قَدَّمَهُ قَبْلَ هَذَا الْوَقْتِ مِنْ ذِكْرِي ، وَمَا تَفَضَّلَ
 وَمَهَّدَهُ مِنْ أَمْرِي ، وَرَجَوْتُ اسْتِثْمَارَ تِلْكَ الْمُقَدَّمَةِ
 عَلَى يَدِهِ وَبَرَكَتِهِ ، وَاسْتِنْجَاحَهَا يَمُنْ طَائِرِهِ وَتَقْيِيَّتِهِ ^(١)
 وَكُلُّ مَا يَتَأَنَّى مِنَ الْجَمِيعِ مُحْسُوبٌ مِنْ جَمَالِهِ ،
 وَمَعْدُودٌ فِي إِفْضَالِهِ ، وَزَائِدٌ فِي أَيَادِيهِ الْبَيْضِ ، الزُّهْرِ ،
 وَعَوَارِفِهِ الْمُحَجَّلَةِ الْغُرِّ ، وَسَيِّدِي الصَّاحِبِ أَطَالَ
 اللَّهُ بَقَاءَهُ وَلِيَّ مَا يَرَاهُ فِيمَا سَأَلْتُ وَاقْتَرَحْتُ ،
 وَاشْتَطَطْتُ ^(٢) وَاحْتَكَمْتُ ، جَامِعًا لِي مِنْ جَاهِهِ
 وَمَالِهِ ، فَإِنَّ تَضَاعُفَ هَذِهِ الْمِحْنِ يَقْتَضِي مُضَاعَفَةَ
 مَا يُطَوَّقُنِيهِ مِنَ الْمِنَّةِ ، لَا كُونَ مَا عِشْتُ طَلِيقَهُ
 مِنْ حَبَائِلِهَا وَإِسَارِهَا ، وَعَتِيقَهُ مِنْ مَخَالِبِهَا وَأُظْفَارِهَا ،

وَالْإِيْعَازُ بِإِجَابَتِي بِمَا ابْتَهَجُ لَهُ مِنْ طِيبِ خُبْرِهِ ،
وَحَالِهِ ، وَأَمْتِثْلُهُ مِنْ عَالِي أَعْرِهِ وَنَهْيِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .



وَمِنْ طَرِيفِ الْأَدَبِ الْأَنْدَلُسِيِّ الْقُرْطُبِيِّ الْمَلِيِّ
بِلَاغَةِ سَامِيَةٍ ، وَرَقَّةَ وَحَلَاوَةٍ ، وَفَرَاهَةَ وَطَلَاوَةٍ ،
مَعَ شَيْقِ اقْتِبَاسٍ ، وَمَأْثُورِ أَمْثَالٍ ، وَمَتِينِ تَرَكَيبٍ ،
وَبَلِيغِ أَسَالِيبٍ ، مَا كَتَبَهُ أَبُو الْوَلِيدِ أَحْمَدُ بْنُ
عَبْدِ اللَّهِ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ زَيْدُونَ الْمَخْزُومِيَّ
وَهَذِهِ رِسَالَةٌ ابْنِ زَيْدُونَ نُثِبَتْهَا بِنَصِّهَا :

يَا مَوْلَايَ ^(١) وَسَيِّدِي ، الَّذِي وَدَادِي لَهُ وَاعْتِمَادِي
عَلَيْهِ ، وَاعْتِدَادِي بِهِ وَامْتِدَادِي مِنْهُ ، وَمَنْ أَبْقَاهُ

(١) المولى السيد ويطلق على العبد

اللَّهُ مَا ضَىٰ ^(١) حَدَّ الْعَزْمِ ، وَارَىٰ ^(٢) زَنْدِ الْأَمَلِ
 ثَابِتٌ ^(٣) عَهْدِ النُّعْمَةِ . إِنْ سَلَبْتَنِي — أَعَزَّكَ اللَّهُ —
 لِبَاسَ نِعْمَائِكَ وَعَطَّلْتَنِي مِنْ حُلَىٰ إِيْنَاسِكَ ، وَأَظْمَأْتَنِي
 إِلَىٰ بَرُودٍ ^(٤) إِسْعَافِكَ ، وَتَقَضَّتْ ^(٥) بِي كَفَّ
 حَيَاطَتِكَ ، وَغَضَضَتْ عَنِّي طَرْفَ ^(٦) حِمَايَتِكَ . بَعْدَ
 أَنْ نَظَرَ الْأَعْمَىٰ ^(٧) إِلَىٰ تَأْمِيلِي لَكَ ، وَسَمِعَ الْأَصْمُ
 ثَنَائِي عَلَيْكَ ، وَأَحَسَّ الْجَمَادُ بِاسْتِحْمَادِي إِلَيْكَ . فَلَا
 غَرَوْ قَدْ يَنْصُ الْمَاءُ شَارِبَهُ ، وَيَقْتُلُ الدَّوَاءُ الْمُسْتَشْفَىٰ

(١) ما مضى حد العزم أى أن عزم ينفد كما ينفد السيف الماضى

(٢) أى أمله مشرق كالزند الذى قدح فظهرت ناره (٣) ثابت

عهد النعمة أى أن نعمته خالدة لا تزول (٤) وتركتنى ظمآن الى برد

نجدتك (٥) وطرحتنى من رحمة يدك (٦) أهلتنى وتجابنى بى ظلك

(٧) مبالغة فى هذه الجملة واللتين بعدها ومعنى الثلاث تفاضيت عنى بعد

أن أصبح رجائى فىك يكاد يبصره الأعمى وثنائى يسمعه الأصم وحمدى لك

يحسه الجماد

بِهِ ، وَيُؤْتَى الْحَذِرُ^(١) مِنْ مَأْمَنِهِ . وَتَكُونُ مَنِةُ
الْمُتَمَنِّي فِي أَمْنِيَّتِهِ . وَالْحَيْنُ^(٢) قَدْ يَسْبِقُ جَهْدَ
الْحَرِيصِ .

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الْفَتَى

وَتَهُونُ غَيْرَ شِمَاتَةِ الْحَسَادِ

وَإِنِّي لَا تَجَلَّدُ وَأَرَى لِلشَّامِتِينَ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ
لَا أَتَضَعُّعُ . فَأَقُولُ : هَلْ أَنَا إِلَّا يَدٌ أَدْمَاهَا

سِوَارُهَا ، وَجَبِينٌ عَضَّ بِهِ إِكْلِيلُهُ ، وَمَشْرِفٌ^(٣)

الْصَّقَّةُ بِالْأَرْضِ صَاقِلُهُ ، وَسَمْهَرِي^(٤) عَرْضُهُ عَلَى النَّارِ

مُثَقَّفُهُ ، وَعَبْدٌ ذَهَبَ بِهِ سَيِّدُهُ مَذْهَبَ الَّذِي يَقُولُ :

(١) مثل مشهور معناه يصاب المرء من الناحية التي يأمن شرها والجملة

التي تلي لها هذا المعنى (٢) الموت (٣) سيف (٤) رمح

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا

فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

هَذَا الْعُتْبُ مُحَمَّدٌ عَوَاقِبُهُ ، وَهَذِهِ النَّبُوءَةُ^(١)

غَمْرَةٌ^(٢) ثُمَّ تَنْجَلِي ، وَهَذِهِ النَّكْبَةُ سَحَابَةٌ صَيْفُ

عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ . وَلَنْ يَرِيَنِي مِنْ سَيِّدِي أَنْ أَبْطَأَ

سَيِّبُهُ^(٣) أَوْ تَأَخَّرَ غَيْرَ ضَنِينِ غَنَاوُهُ . فَأَبْطَأُ الدَّلَاءَ

فَيُضَا أَمْلَؤُهَا ، وَأَثْقَلُ السَّحَابِ مَشْيًا أَخْفَلُهَا^(٤) ،

وَأَنْفَعُ الْحَيَا^(٥) مَا صَادَفَ جَذْبًا ، وَالَّذُ الشَّرَابِ

مَا أَصَابَ غَلِيلًا ، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٍ ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ

كِتَابٌ . لَهُ الْحَمْدُ عَلَى اهْتِبَالِهِ^(٦) ، وَلَا عُتْبَ

عَلَيْهِ فِي اغْتِفَالِهِ^(٧)

(١) نبوة السيف عدم قطعه (٢) شدة (٣) سحابة

(٤) أكثرها مطراً (٥) المطر (٦) اغتنامه واحتياله (٧) تركه

فَإِنْ يَكُنِ الْفِعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا
فَأَفْعَالُهُ اللَّاتِي سَرَرْتَ الْوَفَّ
وَأَعُودُ فَأَقُولُ : مَا هَذَا الذَّنْبُ الَّذِي لَمْ يَسَعَهُ
عَفْوُكَ ، وَالْجَهْلُ الَّذِي لَمْ يَأْتِ مِنْ وَرَائِهِ حِلْمُكَ
وَالْتَّطَاوُلُ^(١) الَّذِي لَمْ يَسْتَغْرِقْهُ تَطَوُّلُكَ^(٢) ،
وَالْتَّحَامُلُ الَّذِي لَمْ يَفِ بِهِ احْتِمَالُكَ ؟ وَلَا أَخْلُو أَنْ
أَكُونَ بَرِيئًا فَأَيْنَ الْعَدْلُ أَوْ مُسِيئًا فَأَيْنَ الْفَضْلُ ؟ !
إِلَّا يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ وَاسِعٌ
أَوْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَفَضْلُكَ أَوْسَعُ
فَهَبْنِي مُسِيئًا كَالَّذِي قُلْتَ طَالِبًا
قِصَاصًا فَأَيْنَ الْأَخْذُ يَا عَزُّ بِالْفَضْلِ

حَنَانِيكَ قَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبِّي^(١) ، وَنَالَني مَا حَسَنِي
 بِهِ وَكَفَى . وَمَا أَرَانِي^(٢) إِلَّا لَوْ أُمِرْتُ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ
 فَأَيُّتُ وَاسْتَكْبَرْتُ ، وَقَالَ لِي نُوحٌ ارْكَبْ مَعَنَا
 فَقُلْتُ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، وَأُمِرْتُ
 بَيْنَاءَ صَرْحٍ لَعَلَّيْ أَطْلُعُ إِلَى إِلِهِ مُوسَى ، وَعَكَفْتُ
 عَلَى الْعِجْلِ وَاعْتَدَيْتُ فِي السَّبْتِ ، وَتَعَايَيْتُ فَعَقَرْتُ ،
 وَشَرِبْتُ مِنَ النَّهْرِ الَّذِي ابْتُلِيَ بِهِ جُيُوشُ طَالُوتَ ،
 وَقُدْتُ الْفِيلَ لِأَبْرَهَةَ ، وَعَاهَدْتُ قُرَيْشًا عَلَى مَا فِي
 الصَّحِيفَةِ ، وَتَأَوَّلْتُ فِي يَبْعَةِ الْعَقَبَةِ ، وَنَفَرْتُ إِلَى
 الْعِيرِ بَيْدَرٍ ، وَانْخَزَلْتُ بِثُلُثِ النَّاسِ يَوْمَ أُحُدٍ ،

(١) جمع زبية وهي حفيرة تحفر لاقتناص الأسد (٢) من قوله

وما أَرَانِي إلى قوله لكان فيما جرى يفرض ابن زيدون ارتكابه هذه الآثام

التي ندد بها التاريخ ومطأها كتب التاريخ

وَتَخَلَّفْتُ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَجِئْتُ
بِالْإِفْكِ عَلَى عَائِشَةَ الصَّدِيقِيَّةِ ، وَأَنْفَتُ عَنْ إِمَارَةِ
أُسَامَةَ ، وَزَعَمْتُ أَنَّ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً ،
وَرَوَيْتُ رُمْحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ ، وَمَرَقْتُ الْأَدِيمَ الَّذِي
بَارَكْتَ يَدُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَضَحَّيْتُ بِأَشْمَطِ عُنْوَانِ السُّجُودِ
بِهِ ، وَبَذَلْتُ لِقَطَامِ

ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَبْدٌ وَقَيْنَةٌ

وَضَرَبْتُ عَلَى بِالْحُسَامِ الْمُسَمِّ
وَكَتَبْتُ إِلَى عَمْرِو بْنِ سَعْدٍ أَنْ جَعَجَعَ بِالْحُسَيْنِ
وَتَمَثَّلْتُ عِنْدَ مَا بَلَغَنِي مِنْ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ :
لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْدُرُ شَهْدُوا

جَزَعَ الْخَزْرَجَ مِنْ وَقْعِ الْأَسَلِ

وَرَجَمْتُ الْكُعْبَةَ ، وَصَلَبْتُ الْعَائِدَ عَلَى الثَّنِيَّةِ :
لَكَانَ فِيمَا جَرَى عَلَى مَا يُحْتَمَلُ أَنَّ يَكُونَ نَكَالًا^(١) ،
وَيُدْعَى وَلَوْ عَلَى الْمَجَازِ عِقَابًا .

وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بِأَمْرِي
تَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَ
فَكَيْفَ وَلَا ذَنْبَ إِلَّا نِغْمَةٌ أَهْدَاهَا كَاشِحٌ^(٢) ،
وَنَبَأٌ جَاءَ بِهِ فَاسِقٌ وَهُمْ الْهَمَّازُونَ الْمَشَاءُونَ بِنَمِيمٍ ،
وَالْوَاشُونَ الَّذِينَ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَصْدَعُوا^(٣) الْعَصَا ،
وَالنُّوَاةُ الَّذِينَ لَا يَتْرُكُونَ أَدِيمًا صَحِيحًا ، وَالسُّعَاةُ الَّذِينَ
ذَكَرَهُمُ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ : مَا ظَنُّكَ بِقَوْمِ
الصَّدَقِ مُحَمَّدٍ إِلَّا مِنْهُمْ .

(١) النكال الإصابة بنازلة (٢) الذي يضرر العداوة (٣) يشير

الى قول كثير عزه

ولا لبث الواشون أن يصدعوا العصا إذا هي لم يصلب على البرى عودها

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً
وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ
وَاللَّهُ مَا غَشَشْتُكَ بَعْدَ النَّصِيحَةِ ، وَلَا انْحَرَفْتُ
عَنْكَ بَعْدَ الصَّاعِيَةِ^(١) إِلَيْكَ ، وَلَا نَصَبْتُ^(٢) لَكَ بَعْدَ
التَّشْيِيعِ فِيكَ ، وَلَا أَزْمَعْتُ يَأْسًا مِنْكَ مَعَ ضَمَانٍ
تَكَفَّلْتُ بِهِ الثَّقَةَ عَنْكَ ، وَعَهْدٍ أَخَذَهُ حُسْنُ الظَّنِّ
عَلَيْكَ . فَفِيمَ عَبَتَ الْجَفَاءُ بِأُذْمَتِي^(٣) ، وَعَاثَ الْعُقُوقُ
فِي مَوَاتِي^(٤) ، وَتَمَكَّنَ الضِّيَاعُ مِنْ وَسَائِلِي ؟ !
وَلَمْ ضَاقَتْ مَذَاهِبِي ، وَأَكْدَتْ^(٥) مَطَالِبِي ؟ وَعَلَامَ
رَضِيتُ مِنَ الْمَرْكَبِ^(٦) بِالتَّعْلِيْقِ ، بَلْ مِنَ الْغَنِيْمَةِ

(١) الصاغية الميل (٢) أى ما كنت ناصياً عدوك والناصي كل
من خرج على على كرم الله وجهه (٣) جمع ذمام وهو الحرمة (٤) جمع
ماتة وهى الوسيلة (٥) تعطلت (٦) رضى من الركب بالتعليق ومن
الغنيمة بالاياب مثلاًن يراد منهما أى أَرْضى من عظيم الأمر بتأفقه

بِالْإِيَابِ ؟ وَأَنَّى غَلَبَنِي الْمُغْلَبُ^(١) ، وَفَجَرَ عَلَى الْعَاجِزِ
 الضَّعِيفِ ، وَلَطَمْتَنِي غَيْرُ ذَاتِ سِوَارٍ ؟ وَمَالِكَ لَمْ تَمْنَعْ
 مِنِّي قَبْلَ أَنْ أُفْتَرَسَ ، وَتُدْرِكْنِي وَلَمَّا أُمْرِقَ ؟ أَمْ كَيْفَ
 لَا تَتَضَرَّمُ^(٢) جَوَانِحُ^(٣) الْأَكْفَاءِ حَسَدًا لِي عَلَى
 الْخُصُوصِ^(٤) بِكَ ، وَتَتَقَطَّعُ أَنْفَاسُ النُّظَرَاءِ مُنَافَسَةً
 فِي الْكَرَامَةِ عَلَيْكَ ؟ وَقَدْ زَانَنِي رَسْمُ خِدْمَتِكَ ،
 وَزَهَّأَنِي^(٥) اسْمُ نِعْمَتِكَ ، وَأُبْلَيْتُ الْبَلَاءَ الْجَمِيلَ
 فِي سِمَاطِكَ^(٦) ، وَقُمْتُ الْمَقَامَ الْمُحْمُودَ فِي بِسَاطِكَ

أَلَسْتُ الْمُوَالِي فِيكَ غَرَّ قَصَائِدِي

هِيَ الْأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمًا

(١) غلبني المغلب وفجر على الضعيف ولطمتني الخ يراد منها أني استهدفت
 لنيل الضعفاء مني (٢) تنقذ (٣) الأضلاع التي تحت الترائب
 (٤) شدة الصلاة (٥) جعلني أزهى على الناس وأعظم (٦) السباط
 يطلق على ما يحمله على الطعام والسمطان الصفان من الناس

ثَنَاءٌ يُظَنُّ الرَّوْضُ مِنْهُ مُنَوَّرًا^(١)

ضُحَى وَيُخَالُ الْوَشَى^(٢) فِيهِ مُنَمَّنًا^(٣)

وَهَلْ لَبَسَ الصَّبَاحُ إِلَّا بُرْدًا طَرَزَتْهُ بِفَضَائِلِكَ ،
وَتَقَلَّدَتْ الْجُوزَاءُ إِلَّا عِقْدًا فَصَّلَتْهُ بِمَآثِرِكَ ، وَاسْتَمَلَى
الرَّيْعُ إِلَّا ثَنَاءً مَلَائَتْهُ فِي مَحَاسِنِكَ ، وَبَثَّ الْمِسْكُ
إِلَّا حَدِيثًا أَذَعَتْهُ فِي مَحَامِدِكَ . مَا يَوْمُ حَلِيمَةٍ بِسِرٍّ
وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَكُوكَ سَلِيبًا^(٤) ، وَلَا حَلِيْتُكَ
عُطْلًا^(٥) ، وَلَا وَسَمْتُكَ غُفْلًا^(٦) . بَلْ وَجَدْتُ آجُرًا
وَجِصًّا فَبَنَيْتُ ، وَمَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَقُلْتُ :
حَاشَا لَكَ أَنْ أَعِدَّ مِنَ الْعَامِلَةِ النَّاصِبَةِ^(٧) ، وَأَكُونَ

(١) مزدهرا (٢) ضرب من حلل الحرير (٣) موشى

(٤) مسلوبا وكل ثوب على البدن سلب (٥) ما تعطلت منه

(٦) أرض غفل لا علم بها (٧) عيون اليهود والنصارى

كَالذُّبَالَةِ الْمَنْصُوبَةِ تُضِيُّ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ ، فَلَاكَ
الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ بِي وَبِكَ أَوْلَى . وَلَعَمْرُكَ مَا جَهِلْتُ
أَنْ صَرِيحَ الرَّأْيِ أَنْ أَتَحَوَّلَ ، إِذَا بَلَغْتَنِي الشَّمْسُ وَنَبَا بِي
الْمَنْزِلُ ، وَأَصْفَحَ عَنِ الْمَطَامِعِ الَّتِي تُقَطِّعُ أَغْنَاكَ
الرِّجَالِ . فَلَا أَسْتَوْطِي الْعَجْزَ وَلَا أَطْمِنُّ إِلَى الْغُرُورِ .
وَمِنْ الْأَمْثَالِ الْمَضْرُوبَةِ « خَامِرِي ^(١) أُمَّ عَامِرٍ »
وَإِنِّي مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِأَنَّ الْجَلَالَ ^(٢) سِبَاءُ ^(٣) وَالنُّقْلَةُ ^(٤) مُثَلَّةٌ
وَمَنْ يَغْتَرِبُ عَنْ قَوْمِهِ لَمْ يَزَلْ يَرَى
مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجْرًا وَمَسْحَبًا
وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ وَإِنْ يُسَىءُ
يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارُ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا ^(٥)

(١) خامري استرى وهو مثل يضرب لمن يعرف الدنيا ولا تنفعه تجاربها

(٢) الخروج عن الوطن (٣) سباء اسم من سبية العدو (٤) الانتقال

والثلة التكيل (٥) اسم جبل

عَارِفٌ أَنَّ الْأَدَبَ الْوَطَنُ لَا يُخْشَى فِرَاقُهُ ،
وَالْخَلِيطُ لَا يُتَوَقَّعُ زِيَالُهُ^(١) وَالنَّسِيبُ لَا يُخْنَفُ ،
وَالْجَمَالُ لَا يُخْفَى . ثُمَّ مَا قِرَانُ السَّعْدِ لِلْكَوَاكِبِ
أَبْهَى أَثَرًا ، وَلَا أَثْنَى خَطَرًا مِنْ اقْتِرَانِ غِنَى
النَّفْسِ بِهِ ، وَانْتِظَامِهَا نَسَقًا مَعَهُ ، فَإِنَّ الْحَازِرَ لَهُمَا ،
الضَّارِبَ بِسَهْمٍ فِيهِمَا ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ، أَيْنَمَا نَوَجَّهَ ،
وَرَدَّ مِنْهُلٍ بَرٍّ وَحَطَّ فِي جَانِبِ قَبُولٍ ، وَضُوحِكَ
قَبْلَ انْزَالِ رَحْلِهِ ، وَأُعْطِيَ حُكْمَ الصَّبِيِّ عَلَى أَهْلِهِ ،
وَقِيلَ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا

فَهَذَا مَبِيتٌ صَالِحٌ وَمَقِيلٌ
غَيْرُ أَنَّ الْوَطَنَ مَحْبُوبٌ ، وَالْمَنْشَأُ مَأْلُوفٌ ، وَاللَّيْبُ

يَحْنُ إِلَى وَطْنِهِ حَيْنَ النَّجِيبِ ^(١) إِلَى عَطْنِهِ ^(٢)
وَالْكَرِيمَ لَا يَجْفُو أَرْضًا فِيهَا قَوَابِلُهُ ، وَلَا يَنْسَى
بَلَدَةً فِيهَا مَرَاضِعُهُ
قَالَ الْأَوَّلُ :

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعِجٍ ^(٣)
إِلَى وَسَلْمَى أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا
بِلَادُ بِهَا حَلَّ الشَّبَابُ تَمَائِي
وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِسْمِي تُرَابُهَا
هَذَا إِلَى مُغَالَاتِي بِعَقْدِ جَوَارِكِ ، وَمُنَافَسَتِي
بِلَحْظَةٍ مِنْ قُرْبِكَ ، وَاعْتِقَادِي أَنَّ الطَّمَعِ فِي غَيْرِكَ
طَبَعٌ ^(٤) ، وَالْغِنَى مِمَّنْ سِوَاكَ عَنَّا ^(٥) ، وَالْبَدَلُ مِنْكَ

(١) الكريم من الابل (٢) مبرك الابل (٣) اسم مكان

(٤) دنس (٥) تعب

أَعْوَرُ ، وَالْعَوْضَ لَفَاءً وَكُلَّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا
وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَمِيرِي زَادَنِي

ضَنْناً بِهِ نَظَرِي إِلَى الْأَمْرَاءِ

وَفِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ ، وَاسْتَمَجَدَ الْمَرْخُ^(١)
وَالْعَفَارُ ، فَمَا هَذِهِ الْبَرَاءَةُ مِمَّنْ يَتَوَلَّاكَ ، وَالْمَيْلُ
عَمَّنْ لَا يَمِيلُ عَنْكَ ؟ وَهَلَّا كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاهُ
فِيكَ ؛ وَرِضَاكَ فِيمَنْ رِضَاهُ لَكَ ؛

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ

وَجَدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ

أَعِيذُكَ وَنَفْسِي مِنْ أَنْ أَشِيَمَ خُلْبًا^(٢) ، وَاسْتَمَطَرَ
جَهَامًا^(٣) ، وَأَكْرِمَ غَيْرَ مُكْرِمٍ ، وَأَشْكُو شَكْوَى

(١) المرخ والعفار شجر سريع الاتقاد (٢) البرق الذي لا مطر معه

(٣) سحب غير مطر

الْجَرِيحِ إِلَى الْعِقْبَانِ وَالرَّخِمِ ، فَمَا أَبْسَسْتُ^(١) لَكَ
إِلَّا لِتَدْرَ ، وَحَرَّكَتُ لَكَ الْخُورَ إِلَّا لِتَحِنَّ ،
وَنَبَّهْتُكَ إِلَّا لِأَنَامَ ، وَسَرَيْتُ إِلَيْكَ إِلَّا لِأَحْمَدَ
السَّرَى^(٢) لَدَيْكَ ، وَإِنَّكَ إِنْ سَنَيْتَ^(٣) عَقْدَ أَمْرِي
تَيَسَّرَ ، وَمَتَى أَعْذَرْتَ فِي فَكِّ أَسْرِي لَمْ يَتَعَذَّرْ
وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ بِأَنَّ الْمَعْرُوفَ ثَمَرَةُ النِّعْمَةِ ، وَالشِّفَاعَةَ
زَكَاةُ الْمَرْوَةِ ، وَفَضْلُ الْجَاهِ يَعُودُ صَدَقَةً .

وَإِذَا أَمْرُوهُ أَهْدَى إِلَيْكَ صَنِيعَةً

مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّهَا مِنْ مَالِهِ

لَعَلِّي أُلْقِيَ الْعَصَا بِذِرَاكِ ، وَتَسْتَقِرُّ بِي النَّوَى فِي
ظِلِّكَ ، وَأَسْتَأْنِفُ التَّأْدِيبَ بِأَدْبِكَ ، وَالْإِحْتِمَالَ عَلَى

(١) ترفقها لك (٢) السير بالليل (٣) سهلت

مَذْهَبِكَ ، فَلَا أُوجِدُ لِلْحَاسِدِ مَجَالَ لِحَظِهِ ، وَلَا أَدْعُ
 لِلْقَادِحِ مَسَاغَ لَفْظِهِ ، وَاللَّهُ مُيَسِّرُكَ مِنْ إِطْلَاقِي ^(١)
 بِهِذِهِ الطَّلِبَةِ ^(٢) ، وَإِشْكَائِي ^(٣) مِنْ هَذِهِ الشَّكْوَى ،
 بِصَنِيعَةٍ تُصِيبُ مِنْهَا مَكَانَ الْمَصْنَعِ ، وَتَسْتَوْدِعُهَا
 أَحْفَظَ مُسْتَوْدِعٍ ، حَسَبَ مَا أَنْتَ خَلِيقٌ لَهُ ، وَأَنَا مِنْكَ
 حَرِيٌّ بِهِ ، وَذَلِكَ بِيَدِهِ وَهَيْئُ عَلَيْهِ . وَلَمَّا تَوَالَتْ
 غُرُرُ هَذَا النُّثْرِ وَاتَّسَقَتْ دُرَرُهُ ، فَهَزَّ عِطْفَ غُلَوَائِهِ ،
 وَجَرَ ذَيْلَ خِيَلَائِهِ ، عَارَضَهُ النَّظْمُ مُبَاهِيًا ، بَلْ كَابَدَهُ
 مُدَاهِيًا حِينَ أَشْفَقَ ^(٤) مِنْ أَنْ يُعْطِفَكَ اسْتِعْطَافُهُ ،
 وَتَمِيلَ بِنَفْسِكَ الطَّافُهُ ، فَاسْتَحْسَنَ الْعَائِدَةَ مِنْهُ ،
 وَاعْتَدَّ بِالْفَائِدَةِ ، وَمَا زَالَ يَسْتَكِدُّ الذَّهْنَ الْعَلِيلَ ،

(١) اسعافى (٢) الهوى والرغبة (٣) ازالة شكوى

(٤) اشفق من . . غارمته

وَالْخَاطِرَ الْكَلِيلَ ، حَتَّى زَفَّ إِلَيْكَ مِنْهُ عَرُوسًا مَجْلُوءَةً
 فِي أَثْوَابِهَا ، مُنْصُوصَةً بِحُلِيِّهَا وَمَلَابِسِهَا
 الْهَوَى فِي طُلُوعِ تِلْكَ النُّجُومِ
 وَالْمُنَى فِي هُبُوبِ ذَاكَ النَّسِيمِ
 سَرَّنَا عَيْشُنَا الرَّقِيقُ الْخَوَاشِي
 لَوْ يَدُومُ الشُّرُورُ لِلْمُسْتَدِيمِ
 وَطَرُّهُ مَا انْقَضَى إِلَى أَنْ تَقْضَى
 زَمَنٌ مَا ذِمَامُهُ بِالذَّمِّمِ
 إِذْ خِتَامُ الرِّضَا الْمُسَوِّغِ مِسْكَ
 وَمِزَاجُ الْوِصَالِ مِنْ تَسْنِيمِ
 وَغَرِيضُ الدَّلَالِ غَضُّ جَنَى الصَّ
 بَوَّةِ نَشْوَانٍ مِنْ سُلَافِ النَّعِيمِ

طَالَمَا نَافَرَ الْهَوَى مِنْهُ غِرٌّ
 لَمْ أَطُلْ عَهْدُ جِيدِهِ بِالنَّسِيمِ
 زَارَ مُسْتَخْفِيًا وَهَيْهَاتَ أَنْ يَخُ
 فِي سَنَا الْبَدْرِ فِي الظَّلَامِ الْبَهِيمِ
 فَوَشَى الْحَلِيَّ إِذَا مَشَى وَهَفَا الطَّ
 يَبُ إِلَى حِسِّ كَاشِحٍ بِالنَّسِيمِ
 أَيُّهَا الْمُؤْذِنِي بِظُلْمِ اللَّيَالِي
 لَيْسَ يَوْمِي بِوَاجِدٍ مِنْ ظُلُومِ
 قَرُّ الْأَفْقِ إِذْ تَأَمَّلْتَ وَالشَّ
 مَسُّ هُمَا يُكْسِفَانِ دُونَ النُّجُومِ
 وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُ يَنْحُو
 بِالْمُصَابِ الْعَظِيمِ نَحْوَ الْعَظِيمِ

بَوَّاءُ اللَّهِ جَهْوَراً أَشْرَفَ السُّو
 دَدٍ فِي السَّرْوِ وَاللُّبَابِ الصَّمِيمِ
 وَاحِدٌ سَلَّمَ الْجَمِيعُ لَهُ الْأُمُّ
 رَ فَكَانَ الْخُصُوصُ وَفَقَ الْعُمُومِ
 قَلَدَ الْعُمُرُ ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ
 وَاکْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ الْعَلِيمِ
 خَطَرٌ يَقْتَضِي الْكَمَالَ بِنَوْعَيْ
 خُلُقٍ بَارِعٍ وَخُلُقٍ وَسِيمِ
 أَسْوَةَ الرُّوضِ مَنْ بَطِينِكَ يَحْظَى
 نَظْرِي مَا اعْتَمَدَتْهُ وَشَمِيمِي
 أَيُّهَا الْوَزِيرُ هَا أَنَا أَشْكُو
 وَالْعَصَا بَدءَ قَرْعِهَا لِلْحَدِيمِ

مَا عَنَّا أَنْ يَأْنِفَ السَّابِقُ الْمَرْ
 بِطٍ فِي الْعَتَقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ
 وَثَوَاءِ الْحَسَامِ فِي الْجَفْنِ يَثْنَى
 مِنْهُ بَعْدَ الْمَضَاءِ وَالتَّصْمِيمِ
 أَفْصَبُ مِثْنَيْنِ خَمْسٍ مِنَ الْإِيَّامِ
 مِ نَاهِيكَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمِ
 وَمُعْنَى مِنْ الضَّنَى بِهِنَاتٍ
 نَكَاتٍ بِالْكُلُومِ قَرَحَ الْكُلُومِ
 سَقَمٌ لَا أَعَادُ مِنْهُ وَفِي الْعَا
 ئِدِ أَنْسٌ يَفِي بِرُءِ السَّقِيمِ
 نَارُ بَغْيٍ سَعَى إِلَى جَنَّةِ الْأُمِّ
 نِ لَهَا فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ

بِأَبِي أَنْتَ إِنْ تَشَأْتِ بَرْدًا
 وَسَلَامًا كَنَارِ إِبْرَاهِيمَ
 لِلشَّفِيعِ الشَّائِ وَالْحَمْدُ فِي صَوِّ
 بِ الْحَيَا لِلرِّيَّاحِ لَا لِلْغُيُومِ
 وَزَعِيمٌ بِأَنْ يُذِلَّ لِي الصَّعَّةَ
 بِ مَثَابِي إِلَى الْهُمَامِ الزَّعِيمِ
 وَشَنَاءِ أَرْسَلْتُهُ سَلَوَةَ الظَّا
 عَنِ عَنِ شَوْقِهِ وَلَهُوَ الْمُقِيمِ
 وَوِدَادُ يُغَيِّرُ الدَّهْرُ مَا شَاءَ
 وَيَبْقَى بَقَاءَ عَهْدِ الْكَرِيمِ
 فَهُوَ رِيحَانَةُ الْجَلِيسِ وَلَا فَخْ
 رَ وَفِيهِ مِزَاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ

لَمْ يَزَلْ مُغْضِيًّا عَلَى هَفْوَةِ الْجَا
 فِي مُصِيخًا إِلَى اعْتِذَارِ الْمُثْلِمِ
 وَمَتَى تَبْدَأُ الصَّنِيعَةَ يُوَلِّعُ
 لَكَ تَمَامَ الْخِصَالِ بِالتَّثْمِيمِ
 وَقَالَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ :
 لَيْسَ دَهْرِي بِوَاجِدٍ مِنْ ظُلُومٍ
 وَبَلَائِي مِنْ حَدِيثٍ وَقَدِيمِ
 لَيْسَ يُسْتَنْكَرُ النُّحُولُ لِمِثْلِي
 جَسَدِي مُبْتَلَى بِقَلْبٍ مَشُومِ
 هَا كَهَا أَعَزَّكَ اللَّهُ يَسْطُهَا الْأَمَلُ ، وَيَقْبِضُهَا
 الْخَجَلُ ، لَهَا ذَنْبُ التَّقْصِيرِ وَحُرْمَةُ الْإِخْلَاصِ . فَهَبْ
 ذَنْبًا لِحُرْمَةٍ ، وَاشْفَعْ نِعْمَةً بِنِعْمَةٍ . لِتَأْتِيَ بِذَلِكَ

الْإِحْسَانَ مِنْ جِهَاتِهِ ، وَنَسَلْتُ إِلَى أَفْضَلِ طُرُقَاتِهِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ



وَالآنَ نَقِفُكَ عَلَى نَوْعٍ جَدِيدٍ مِنَ الْأُسْلُوبِ
الَّذِي فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الْمُمَثَّلِ لِمُخْتَارِ أَسَالِيبِ
الْقُرْنِ الْخَامِسِ لِلْهَجْرَةِ ، وَالطَّرِيفِ فِي الْعَرِيَّةِ ،
مِمَّا لَقَّنِيهِ الْأُسْتَاذُ وَقَدْ تَقَلَّ بَعْضُهَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ
الْإِسْكَافِيُّ وَذَكَرَهَا يَاقُوتُ فِي مَعْجَمِهِ^(١) ، وَهِيَ مِنْ
مَجْمُوعَةِ رَسَائِلِ الْوُطُوأِ اتَّهَمَ فِيهَا الْحَسَنَ الْقِطَّانَ
بِالسَّرِقَةِ مِنْ كُتُبِهِ وَتَقْتَبَسُ مِنْهَا :

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت ج ٣ ص ١٧٠

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قَرَعَ سَمْعِي مِنْ
 أَفْوَاهِ الْوَارِدِينَ وَالسِّنَةِ الطَّارِئِينَ عَلَى خَوَارِزَمَ ، أَنَّ
 سَيِّدَنَا أَدَامَ اللَّهُ فَضْلَهُ ، كُلَّمَا يَفْرَغُ مِنْ مُهِمَّاتِ
 نَفْسِهِ ، وَوُظَائِفِ دَرْسِهِ ، يُقْبَلُ بِمَجَامِعِهِ عَلَى أَكْلِ
 لَحْمِي ^(١) ، وَالْإِطْنَابِ فِي سَبِيٍّ وَشَتَمِي . وَيَنْسِبُنِي إِلَى
 الْإِغَارَةِ عَلَى كُتُبِهِ ، وَيُبَالِغُ فِي هَتِكِ أَسْتَارِ الْكَرَمِ
 وَحُجْبِهِ ، أَهَذَا يَلِيقُ بِالْفَضْلِ وَالْمُرُوءَةِ ، أَوْ يَحْمِلُ
 بِالْكَرَمِ وَالْفُتُوَّةِ ؟ أَنْ يَفْتَرِيَ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ .
 بِمِثْلِ هَذَا الْكَذِبِ الْمُقْلِقِ ، وَالْبُهْتَانِ الْمُؤْلِمِ .
 وَاللَّهُ إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ يَوْمَ النُّشُورِ ، وَبُعِثَتْ هَذِهِ
 الرِّمَمُ الْبَالِيَةُ ^(٢) مِنَ الْأَجْدَاثِ مُتَدَرِّعَةً مَلَابِسَ (مِنْ)

(١) اغتياي من قوله تعالى : أَيْحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا

(٢) الهالكة

دُونَ خَلَاءٍ) الْحَيَاةَ الثَّانِيَةَ وَجُمِعَتْ عِبَادُ اللَّهِ فِي مَوَاقِفِ
 الْعُرُصَاتِ^(١)، وَتَطَايَرَتْ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ إِلَى أَرْبَابِهَا،
 وَسُئِلَتْ كُلُّ نَفْسٍ عَمَّا كَسَبَتْ، فَمِنْ مُسِيءٍ يُسْحَبُ
 عَلَى وَجْهِهِ إِلَى النَّارِ، وَمِنْ مُحْسِنٍ يُحْمَلُ عَلَى أَعْطَافِ
 الْمَلَائِكَةِ إِلَى الْجَنَّةِ، لَمْ يَتَعَلَّقْ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ الْهَائِلِ
 أَحَدٌ بِذَيْلِي، طَالِبًا مِنِّي مُلْكًا غَصَبْتُهُ، وَلَا مَالًا نَهَبْتُهُ،
 أَوْ دَمًا سَفَكْتُهُ، أَوْ شَخْصًا قَتَلْتُهُ، أَوْ حَقًّا أَبْطَلْتُهُ،
 أَوْ سِرًّا هَتَكْتُهُ. وَهَآنَذَا — قَدْ آتَانِي اللَّهُ مِنَ الْوَجْهِ
 الْحَلَالِ قَرِيبًا مِنْ أَلْفِ مُجَلَّدٍ مِنَ الْكُتُبِ النَّفِيسَةِ،
 وَالذَّفَائِرِ الْفَائِقَةِ، وَالنُّسخِ الشَّرِيفَةِ، وَوَقِفَتْ كُلُّهَا عَلَى
 خَزَائِنِ الْكُتُبِ الْمَبْنِيَّةِ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ عَمَرَهَا اللَّهُ،

لِيَنْتَفِعَ الْمَسَامُونَ بِهَا . وَمَنْ كَانَتْ عَقِيدَتُهُ هَكَذَا —
 كَيْفَ يَسْتَحِيزُ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ يُغَيِّرَ عَلَى كُتُبِ إِمَامٍ
 مِنْ شُيُوخِ الْعِلْمِ ، أَنْفَقَ جَمِيعَ عُمْرِهِ ، حَتَّى حَصَلَ
 أَوْ رَاقًا يَسِيرَةً ، لَوْ بِيَعَتْ فِي الْأَسْوَاقِ لَمَا أُخْضِرَ
 بِثَمَنِهَا مَائِدَةٌ لَتِيمٍ ^(١) . . . الله الله . — لَا يَفْتَرِينَ
 سَيِّدُنَا آدَامَ اللَّهِ فَضْلُهُ — فَافْتَرَاءُ الْكَذِبِ عَلَى مِثْلِي
 ذَنْبٌ يَتَعَثَّرُ فِي أَذْيَالِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَلِيَخَافَنَّ اللَّهُ الَّذِي
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَلِتَذْكُرَنَّ يَوْمَ يَثَابُ الصَّادِقُ فِيهِ
 بِصِدْقِهِ ، وَيُعَاقَبُ الْكَاذِبُ عَلَى كِذْبِهِ وَالسَّلَامُ .
 فَوَرَدَ عَلَى الرَّشِيدِ جَوَابٌ عَنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ
 يَكُونُ فِي نَحْوِ كُرَّاسَتَيْنِ يُغْلِظُ لَهُ فِي الْقَوْلِ وَيُصْرِّحُ
 بِالسَّبِّ وَالتَّهْمَةِ ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ الرَّشِيدُ :

(١) أرخص مائدة لأن اللّيم شحيح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : وَرَدَ كِتَابُ سَيِّدِنَا أَطَالَ
 اللَّهُ بَقَاءَهُ فِي دَوْلَةِ مُفْتَرَةٍ^(١) الْمُبَاسِمِ ، وَنِعْمَةٍ مُتَجَدِّدَةٍ
 الْمُرَاسِمِ^(٢) ، مُشْتَمِلًا مِنَ الْإِيْدَاءِ وَالْإِيْحَاشِ^(٣) ،
 وَالْإِيْدَاءِ^(٤) وَالْإِيْفَحَاشِ ، عَلَى كَلِمَاتٍ بَلَّ عَلَى ظُلُمَاتٍ !!
 لَوْ أَطْفَأَ — أَدَامَ اللَّهُ عُلوَّهُ — بَعْضَ لَهَبِهِ ، وَسَكَّنَ
 ثَائِرَةً^(٥) غَضَبِهِ ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ مُتَصَفِّحًا لِأَلْفَاطِهِ وَمَعَانِيهِ ،
 مُتَفَصِّحًا عَنْ مَقَاطِعِهِ وَمَبَايِنِهِ ، لَمَا ارْتَضَى ذَلِكَ مِنْ
 دِينِهِ وَعَقْلِهِ ، وَلَمَا اسْتَحْسَنَهُ مِنْ كَرَمِهِ وَفَضْلِهِ .
 إِلَّا أَنِّي أَعْذِرُهُ فِيْمَا قَالَ ، قَصَرَ مَلَامُهُ أَوْ طَالَ .
 لِعَلَّمِي أَنَّهُ أَدَامَ اللَّهُ عُلوَّهُ مَسْلُوبٌ مَغْلُوبٌ ، جَرِيحٌ

(١) مفتره المباسم : أى باسمه راضية والدولة الملك (٢) المظاهر
 والحجاني والثمرات (٣) التجاني والتباعد (٤) الالحاش في النعم والشم
 (٥) حدة

اسِنَّةِ الْقَهْرِ ، طَرِيحُ صَدَمَاتِ الدَّهْرِ . عَضَّتُهُ أُنْيَابٌ^(١)
 النَّوَائِبِ ، وَخَدَشَتْهُ أَظْفَارُ^(٢) الْمَصَائِبِ . نُهَبَتْ كُتُبُهُ
 وَأَمْوَالُهُ ، وَغُصِبَتْ رِحَالُهُ وَاثْقَالُهُ . وَطَالِبُ الثَّارِ
 يَقْصِدُ كُلَّ رَاجِلٍ وَفَارِسٍ ، وَصَاحِبُ الضَّالَّةِ يَتَّبِعُهُمْ
 كُلَّ قَائِمٍ وَجَالِسٍ . وَلَقَدْ عَلِمَ سَيِّدُنَا أَدَامَ اللَّهُ عُلُوَّهُ ،
 أَنَّ وَقْعَةَ مَرَوْ عَمَّرَهَا اللَّهُ كَانَتْ وَاقِعَةً عَامَّةً ، شَمِلَتْ
 كُلَّ جَبْهَةٍ وَخَافِرٍ ، وَطَبَّقَتْ كُلَّ صَاحِحٍ وَصَافِرٍ .
 وَكَانَ قَدْ لَحِقَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِعَسْكَرِ خَوَارِزْمِشَاهٍ
 مِنْ طَبَقَاتِ النَّاسِ أَوْزَاعُ^(٣) وَأَخْيَافُ^(٤) ، وَمِنْ حَشَرَاتِ
 الْأَرْضِ أَنْوَاعٌ وَأَصْنَافٌ . قُصَارَى هَمِّهِمُ الْقَتْلُ

(١) شبه النوائب بذات الأنياب من الوحوش (٢) شبه المصائب

بذات الظفر من الطيور الجارحة (٣) الجماعات (٤) مختلفون

وَالْإِغَارَةُ ، وَمُنْتَهَى أَرْبِهِمُ الْإِحْرَاقُ وَالْإِبَارَةُ ، وَأَوْبَاشُ
 مَرَوْ أَيْضًا كَانُوا يَخْرُجُونَ مِنْ مَكَامِنِهِمْ فِي اللَّيَالِي ،
 وَيَتَعَرَّضُونَ لِبُيُوتِ السَّادَاتِ وَالْمَوَالِي . فَلَيْسَ بِمُسْتَبْعَدٍ
 أَنْ يَكُونَ ظَفِرَ بَكْتِبِهِ مِنْ أَوْلِيكَ الْأَقْوَامِ أَحَدٌ
 لَا يَعْرِفُ شَأْنَهُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَكَانَهُ . أَمَّا أَنَا فَاللَّهُ تَعَالَى
 يَعْلَمُ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ اسْتَشْهَدَهُ بِاطِلًا ، أَنِّي مَا فَتَحْتُ
 لِلْإِغَارَةِ بَابَهُ ، وَلَا فَتَحْتُ كِتَابَهُ . بَلْ ذَهَبْتُ يَوْمًا
 عَلَى مُقْتَضَى إِشَارَتِهِ الْكَرِيمَةِ لِأَحْمَلِ كُتْبَهُ إِلَى
 الْمُعَسْكَرِ . فَلَمَّا دَخَلْتُ دَارَهُ الرَّفِيعَةَ ، وَرَأَيْتُ كُتُبًا
 كَثِيرَةً فَوْقَ مَا يُحِيطُ بِهِ عَدٌّ أَوْ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ حَدٌّ .
 فَقُلْتُ : نَقُلْ هَذِهِ أَمْرٌ مُشْكِلٌ ، وَحَمَلُ هَذِهِ خَطْبٌ
 مُعْضِلٌ ^(١) . فَتَرَكْتُهَا بِجَالَتِهَا فِي أَمَا كِنِهَا ، وَخَلَّيْتُهَا

(١) مشكل يدعو للحيطة

بِرُمَّتِهَا فِي مَعَادِنِهَا . وَخَرَجْتُ كَمَا دَخَلْتُ خَالِي
 الْحَقَائِبِ ، فَارِغَ الزَّكَائِبِ . فَإِنْ كُنْتُ غَضَبْتُ يَوْمَ
 وَقْعَةٍ مَرَوٍ أَوْ قَبْلَهَا أَوْ بَعْدَهَا مِنْ كُتُبِهِ - أَدَامَ اللَّهُ
 عُلوَّهُ - كِتَابًا أَوْ جُزْءًا ، أَوْ دَفْتَرًا أَوْ مِنْ سَائِرِ
 أَمْوَالِهِ شَيْئًا صَغُرَ أَوْ جَلَّ ، كَثُرَ أَوْ قَلَّ ،
 أَوْ رَضِيتُ أَنْ يَغْضِبَهُ أَحَدٌ مِنْ أَتْبَاعِي ، وَالْمُسْتَمِينَ
 إِلَيَّ . أَوْ عَرَفْتُ غَاصِبًا غَضَبَهُ ، أَوْ نَاهِبًا نَهَبَهُ .
 فَأَخْفَيْتُ ذَلِكَ عَنْهُ ، أَوْ كَتَمْتُهُ مِنْهُ . فَأَنَا بَرِيءٌ
 مِنَ اللَّهِ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنِّي . وَإِنْ كُنْتُ قَدْ فَعَلْتُ
 بِنَفْسِي شَيْئًا مِمَّا ذَكَرْتُ ، أَوْ رَضِيتُ أَنْ يَفْعَلَهُ
 أَحَدٌ مِنَ الْمُتَعَلِّقِينَ بِي ، أَوْ عَرَفْتُ فَاعِلًا فَعَلَهُ :
 فَعَلَى اللَّهِ أَنْ أَحْبَجَ يَلْتَهُ الْمُعْظَمُ الْمُكْرَمَ رَاجِلًا حَافِيًا ،

لِي عَاتِقِي الزَّادُ وَالْمَزَادَةُ عَشْرَ مَرَّاتٍ ، وَإِنْ كُنْتُ
فَعَلْتُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ أَوْ رَضِيتُ أَنْ يَفْعَلَهُ
بَدْنِي مِنَ الْمُتَعَلِّقِينَ بِي ، أَوْ عَرَفْتُ فَاعِلًا فَعَلَهُ ،
كُلُّ مَالٍ مَلَكَتُهُ يَمِينِي ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى
مَا كُنِيَ الْحَرَمَيْنِ . وَإِنْ كُنْتُ قَدْ فَعَلْتُ شَيْئًا مِنْ
أَنْ أَوْ رَضِيتُ أَنْ يَفْعَلَهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَعَلِّقِينَ بِي ،
عَرَفْتُ فَاعِلًا فَعَلَهُ ، فَكُلُّ عَبْدٍ مَلَكَتُهُ أَوْ
مَلَكَهُ فَهُوَ حُرٌّ . وَإِنْ كُنْتُ قَدْ فَعَلْتُ شَيْئًا مِنْ
أَنْ أَوْ رَضِيتُ أَنْ يَفْعَلَهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَعَلِّقِينَ بِي ،
عَرَفْتُ فَاعِلًا فَعَلَهُ فَكُلُّ امْرَأَةٍ تَزَوَّجْتُهَا أَوْ
زَوَّجْتُهَا فَهِيَ طَالِقَةٌ مِنِّي ثَلَاثَ طَلَقَاتٍ . هَذِهِ
أَيْمَانُ وَالنُّذُورُ كَتَبْتُهَا بَيْنَانِي ، وَأَجْرَيْتُهَا عَلَى لِسَانِي ،

لَا خَوْفًا مِنْ غَوَائِلِهِ ^(١) ، وَلَا هَرَبًا مِنْ حَبَائِلِهِ ^(٢) ،
فَإِنَّ الصُّلْحَ آمَنَ أَهْلَهُ ، وَالْإِسْلَامَ جَبَّ ^(٣) مَا قَبْلَهُ ،
وَلَكِنْ إِظْهَارًا لِحُلُوقِ رَاحَتِي ، وَبَرَاءَةٍ سَاحَتِي . وَشَفَقَةً
عَلَيْهِ — أَدَامَ اللَّهُ عُلوَّهُ — وَصِيَانَةً لِفَاضِلِ مِثْلِهِ ، الَّذِي
لَا مِثِيلَ لَهُ فِي أَقْطَارِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ ، وَأَقَاصِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَةً غَيْرَ مُسْتَصَوَّبَةٍ ،
وَيَخْتَارَ شَرِيعَةً غَيْرَ مُسْتَعْدَبَةٍ . عَصَمَنَا اللَّهُ وَإِيَّاهُ
مِمَّا يُورِثُ ذَمًّا ، وَيُعْقِبُ إِثْمًا .

وَقَدْ بَعَثْتُ فِي قِرَانِ هَذِهِ الْخِدْمَةِ خِدْمَةً أُخْرَى
مُفْرِطَةً فِي الطَّوْلِ ، مُجَرَّرَةً الذَّيْلَ ، مَنْسُوجَةً عَلَى
مِنْوَالِ آخَرَ ، كَالْكَيِّ لِلدَّاءِ إِذَا اسْتَحْكَمَتْ شِدَّتُهُ ،

وَتَطَاوَلَتْ مُدَّتُهُ ، وَعَجَزَ الْأُسَاةُ^(١) عَنْ مُعَالَجَتِهِ ،
وَالْأَطِبَاءُ عَنْ مَدَاوَاتِهِ . وَهَدَيْتُهُ — أَدَامَ اللَّهُ عُلوَّهُ —
فِيهَا النَّجْدَيْنِ^(٢) ، وَأَرَيْتُهُ الطَّرِيقَيْنِ . وَدَفَعْتُ عَنَانَ
الْاِخْتِيَارِ إِلَيْهِ ، وَوَضَعْتُ زِمَامَ الْاِثَارِ فِي يَدَيْهِ .
لَيْسَلُكَ مِنْهُمَا مَا يَشَاءُ : إِمَّا مَا يُسَرُّ بِهِ وَإِمَّا
مَا يُسَاءُ . وَفَقَّهُهُ اللَّهُ لِلْأَصُوبِ وَالْأَصْلَحِ . وَأَسْعَدَهُ
بِالْأَرْشَدِ وَالْأَنْجَحِ ، وَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ ،
وَالْفَائِزِينَ الْمُفْلِحِينَ . وَالسَّلَامَ .

✱

✱ ✱

وَإِنِّي لَأَرَوِي لَكَ — فِي غَيْرِ تَمْثِيلٍ لِعَصْرِ
أَوْ أُسْلُوبٍ زَمَنِي — أَنَّ أَكْثَرَ مَا كَانَ يُعْجِبُهُ — رَحْمَةُ
اللَّهِ — مِنْ كِتَابِ الْأَمْالِي وَلَا سِيَّمَا أَخْرِيَاتِ أَيَّامِهِ

(١) الْأَطِبَاءُ أَوْ هُوَ أَشْمَلُ مِنَ الْأَطِبَاءِ (٢) طَرِيقِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَيْ أَنَّ لَهُ اخْتِيَاراً

وَصِيَّةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادٍ ، الَّتِي أَوْصَى بِهَا مُحَمَّدًا ،
 حِينَما حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ ، مِمَّا نُثَبِّتُهُ لَكَ ، لِجَزِيلِ نَفْعِهِ
 وَكَبِيرِ فَائِدَتِهِ ، وَرَائِعِ أَدْبِهِ ، وَتَخَيَّرِ لَفْظِهِ ، وَسَدِيدِ
 نَصَحِهِ وَحَصِيفِ رَأْيِهِ .

وَإِنِّي أَطْلُبُ إِلَيْكَ أَنْ تَسْتَوْعِبَ هَذِهِ الدَّرَّةَ
 الْيَتِيمَةَ ، لِمَا فِيهَا مِنْ عِظَةِ رَائِعَةٍ ، وَحِكْمَةٍ جَامِعَةٍ ،
 وَعِبْرَةٍ نَاصِعَةٍ ، وَأَنْ تَسْتَذْكِرَهَا جَيِّدًا ، وَتُنْعِمَ النَّظَرَ
 فِي مُحتَوِيَّاتِهَا وَمَنَاحِيهَا ، حِينَ قَرَأَتِكَ رِسَالَةَ الْغَزَالِي
 « أَيُّهَا الْوَلَدُ » ؛ الَّتِي سَنُطَالِعُكَ بِهَا فِيمَا سَنَنْشُرُهُ
 عَلَيْكَ مِنْ كُتُبِنَا ، عَنْ تِلْكَ الشَّخْصِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
 الْفَذَّةِ ، وَبِتَيْسِيرِهِ وَتَوْفِيقِهِ ، وَحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ ، وَمَنْهِ
 وَفَضْلِهِ ، وَكَمْ يَكُونُ جِدُّ جَمِيلٍ إِذَا كُنْتُ مِمَّنْ وَهَبَهُ

اللَّهُ مَنْطِقَ الْمُقَابَلَةِ ، وَحَبَاكَ بِلِقَاحِ الْمُوَازَنَةِ ، لِتُقَارَنَ
 بَيْنَ الْمَادَّاتَيْنِ ، فَتَظْفَرَ بِحُسْنِ الْبَصِيرَةِ ، وَدِقَّةِ الْمُلَاحَظَةِ ،
 وَتَكْتَسِبَ بِذَلِكَ تَرْعِيَةً فِي قُوَّةِ الْمُقَاسَةِ ، وَتُمَدَّ
 بِقَارِحَةِ الْكَمَالِ فِي التَّحَرِّيِ وَالِإِسْتِقْرَاءِ ، وَكُنْتَ
 صَادِرًا عَنْ شِرْعَةِ الْأَخْصَائِيِّينَ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَثَارِ ،
 وَرُؤَادِ أَسَاتِيدِ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ ، وَمَنْ فِي سِلَكِهِمْ ،
 مِمَّنْ نَبَّهَ شَأْنَهُمْ فِي تَبْيِينِ الْعُمُودِ ، وَتَعَرُّفِ الْعُصُورِ ،
 فِي اسْتِكْنَاهِ جَوَاهِرِ الْأَشْيَاءِ ، وَحَقَائِقِ الْأُمُورِ ،
 وَإِنَّكَ لَتَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ؛ وَقَدْ أَصَبْتَ نُجْحًا
 مُؤَزَّرًا فِي عِلْمِ النِّقْدِ ، وَكُنْتَ الصَّيْرِفِيَّ الْمَاهِرَ فِي صِيَاغَةِ
 الْكَلَامِ ، وَالْحَكَمِ الْعَدْلِ بَيْنَ أَيْمَّةِ الْبَيَانِ قَالَ (١) :

(١) أنظر كتاب الأمالي ص ٢٠٢ — ٢٠٤ ج ٢ وقد راجعناها

على نصوص أسامة بن منقذ ص ٢٢ من كتاب لباب الأبواب

يَا بُنَيَّ ، أَرَى دَاعِيَ الْمَوْتِ لَا يُقْلَعُ ، وَمَنْ
 مَضَى مِنَّا لَا يَرْجِعُ ، وَمَنْ بَقِيَ فَإِلَيْهِ يَنْزِعُ ،
 وَلَيْسَ أَحَدٌ عَلَيْهِ بِمُتَّعٍ . وَإِنِّي أَوْصِيكَ - يَا بُنَيَّ -
 بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظْهَا : عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ الْعَظِيمِ ،
 وَلْيَكُنْ أَوَّلَى الْأُمُورِ بِكَ الشُّكْرُ لِلَّهِ ، وَحُسْنُ
 النِّيَّةِ ، فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ . وَاعْلَمْ بِأَنَّ (الشَّاكِرَ)
 مُزَادٌ ، وَالتَّقْوَى خَيْرُ زَادٍ . وَكُنْ - يَا بُنَيَّ - كَمَا
 قَالَ الْحُطَيْئَةُ

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ
 وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيدُ
 وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا
 وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْآتِقِ مَزِيدٌ

وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ قَرِيبُ

وَلَكِنَّ الَّذِي يَمْضِي بَعِيدُ

ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ لَا تَرْهَدَنَّ فِي مَعْرُوفٍ ، فَإِنَّ

الدَّهْرَ ذُو صُرُوفٍ ، وَالْأَيَّامَ ذَاتُ نَوَائِبَ ، عَلَى

الشَّاهِدِ وَالْغَائِبِ . فَكَمْ مِنْ رَاغِبٍ كَانَ مَرْغُوبًا

إِلَيْهِ ، وَطَالِبٍ قَدْ أَصْبَحَ مَطْلُوبًا مَا لَدَيْهِ . وَأَعْلَمَ

بِأَنَّ الزَّمَانَ ذُو أَلْوَانٍ ، وَمَنْ يَصْحَبِ الزَّمَانَ

يَرَى الْهَوَانَ ، وَكُنْ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي الدُّثَلِ

(أَبُو الْأَسْوَدِ الدَّؤَلِيُّ)

وَعُدَّ مِنَ الرَّحْمَنِ فَضْلًا وَنِعْمَةً

عَلَيْكَ إِذَا مَا جَاءَ لِلْخَيْرِ طَالِبُ

وَإِنْ امْرَأً لَا يُرْتَجَى الْخَيْرُ عِنْدَهُ
يَكُنْ هَيْنًا ثَقَلًا عَلَى مَنْ يُصَاحِبُ
فَلَا تَمْنَنْ ذَا حَاجَةٍ جَاءَ طَالِبًا
فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ رَاغِبُ
رَأَيْتُ تَصَارِيفَ الزَّمَانِ بِأَهْلِهِ
وَيَنْبَهُهُمْ فِيهِ تَكُونُ النَّوَائِبُ

ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، كُنْ جَوَادًا بِالْمَالِ فِي مَوَاضِعِ
الْحَقِّ ، بَخِيلًا بِالْأَسْرَارِ عَنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ ، فَإِنَّ
أَحْمَدَ جُودِ الْحُرِّ ، الْإِنْفَاقُ فِي وُجُودِ الْبَرِّ ، وَإِنَّ أَحْمَدَ
بُخْلِ الْحُرِّ ، الضَّنُّ بِمَكْتُومِ السِّرِّ ، وَكُنْ - يَا بُنَيَّ -
كَمَا قَالَ : قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ الْأَنْصَارِيُّ

أَجُودُ بِمَضْنُونِ التَّلَادِ^(١) وَإِنِّي
 بِسِرِّكَ عَمَّنْ سَالَنِي لَضَيْنُ
 إِذَا جَاوَزَ الْإِثْنَيْنِ سِرٌّ فَإِنَّهُ
 بِنَتْ^(٢) وَتَكْسِيرِ الْحَدِيثِ قَيْنُ
 وَإِنْ ضَيَّعَ الْإِخْوَانُ^(٣) سِرًّا فَإِنِّي
 كَتُومٌ لِأَسْرَارِ الْعَشِيرِ أَمِينُ
 وَعِنْدِي لَهُ يَوْمًا إِذَا مَا اثْمَثَتْهُ
 مَكَانٌ بِسَوْدَاءِ الْفُؤَادِ مَكِينُ
 ثُمَّ قَالَ : - يَا بُنَيَّ - وَإِنْ غُلِبْتَ يَوْمًا عَنِ الْمَالِ ،
 فَلَا تَدْعِ الْحِيلَةَ بِكُلِّ مَكَانٍ ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ مُغْتَالٌ ،
 وَاللَّيْمَ مُغْتَالٌ ، وَكُنْ أَحْسَنَ مَا تَكُونُ فِي الظَّاهِرِ

(٢) النث : إفشاء السر ونشره

(١) التلاد : المال الموروث

(٣) في الأصل الأقوام

حَالًا . أَقَلَّ مَا تَكُونُ فِي الْبَاطِنِ مَالًا . وَاعْلَمْ أَنَّ
 الْكَرِيمَ مَنْ كَرُمَتْ عِنْدَ الْحَاجَةِ طَبِيعَتُهُ ، وَظَهَرَتْ
 عِنْدَ الْإِنْفَازِ نِعْمَتُهُ ، وَكَفَى كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ
 ابْنُ خِزَّاقٍ الْعَبْدِيُّ :

وَجَدْتُ أَبِي قَدْ أَوْرَثَهُ أَبُوهُ
 خِلَالًا قَدْ تَعَدُّ مِنْ الْمَعَالِي
 فَأَكْرَمُ مَا تَكُونُ عَلَى نَفْسِي
 إِذَا مَا قَلَّ فِي الْأَزْمَاتِ مَالِي
 فَتَحَسَّنُ سِيرَتِي وَأَصُونُ عِرْضِي
 وَيَحْمِلُ عِنْدَ أَهْلِ الرَّأْيِ حَالِي
 فَإِنْ نِلْتُ الْغِنَى لَمْ أَغْلُ فِيهِ
 وَلَمْ أَخْصُصْ بِجَفَوَتِي الْمَوَالِي

ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، وَإِنْ سَمِعْتَ كَلِمَةً مِنْ حَاسِدٍ ،
فَكُنْ كَأَنَّكَ لَسْتَ بِالشَّاهِدِ ، فَإِنَّكَ إِنْ أَمْضَيْتَهَا
حَيَالَهَا^(١) ، وَقَعَ الْعَيْبُ عَلَى مَنْ قَالَهَا . وَقَدْ كَانَ
يُقَالُ : إِنَّ الْأَرِيبَ الْعَاقِلَ هُوَ الْفَطِنُ الْمُتَغَافِلُ ،
وَكُنْ كَمَا قَالَ حَاتِمُ الطَّائِي :

وَمَا مِنْ شَيْمَتِي شَتْمُ ابْنِ عَمِّي
وَمَا أَنَا مُخْلِفٌ مَنْ يَرْتَجِبُنِي

وَكَلِمَةُ حَاسِدٍ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ
سَمِعْتُ ، فَقُلْتُ : مَرَى فَاَنْفُذِيَّتِي

فَعَابُوهَا عَلَى وَلَمْ تَعِبْنِي
وَلَمْ يَغْرَقْ لَهَا يَوْمًا جَبِينِي

(١) حياها : مقابلتها

وَذُو اللَّوْنَيْنِ يَلْقَانِي طَلِيقًا

وَلَيْسَ إِذَا تَغَيَّبَ يَأْتِلِينِي ^(١)

بَصُرْتُ بَعِيْبِهِ فَكَفَفْتُ عَنْهُ

مُحَافَظَةً عَلَى حَسْبِي وَدِينِي

ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، لَا تُوَاخِ أَخًا حَتَّى تُعَاشِرَهُ

وَتَعْرِفَ أَمْرَهُ ، وَتَتَفَقَّدَ مَوَارِدَهُ وَمَصَادِرَهُ ؛ فَإِذَا

اسْتَطَبَّتِ الْعُسْرَةُ ، وَرَضِيتِ الْخُبْرَةُ ، فَآخِهِ عَلَى إِقَالَةِ

الْعُسْرَةِ ، وَالْمُوَاسَاةِ فِي الْعُسْرَةِ . وَكُنْ — يَا بُنَيَّ —

كَمَا قَالَ الْمُقَنَّنُ الْكِندِيُّ :

أَبْلُ الرِّجَالِ إِذَا أَرَدْتَ إِخَاءَهُمْ

وَتَوَسَّيْنٍ فِعَالَهُمْ وَتَفَقَّدِ

(١) أُلُوت : أَى مَا قَصُرَتْ أَوْ مَا اسْتَطْعَتْ

فَإِذَا ظَفِرْتَ بِذِي الْأَمَانَةِ وَالْتَقَى

فِيهِ الْيَدَيْنِ - قَرِيرَ عَيْنٍ - فَاشْدُدْ

وَإِذَا رَأَيْتَ - وَلَا مُحَالَةَ - زَلَّةً

فَعَلَى أَخِيكَ بِفَضْلِ حِمَاكَ فَارْدُدْ

ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، وَإِذَا أُحِبِّتَ حَبِيبًا فَلَا

تُقْرِطْ ، وَإِذَا أَبْغَضْتَ بَغِيضًا فَلَا تُشْطِطْ ، فَإِنَّهُ

قَدْ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ :

« أَحْبَبُ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَّا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ

بَغِيضَكَ يَوْمًا مَّا ، وَأَبْغَضُ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَّا ،

عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَّا . وَكُنْ كَمَا قَالَ

الشَّاعِرُ هَذَبَةُ بْنُ الْخَشَرِمِ الْعُذْرِيُّ

وَ كُنْ مَعْقِلًا لِلْخَيْرِ وَاصْفَحْ عَنِ الْخُلَا^(١)

فَإِنَّكَ رَأَى مَا حَيَّتَ وَسَامِعُ

وَأَحْبَبُ - إِذَا أَحْيَيْتَ - حُبًّا مُقَارِنًا

فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ نَارِعُ

وَأَبْغَضُ إِذَا أَبْغَضْتَ بَغْضًا مُقَارِبًا

فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى الْوُدُّ رَاجِعُ

وَعَلَيْكَ - يَا بُنَى - بِصُحْبَةِ الْأَخْيَارِ وَصِدْقِ

الْحَدِيثِ ، وَإِيَّاكَ وَصُحْبَةَ الْأَشْرَارِ فَإِنَّهُ عَارٌ . وَكُنْ

كَمَا قَالَ الدَّارِمِيُّ :

صَاحِبِ الْأَخْيَارِ وَارْتَبِ فِيهِمْ

رُبَّ مَنْ صَاحَبَتْهُ مِثْلُ الْجَرْبِ

وَدَعَ النَّاسَ فَلَا تَشْتُمُهُمْ ،
وَإِذَا شَاتَمْتَ فَاشْتُمُ ذَا حَسَبٍ
إِنَّ مَنْ شَاتَمَ وَغَدَا كَالَّذِي
يَشْتَرِي الصُّفْرَ بِأَعْيَانِ الذَّهَبِ
وَاصْدُقِ النَّاسَ إِذَا حَدَّثْتَهُمْ
وَدِعِ الْكِذْبَ فَمَنْ شَاءَ كَذَبَ
رُبَّ مَهْزُولٍ سَمِينٍ عَرِضُهُ
وَسَمِينِ الْجِسْمِ مَهْزُولُ الْحَسَبِ
ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، وَإِذَا آخَيْتَ فَآخِ مَنْ يُعَدُّ
لِنَوَائِبِ الزَّمَانِ ، وَعَلَيْكَ بِذَوِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ
تَقَفُّهُمْ الْأَدَابُ وَوَقَفْتَهُمُ الْأَحْسَابُ ، فَإِنَّهُمْ أَطِيبُ
مُخْتَبَرٍ ، وَأَكْرَمُ مُحْتَضَرٍ ، وَأَعَذُّ مُعْتَصِرٍ ، وَآخِذُ

إِخَاءَ كُلِّ جَهُولٍ، وَصُحْبَةَ كُلِّ عَجُولٍ؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ
الزَّلَّةَ، وَإِنْ عَرَفَ الْعِلَّةَ، سَرِيعُ غَضَبِهِ، عَالٍ لَهْبُهُ
إِنْ سَأَلَ الْخُفَّ، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ، يَرَى مَا يُعْطِيكَ
غُرْمًا، وَمَا يَأْخُذُ مِنْكَ غُفْمًا؛ فَهُوَ يُرْضِيكَ مَا طَمِعَ
فِيكَ؛ فَإِذَا يَتَّسِرَ مِنْ خَيْرِكَ، مَالَ إِلَى غَيْرِكَ.
وَفِي مِثْلِهِ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

لَا تُوَاخِ - الدَّهْرَ - جَبَسًا^(١) رَاضِعًا
مُلْهَبَ^(٢) الشَّرِّ قَلِيلَ الْمَنْفَعَةِ
مَا يَنْلُ مِنْكَ فَأَخْلَى مَقْنَمَ
وَيَرَى ظَرْفًا بِهِ أَنْ يَمْنَعَهُ
يَسْأَلُ النَّاسَ وَلَا يُعْطِيهِمْ
تَرَكَلَتْهُ أُمُّهُ مَا أَطْمَعَهُ

(١) الجبس: ظاهر الجهل (٢) ملهّب الشر: شديده

ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، مَنْ عَتَبَ عَلَى الزَّمَانِ ، وَتَتَبَعَ
 عَثَرَاتِ الْإِخْوَانِ ، قَطَعَهُ صَدِيقُهُ ، وَمَلَّهٗ رَفِيقُهُ ،
 وَاحْتَمَاهُ الْأَهْلُونَ ، وَظَفَرَ بِهِ الشَّامِتُونَ ، وَمَنْ سَارَ
 فِي الْبِلَادِ ، ثَمَرَ الْمُرَادِ ، وَطَالِبُ الْكَفَافِ — بِالْقَنَاعَةِ
 وَالْعَفَافِ — : يَعِيشُ حَمِيدًا ، وَيَمُوتُ فَقِيرًا .
 وَقَدْ قَالَ النَّابِغَةُ :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَطْلُبْ مَعَاشًا لِنَفْسِهِ
 شَكَ الْفَقْرَ أَوْ لَامَ الصَّدِيقَ فَأَكْثَرَ
 وَصَارَ عَلَى الْأَذْنَيْنِ^١ كَلًّا^٢ وَأَوْشَكَتْ
 صِلَاتُ ذَوِي الْقُرْبَى لَهُ أَنْ تَنْكَرَا

(١) أى الأقربين (٢) الكل : العالة

فَسِرْ فِي بِلَادِ اللَّهِ وَالتَّمِيسِ الْغِنَى ،
 تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوتَ فَتُعْذِرَا
 وَمَا طَالِبُ الْحَاجَاتِ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ
 مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَنْ أَجَدَّ وَشَمَّرَا
 وَلَا تَرْضَ مِنْ عَيْشٍ بِدُونٍ وَلَا تَتَمَّ
 وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ بَاتَ مُعْسِرًا
 ثُمَّ قَالَ : وَلْيَكُنْ إِخْوَانُكَ وَأَهْلُ بَطَانَتِكَ أُولَى
 الدِّينِ وَالْعَفَافِ ، وَالْمَرْوَاتِ وَالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ ؛
 فَإِنِّي رَأَيْتُ إِخْوَانَ الْمَرْءِ يَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَلِسَانُهُ
 الَّذِي يَصُولُ بِهِ ، وَجَنَاحُهُ الَّذِي يَنْهَضُ بِهِ . فَاصْحَبْ
 هَوًى لَا تَجِدُهُمْ إِخْوَانًا ، وَعَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا . وَاجْتَنِبْ
 الصَّغَارَ الْأَخْطَارَ ، اللَّثَامَ الْأَقْدَارَ ، الَّذِينَ لَا يُحَامُونَ

عَلَى حَسَبٍ ، وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَى نَسَبٍ ، وَلَا يَصْبِرُونَ
عَلَى نَائِبَةٍ ، وَلَا يَنْظُرُونَ فِي عَاقِبَةٍ ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ رَأَوْكَ
فِي رَخَاءٍ سَأَلُوكَ ، وَإِنْ رَأَوْكَ فِي شِدَّةٍ أَسْأَلُوكَ ؛
وَلَعَلَّهُمْ أَنْ يَكُونُوا عَلَيْكَ مَعَ بَعْضِ الْأَعْدَاءِ .

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الرَّجُلَ بِلَا خَدِينٍ ^(١) ، كَذَى الشَّمَالِ
بِلَا يَمِينٍ . وَاخْلِطْ نَفْسَكَ مَعَ الْأَبْرَارِ ، وَطَهِّرْهَا
مِنَ الْفُجَّارِ ، فَالْمَرْءُ يُعْرِفُ بِقَرِينِهِ . وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ :
وَقَارِنْ إِذَا قَارَنْتَ حُرًّا فَإِنَّمَا

يَزِينُ وَيُزِرِي بِالْفَتَى قَرَنَاؤُهُ

وَلَنْ يَهْلِكَ الْإِنْسَانُ إِلَّا إِذَا أَتَى

مِنَ الْأَمْرِ مَا لَمْ يَرْضَهُ نَصَحَاؤُهُ

(١) الخدن والحدن : الصاحب والصديق .

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ

وَلَا خَيْرَ فِي وَجْهِ إِذَا قَلَّ مَاؤُهُ

ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، قَدْ جَعْتُ لَكَ مَصَالِحَ نَفْسِكَ ،
فَاسْتَفْتِحِ اللَّهَ بِمَسَامِعِ عَقْلِكَ ؛ وَتَفَهِّمْ مَا وَصَفْتُ
لَكَ بِالتَّجَارِبِ ؛ تَحْزُ صِلَاحَ الْعَوَاقِبِ .

وَأَعْلَمْ أَنَّ مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ تَوَرَّعَ ، وَمَنْ غَفَلَ
عَنْهَا خَسِرَ ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ نَجَا ، وَمَنْ اعْتَبَرَ
أَبْصَرَ ، وَمَنْ فَهِمَ عِلِمَ ، وَفِي التَّوَانِي تَكُونُ الْهَلَكَةُ
وَفِي التَّانِي ، السَّلَامَةُ ، وَزَارِعُ الْبَرِّ يَحْصُدُ الشُّرُورَ ،
وَالْقَلِيلُ مَعَ الْقَنَاعَةِ فِي الْقَصْدِ ، خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ
مَعَ السَّرَفِ فِي الْمَذَلَّةِ ، وَالتَّقْوَى نَجَاةٌ ، وَالطَّاعَةُ
مُلْكٌ ، وَحَلِيفُ الصِّدْقِ مُوَفَّقٌ ، وَصَاحِبُ

الْكَذِبِ مَخْذُولٌ ؛ وَصَدِيقُ الْجَاهِلِ تَعِبٌ ، وَنَدِيمُ
 الْعَاقِلِ مُغْتَبِطٌ . فَإِذَا جَهَلْتَ فَسَلْ ، وَإِذَا نَدِمْتَ
 فَأَقْلَعْ ، وَإِذَا غَضِبْتَ فَأَمْسِكْ ، وَمَنْ لَأَقَاكَ بِالْبَشْرِ
 فَقَدْ أَدَّى إِلَيْكَ الصَّنِيعَةَ ، وَمَنْ أَقْرَضَكَ الشَّئَاءَ
 فَأَقْضِهِ الْفَضْلَ .

وَضَعُ - يَا بُنَى الصَّنَائِعِ عِنْدَ الْكِرَامِ ذَوِي
 الْأَحْسَابِ ، وَلَا تَضَعَنَّ مَعْرُوفَكَ عِنْدَ اللَّثَامِ فَتُضِيعَهُ ،
 فَإِنَّ الْكَرِيمَ يَشْكُرُكَ وَيَرْضُكَ^(١) بِالْمَكَافَاةِ ، وَإِنَّ
 اللَّئِيمَ يَحْسِبُ ذَلِكَ حَتْمًا ، وَيُوْثِلُ أَمْرَكَ مَعَهُ إِلَى
 الْمَذَلَّةِ وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا أَوْلَيْتَ مَعْرُوفًا لَيْئِمًا
 فَعَدَّكَ قَدْ قَتَلْتَ لَهُ قَتِيلًا

(١) يرضك : يربك : والارصاد الترقب

فَعُدُّ مِنْ ذَاكَ مُعْتَدِرًا إِلَيْهِ
وَقُلْ إِنِّي أَتَيْتُكَ مُسْتَقِيلًا^(١)
فَإِنْ تَغْفِرْ فَمَجْتَرَمٌ^(٢) عَظِيمٌ
وَإِنْ عَاقَبْتَ لَمْ تَظْلِمْ فَتِيلًا
وَإِنْ أَوْلَيْتَ ذَلِكَ ذَا وَفَاءٍ
فَقَدْ أَوْدَعْتَهُ شُكْرًا طَوِيلًا
لَمَّا حَضَرَتِ الْمُهْلَبَ بْنَ أَبِي صُفْرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ
الْوَفَاةُ ، قَالَ لَوْلَدِهِ وَأَهْلِيهِ : أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ،
وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ تُعْقِبُ الْجَنَّةَ ؛ وَإِنَّ
صِلَةَ الرَّحِمِ تُنْسِي^(٣) الْأَجَلَ ، وَتُثْرِي الْمَالَ ، وَتَجْمَعُ
الشَّمْلَ ، وَتُكْثِرُ الْعَدَدَ ، وَتُعَمِّرُ الدِّيَارَ ، وَتُعِزُّ

(١) من استقال الذنب : طلب إقالته منه (٢) مجترم : متخرج

(٣) تزيده فيه

الْجَانِبَ ، وَأَنَّهَا كُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ
مَعْصِيَةَ اللَّهِ تُعْقِبُ النَّارَ ؛ وَإِنَّ قَطِيعَةَ الرَّحِمِ تُورِثُ
الذِّلَّةَ وَالْقِلَّةَ ، وَتُقِلُّ الْعَدَدَ ، وَتُفَرِّقُ الْجَمْعَ ، وَتَذَرُ
الدِّيَارَ بِلَاقِعٍ ^(١) ، وَتُذْهِبُ الْمَالَ ، وَتُطْمِعُ الْعَدُوَّ ،
وَتُبْدِي الْعَوْرَةَ .

يَا بَنِيَّ ، قَوْمَكُمْ قَوْمَكُمْ : إِنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ
فَضْلٌ عَلَيْهِمْ ، بَلْ هُمْ أَفْضَلُ مِنْكُمْ ، إِذْ فَضَّلَوْكُمْ
وَسَوَّدُوكُمْ ، أَوْطَأُوا أَعْقَابَكُمْ ، وَبَلَّغُوا حَاجَتَكُمْ ،
فِيمَا أَرَدْتُمْ وَأَعَانُوكُمْ ؛ فَإِنْ طَلَبُوا فَأَطِيبُوهُمْ ، وَإِنْ
سَأَلُوا فَأَعْطُوهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يَسْأَلُوا فَاِتَدِئُوهُمْ ، وَإِنْ
شَتَمُوا فَاِخْتَمِلُوهُمْ ، وَإِنْ غَشَوْا أَبْوَابَكُمْ فَلْتَفْتَحْ
لَهُمْ وَلَا تَغْلِقْ دُونَهُمْ .

(١) جمع بلقع : وهو الخراب اليَسَابُ

يَا بَنِيَّ إِنِّي أَحِبُّ لِلرَّجُلِ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ
لِفِعْلِهِ الْفَضْلُ عَلَى لِسَانِهِ ، وَأَكْرَهُ لِلرَّجُلِ مِنْكُمْ
أَنْ يَكُونَ لِللِّسَانِ الْفَضْلُ عَلَى فِعْلِهِ .

يَا بَنِيَّ ، اتَّقُوا الْجَوَابَ ، وَزَلَّةَ اللِّسَانِ ، فَإِنِّي
وَجَدْتُ الرَّجُلَ تَعَثُرُ قَدَمُهُ فَيَقُومُ مِنْ زَلَّتِهِ وَيَنْتَعِشُ
مِنْهَا سَوِيًّا ، وَيَزِلُّ لِسَانُهُ فَيُوبِقُهُ وَيَكُونُ فِيهِ هَلَكَاةٌ .
يَا بَنِيَّ ، إِذَا غَدَا عَلَيْكُمْ رَجُلٌ وَرَاحَ فَكْفَى
بِذَلِكَ مَسْأَلَةً وَتَذَكْرَةً بِنَفْسِهِ .

يَا بَنِيَّ ، ثِيَابُكُمْ عَلَى غَيْرِكُمْ أَجْمَلُ مِنْهَا عَلَيْكُمْ ،
وَدَوَابُّكُمْ تَحْتَ غَيْرِكُمْ أَجْمَلُ مِنْهَا تَحْتَكُمْ .

يَا بَنِيَّ ، أَحِبُّوا الْمَعْرُوفَ ، وَأَنْكِرُوا الْمُنْكَرَ
وَاجْتَنِبُوهُ ؛ وَآثَرُوا الْجُودَ عَلَى الْبُخْلِ ؛ وَاصْطَنِعُوا الْعَرَبَ

وَأَكْرَمُوهُمْ ، فَإِنَّ الْعَرَبِيَّ تَعِدُّهُ الْعِدَّةَ فَيَمُوتُ دُونَكَ ،
وَيَشْكُرُ لَكَ ، فَكَيْفَ بِالصَّنِيعَةِ إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ
فِي احْتِمَالِهِ لَهَا وَشُكْرِهِ ، وَالْوَفَاءَ مِنْهُ لِصَاحِبِهَا ؟
يَا بَنِي ، سَوِّدُوا أَكْبَرَكُمْ ، وَاعْرِفُوا فَضْلَ
ذَوِي أَسْنَانِكُمْ ، وَارْحَمُوا صَغِيرَكُمْ وَقَرَّبُوهُ وَالْطِفْؤُهُ ،
وَاجْبُرُوا يَتِيمَكُمْ وَعُودُوا عَلَيْهِ بِمَا قَدَرْتُمْ ، ثُمَّ خُذُوا
عَلَى أَيْدِي سُفَهَائِكُمْ ، وَتَعَاهَدُوا فَقَرَاءَكُمْ وَجِيرَانَكُمْ
بِمَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ ، وَاصْبِرُوا لِلْحَقُوقِ وَنَوَائِبِ الدُّهُورِ ؛
وَاحْذَرُوا عَارَ غَدٍ ، وَعَلَيْكُمْ فِي الْحَرْبِ بِالْأَنَانَةِ
وَالْتَّوَدَّةِ فِي اللَّقَاءِ ، وَعَلَيْكُمْ بِالتَّيَاسِ الْخُلْدِيَّةِ فِي
الْحَرْبِ لِعَدُوِّكُمْ ؛ وَإِيَّاكُمْ وَالنَّزَقَ ^(١) وَالْعَجَلَةَ فَإِنَّ

(١) النزق : الرعونة

الْمَكِيدَةَ وَالْأَنَانَةَ وَالْخَدِيعَةَ أَنْفَعُ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالشَّدَّةِ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ الْقِتَالَ وَالْمَكِيدَةَ مَعَ الصَّبْرِ ، فَإِذَا
كَانَ اللُّقَاءُ ، نَزَلَ الْقَضَاءُ الْمُبْرَمُ . فَإِنْ ظَفَرَ الْمَرْءُ
وَقَدْ أَخَذَ بِالْحَزْمِ قَالَ الْقَائِلُ : قَدْ أَتَى الْأَمْرَ مِنْ
وَجْهِهِ ؛ وَإِنْ لَمْ يَظْفَرْ قَالَ : مَا ضَيَّعَ وَلَا فَرَّطَ وَلَكِنَّ
الْقَضَاءَ غَالِبٌ .

يَا بَنِي ، الزَّمُوا الْحَزْمَ عَلَى أَىِّ الْحَالَيْنِ وَقَعَ الْأَمْرُ ؛
وَالزَّمُوا الطَّاعَةَ وَالْجَمَاعَةَ ؛ وَتَوَاصَلُوا وَتَوَازَرُوا وَتَعَاطَفُوا ،
فَإِنَّ ذَلِكَ يُثَبِّتُ الْمَوَدَّةَ ، وَتَحَابُّوا ؛ وَخُذُوا بِمَا

يَا بَنِي . وَلَيْكُنْ أَوَّلَ مَا تَبَدَّءُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ
 إِذَا أَصْبَحْتُمْ تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ وَالسُّنَنَ ؛ وَآدَاءَ الْفَرَائِضِ ؛
 وَتَادَّبُوا بِأَدَبِ الصَّالِحِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ سَلَفِكُمْ ؛
 وَلَا تُقَاعِدُوا أَهْلَ الدَّعَاةِ وَالرَّيْبَةِ ، وَلَا تُخَالِطُوهُمْ
 وَلَا يَطْمَعَنَّ فِي ذَلِكَ مِنْكُمْ . وَإِيَّاكُمْ وَالْخِفَّةَ فِي
 مَجَالِسِكُمْ وَكَثْرَةَ الْكَلَامِ ، فَإِنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنْهُ صَاحِبُهُ ؛
 وَأَدُّوا حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكُمْ ؛ فَإِنِّي قَدْ أَبْلَغْتُ إِلَيْكُمْ
 فِي وَصِيَّتِي ، وَاتَّخَذْتُ اللَّهَ حُجَّةً عَلَيْكُمْ . ا . ه .



وَمَا دُمْنَا بِسَبِيلِ الْقَوْلِ فِي الْوَصَايَا التَّهْذِيبِيَّةِ ،
 وَالْعِظَاتِ الْحُكْمِيَّةِ ، وَتَثْقِيفِ الْمُحَنِّكِينَ مِنَ الْأَبَاءِ ،
 وَتَشْدِيدِ الْمُجَرَّبِينَ مِنَ النُّبَغَاءِ ، لَا نَرَى مَنَادِحَ لَنَا

مِنْ التَّبَسُّطِ مَعَكَ فِي اخْتِيَارِ يَتِيمَةٍ ثَانِيَةٍ مِنْ مَقْرُوءَاتِ
 الشَّيْخِ ، لَا لِأَنَّهَا تُثَمِّلُ لَكَ أَدَبَ الْقَوْمِ الرَّائِعِ
 فَحَسَبُ ، بَلْ لِأَنَّهَا تُبَصِّرُكَ بِوُجْهَاتِ نَظَرِهِمُ الْمُسَدَّدَةِ
 الْمُوَفَّقَةِ فِي التَّعَالِيمِ الْخُلُقِيَّةِ ، وَالدَّرُوسِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ،
 وَالتَّجَارِيِبِ النَّفْسِيَّةِ ، وَتُصَوِّرُ لَكَ آرَاءَ الْمَدْرَسَةِ
 الْقَدِيمَةِ — إِنْ شِئْتَ تَعْبِيرًا حَدِيثًا — فِيمَا رَسَمْتَهُ
 فِي مَاهِيَةِ الْمُقَوِّمَاتِ الذَّاتِيَّةِ ، وَالْمُعَايِيرِ الْأَخْلَاقِيَّةِ
 لِلنَّجَاحِ فِي مُعْتَرِكِ الْحَيَاةِ وَهَآكَ ذِي الْيَتِيمَةِ
 الثَّانِيَةِ ، وَهِيَ نُحْبَةٌ مِنْ وَصِيَّةِ ابْنِ سَعِيدٍ الْمَغْرِبِيِّ
 لِابْنِهِ وَقَدْ أَرَادَ السَّفَرَ وَنُكْرِرُ لَكَ الْقَوْلَ
 الَّذِي أَذَلَّنَا لَكَ بِهِ فِي الْكَلِمَةِ السَّابِقَةِ مِنْ تَذَكُّرِهَا
 هِيَ الْأُخْرَى حِينَ مُطَالَعَتِكَ رِسَالَةِ الْغَزَالِيِّ « أَيُّهَا

الْوَلَدُ « فِي كُتُبِنَا الْقَادِمَةِ بِمَنْهُ وَحَوْلِهِ : قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ :
 أَوْدِعْكَ الرَّحْمَنُ فِي غُرْبَتِكَ
 مُرْتَقِبًا رُحْمَاهُ فِي أَوْبَتِكَ
 فَلَا تَطِلْ حَبْلَ النَّوَى إِنِّي
 وَاللَّهِ أَشْشَتَاؤُ إِلَى طَلْعَتِكَ
 وَاخْتَصِرِ التَّوْدِيعَ أَخْذًا فَمَا
 لِي نَظِرٌ يَقْوَى عَلَى فُرْقَتِكَ
 وَاجْعَلْ وَصَاتِي نَصْبَ عَيْنٍ وَلَا
 تَبْرَحْ مَدَى الْأَيَّامِ مِنْ فِكْرَتِكَ
 خُلَاصَةُ الْعُمُرِ الَّتِي حُنَّكَتْ
 فِي سَاعَةٍ زُفَّتْ إِلَى فِطْنَتِكَ
 فَلِلتَّجَارِبِ أُمُورٌ إِذَا
 طَالَعَتْهَا تَشَحَّدُ مِنْ غَفْلَتِكَ

فَلَا تَمَنَّ عَنْ وَعِيَهَا سَاعَةً
 فَإِنَّهَا عَوْنٌ إِلَى يَقْظَتِكَ
 وَكُلُّ مَا كَابَدْتَهُ فِي النَّوَى
 إِيَّاكَ أَنْ يَكْسِرَ مِنْ هِمَّتِكَ
 فَلَيْسَ يُدْرَى أَصْلُ ذِي غُرْبَةٍ
 وَإِنَّمَا تُعْرِفُ مِنْ شِمَّتِكَ
 وَامْشِ الْهُوَيْنَا مُظْهِرًا عِفَّةً
 وَابْغِ رِضَا الْأَعْيُنِ عَنْ هَيْئَتِكَ
 وَأَنْطِقْ بِحَيْثُ أَلْعَى مُسْتَقْبَحٌ
 وَاصْمُتْ بِحَيْثُ الْخَيْرُ فِي سَكَّتِكَ
 وَلِجْ عَلَى رِزْقِكَ مِنْ بَابِهِ
 وَأَقْصِدْ لَهُ مَا عِشْتَ فِي بُكَرَتِكَ

وَوَفَّ كَلَّا حَقَّهُ وَلَتَكُنْ
تَكْبِيرُ عِنْدَ الْفَخْرِ مِنْ حَدِّكَ
وَحَيْثُمَا خِيَمْتَ فَاقْصِدْ إِلَى
صُحْبَةِ مَنْ تَرْجُوهُ فِي نُصْرَتِكَ
وَلِلرَّزَايَا وَثْبَةٌ مَا لَهَا
إِلَّا الَّذِي تَذْخُرُ مِنْ عُدَّتِكَ
وَلَا تَقُلْ أَسْلَمَ لِي وَحَدَّتِي
فَقَدْ تُقَاسِي الذَّلَّ فِي وَحْدَتِكَ
وَلَتَجْعَلَ الْعَقْلَ مُحَكَّا وَخُذْ
كَلَّا بِمَا يَظْهَرُ فِي تَقْدَتِكَ
وَاعْتَبِرِ النَّاسَ بِالْفَاطِظِهِمْ
وَاصْحَبْ أَخَا يَرْغَبُ فِي صُحْبَتِكَ

كَمْ مِنْ صَدِيقٍ مُظْهِرٍ نَصَحَهُ
 وَفِكْرُهُ وَقَفَّ عَلَى عَشْرَتِكَ
 إِيَّاكَ أَنْ تَقْرَبَهُ إِنَّهُ
 عَوْنٌ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى كُرْبَتِكَ
 وَأَنْتُمْ نُمُو النَّبْتِ قَدْ زَارَهُ
 غِيبُ النَّدَى وَاسْمُ إِلَى قُدْرَتِكَ
 وَلَا تَضَعِ زَمَنًا مُمَكِّنًا
 تَذْكَارُهُ يَذْكِي لَظِي حَسْرَتِكَ
 وَالشَّرَّ مَهْمَا اسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ
 فَإِنَّهُ حُورٌ عَلَى مُهْجَتِكَ
 يَا بُنَى الذِّى لَا نَاصِحَ لَهُ مِثْلِي ، وَلَا مَنْصُوحَ لِي
 مِثْلُهُ ، قَدْ قَدَّمْتُ لَكَ فِي هَذَا النِّظْمِ مَا إِنْ أَخْطَرْتَهُ

بِمَخَاطِرِكَ فِي كُلِّ أَوَانٍ ، رَجَوْتُ لَكَ حُسْنَ الْعَاقِبَةِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَإِنَّ أَخَفَّ مِنْهُ لِلْحِفْظِ ، وَأَعْلَقَ
بِالْفِكْرِ ، وَأَحَقَّ بِالتَّقْدِمِ قَوْلُ الْأَوَّلِ :

يَزِينُ الْغَرِيبَ إِذَا مَا اغْتَرَبَ

ثَلَاثٌ فَمِنْهُنَّ حُسْنُ الْأَدَبِ

وِثَانِيَّةٌ حُسْنُ أَخْلَاقِهِ

وِثَالِثَةٌ اجْتِنَابُ الرَّيْبِ

وَاصْغَ يَا بُنَى إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ يَتِيمَةُ الدَّهْرِ ،

وَسَلِّمُ الْكَرِيمِ وَالصَّبْرِ :

وَلَوْ أَنَّ أَوْطَانَ الدِّيَارِ نَبَتْ بِكُمْ

لَسَكَنْتُمْ الْأَخْلَاقَ وَالْأَدَابَا

إِذْ حُسْنُ الْخُلُقِ أَكْرَمُ نَزِيلٍ ، وَالْأَدَبُ أَرْحَبُ

مَنَزَلٍ ، وَلِتُكُنَّ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ فِي أَدِيبٍ مُتَغَرَّبٍ ،
 وَكَانَ كُلَّمَا طَرَأَ عَلَى مَلِكٍ فَكَأَنَّهُ مَعَهُ وَلَدٌ وَإِلَيْهِ
 قَصَدَ ، غَيْرَ مُسْتَرِيبٍ بِدَهْرِهِ ، وَلَا مُنْكَرٍ شَيْئاً
 مِنْ أَمْرِهِ ، وَإِذَا دَعَاكَ قَلْبُكَ إِلَى صُحْبَةٍ مَنْ أَخَذَ
 بِجَمَاعِعِ هَوَاهُ ، فَاجْعَلِ التَّكَلُّفَ لَهُ سُلْماً ، وَهُبَّ
 فِي رَوْضِ أَخْلَاقِهِ هُبُوبَ النَّسِيمِ ، وَحُلَّ بِطَرْفِهِ حُلُولَ
 الْوَسَنِ ، وَانْزِلْ بِقَلْبِهِ نُزُولَ الْمَسْرَةِ ، حَتَّى يَتِمَّكَنَ لَكَ
 وَدَادُهُ ، وَيَخْلُصَ فِيكَ اعْتِقَادُهُ ، وَطَهَّرْ مِنَ الْوُقُوعِ
 فِيهِ لِسَانَكَ ، وَأَغْلِقْ سَمْعَكَ ، وَلَا تُرَخِّصْ فِي جَانِبِهِ
 لِحْسُودَ لَكَ مِنْهُ ، يُرِيدُ إِبْعَادَكَ عَنْهُ لِمَنْفَعَةٍ ، أَوْ
 حَسُودٍ لَهُ يَغَارُ لِتَجْمُلَ بِصُحْبَتِكَ ، وَمَعَ هَذَا فَلَا
 تَغْتَرَّ بِطُولِ صُحْبَتِهِ ، وَلَا تَتَمَهَّدُ بِدَوَامِ رَقْدَتِهِ ، فَقَدْ

يُنَبِّهُهُ الزَّمَانُ ، وَيَتَغَيَّرُ مِنْهُ الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ ، وَإِنَّمَا
الْعَاقِلُ مَنْ جَعَلَ عَقْلَهُ مِيعَارًا ، وَكَانَ كَالْمِرْآةِ يَلْقَى
كُلَّ وَجْهِ بِمِثَالِهِ ، وَفِي أَمْثَالِ الْعَامَّةِ : مَنْ سَبَقَكَ
بِیَوْمٍ ، فَقَدْ سَبَقَكَ بِعَقْلِ ، فَاحْتَذِ بِأَمْثَلَةٍ مَنْ جَرَّبَ ،
وَاسْتَمِعْ إِلَى مَا خَلَدَ الْمَاضُونَ بَعْدَ جَهْدِهِمْ وَتَعَبِهِمْ مِنْ
الْأَقْوَالِ ، فَإِنَّهَا خُلَاصَةُ عُمْرِهِمْ ، وَزُبْدَةُ تَجَارِبِهِمْ ،
وَلَا تَتَّكِلْ عَلَى عَقْلِكَ ، فَإِنَّ النَّظَرَ فِيمَا تَعِبَ فِيهِ النَّاسُ
طُولَ أَعْمَارِهِمْ ، وَابْتِاعُوهُ غَالِيًا بِتَجَارِبِهِمْ ، يُرْبِحُكَ
وَيَقَعُ عَلَيْكَ رَخِيصًا ؛ وَإِنْ رَأَيْتَ مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَمَرْوَةٌ
وَتَجَرِبَةٌ فَاسْتَفِدْ مِنْهُ ، وَلَا تُضَيِّعْ قَوْلَهُ وَلَا فِعْلَهُ ،
فَإِنَّ فِيمَا تَلْقَاهُ تَلْقِيحًا لِعَقْلِكَ ، وَحِثًّا لَكَ وَاهْتِدَاءً ،
وَلَيْسَ كُلُّ مَا تَسْمَعُ مِنْ أَقْوَالِ الشُّعْرَاءِ يَحْسُنُ بِكَ

أَنْ تَتَّبِعَهُ حَتَّى تَتَدَبَّرَهُ ، فَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِعَقْلِكَ ،
 مُصْلِحًا لِحَالِكَ ، فَرَاعَ ذَلِكَ عِنْدَكَ ؛ وَإِلَّا فَاذْبُذْهُ نَبَذَ
 النِّوَاةَ ، فَلَيْسَ لِكُلِّ أَحَدٍ يُتَبَسَّمُ ، وَلَا كُلُّ
 شَخْصٍ يُكَلِّمُ ، وَلَا الْجُودُ مِمَّا يُعْمُ بِهِ ، وَلَا حُسْنُ
 الظَّنِّ وَطِيبُ النَّفْسِ مِمَّا يُعَامَلُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ ،
 وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ :

وَمَالِي لَا أَوْفَى الْبَرِيَّةِ قِسْطَهَا

عَلَى قَدْرِ مَا يُعْطَى وَعَقْلِي مِيزَانُ
 وَإِيَّاكَ أَنْ تُعْطِيَ مِنْ نَفْسِكَ إِلَّا بِقَدْرِ ، فَلَا
 تُعَامِلُ الدُّونَ بِمُعَامَلَةِ الْكُفِّ ، وَلَا الْكُفِّ
 بِمُعَامَلَةِ الْأَعْلَى ، وَلَا تُضَيِّعْ عُمرَكَ فِيمَنْ يُعَامِلُكَ
 بِالْمَطَامِعِ ، وَيُثْبِتُكَ عَلَى مَصْلَحَةٍ حَاضِرَةٍ عَاجِلَةٍ

بِعَائِبَةِ آجِلَةٍ ، وَلَا تَجْفُ النَّاسَ بِالْجُمْلَةِ ، وَلَكِنْ
يَكُونُ ذَلِكَ بِحَيْثُ لَا يَلْحَقُ مِنْهُ مَلَلٌ وَلَا ضَجَرٌ
وَلَا جَفَاءٌ ، فَتَى فَارَقْتَ أَحَدًا فَعَلَى حُسْنَى فِي الْقَوْلِ
وَالْفِعْلِ ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي هَلْ أَنْتَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ
فَلِذَلِكَ قَالَ الْأَوَّلُ : (وَلَمَّا مَضَى سَلَمٌ بَكَيْتُ عَلَى
سَلَمٍ) وَإِيَّاكَ وَالْبَيْتَ السَّائِرَ

وَكَنتَ إِذَا حَلَلْتَ بِدَارِ قَوْمٍ
رَحَلْتَ بِمُخْزِيَةٍ وَتَرَكْتَ عَارًا

وَاحْرِصْ عَلَى مَا جَمَعَ قَوْلُ الْقَائِلِ : ثَلَاثَةٌ تُبْقِي
لَكَ الْوُدَّ فِي صَدْرِ أَخِيكَ ، أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلَامِ ،
وَتُوسِّعَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ ، وَتَدْعُوهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ

إِلَيْهِ ؛ وَاحْذَرُ كُلَّ مَا يَنْنَهُ لَكَ الْقَائِلُ : كُلُّ
 مَا تَغْرِسُهُ تَجْنِيهِ إِلَّا ابْنُ آدَمَ ، فَإِذَا غَرَسْتَهُ يَقْلَعُكَ ،
 وَقَوْلُ الْآخِرِ : ابْنُ آدَمَ ذِئْبٌ مَعَ الضَّعْفِ ، أَسَدٌ مَعَ
 الْقُوَّةِ ؛ وَإِيَّاكَ أَنْ تَتَّبْتَ عَلَى صُحْبَةٍ أَحَدٍ قَبْلَ أَنْ
 تُطِيلَ اخْتِبَارَهُ . وَيُحْكِي أَنَّ ابْنَ الْمُتَّقِعِ خَطَبَ
 مِنَ الْخَلِيلِ صُحْبَتَهُ ، فَجَاوَبَهُ : إِنَّ الصُّحْبَةَ رِقٌّ ، وَلَا
 أَضَعُ رِقِّي فِي يَدَيْكَ حَتَّى أَعْرِفَ كَيْفَ مَلَكَتِكَ ؛
 وَاسْتَمَلَ مِنْ عَيْنِ مَنْ تُعَاشِرُهُ ، وَتَفَقَّدَ فِي فَلَاتٍ
 الْأَلْسُنَ ، وَصَفَحَاتِ الْأَوْجِهَةِ ، وَلَا يَحْمِلُكَ الْحَيَاءُ عَلَى
 السُّكُوتِ عَمَّا يَضُرُّكَ أَنْ لَا تُبَيِّنَهُ ، فَإِنَّ الْكَلَامَ
 سِلَاحُ السَّلَامِ ، وَبِالْأَنْبِيَاءِ يُعْرَفُ أَلَمُ الْجُرْحِ ، وَاجْعَلْ
 لِكُلِّ أَمْرٍ أَخَذْتَ فِيهِ غَايَةً تَجْعَلُهَا نِهَايَةً لَكَ .

وَحُذِّ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ

مَنْ قَرَّ عَيْنًا بِعَيْشِهِ نَفَعَهُ

إِذَا الْأَفْكَارُ تَجَلَّبَبُ الْهُمُومِ ، وَتَضَاعَفُ الْغُمُومُ ،

وَمُلَازِمَةُ الْقُطُوبِ عِنْوَانُ الْمَصَائِبِ وَالْخُطُوبِ ،

يَسْتَرِيبُ بِهِ الصَّاحِبُ ، وَيَشْمَتُ الْعَدُوُّ وَالْمَجَانِبُ ،

وَلَا تَضُرُّ بِالْوَسَاوِسِ إِلَّا نَفْسُكَ ، لِأَنَّكَ تَنْصُرُ

بِهَا الدَّهْرَ عَلَيْكَ ، وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ :

إِذَا مَا كُنْتَ لِلْأَحْزَانِ عَوْنًا

عَلَيْكَ مَعَ الزَّمَانِ فَمَنْ تَلُومُ

مَعَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْغَائِبَ الْحُزْنَ ، وَلَا

يَرْعَوِي بِطُولِ عَثْبِكَ الزَّمَنُ ، وَلَقَدْ شَاهَدْتُ

بَغْرَ نَاطَةِ شَخْصًا قَدْ أَلْفَتَهُ الْهُمُومُ ، وَعَشِيقَتَهُ الْغُمُومُ ،

وَمِنْ صِغَرِهِ إِلَى كِبَرِهِ ، لَا تَرَاهُ أَبَدًا خَلِيًّا مِنْ
فِكْرَةٍ ، حَتَّى لُقِّبَ بِصَدْرِ الْهَمِّ ، وَمِنْ أَعْجَبِ
مَا رَأَيْتُهُ مِنْهُ أَنَّهُ يَتَنَكَّدُ فِي الشَّدَّةِ ، وَلَا يَتَعَلَّلُ
بِأَنْ يَكُونَ بَعْدَهَا فَرَجٌ ، وَيَتَنَكَّدُ فِي الرَّخَاءِ خَوْفًا
مِنْ أَنْ لَا يَدُومَ وَيُنْشِدَ :

تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ ، وَيُنْشِدُ

وَعِنْدَ التَّنَاهِي يَقْصُرُ الْمُتَطَاوِلُ

وَلَهُ مِنَ الْحِكَايَاتِ فِي هَذَا الشَّانِ عَجَائِبُ ،

وَمِثْلُ هَذَا عُمرُهُ مُحْشُورٌ ، يَمُرُّ ضَيَاعًا ؛ وَمَتَى رَفَعَكَ

الزَّمَانُ إِلَى قَوْمٍ يَذُمُّونَ مِنَ الْعِلْمِ مَا تُحْسِنُهُ حَسَدًا لَكَ ،

وَقَصْدًا لِتَصْغِيرِ قَدْرِكَ عِنْدَكَ ، وَتَرْهِيْدًا لَكَ فِيهِ ،

فَلَا يَحْمِلُكَ ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَرْهَدَ فِي عِلْمِكَ ، وَتَرْكَنَ

إِلَى الْعِلْمِ الَّذِي مَدَحُوهُ ، فَتَكُونُ مِثْلَ الْغُرَابِ الَّذِي
 أَعْجَبَهُ مَشْيُ الْحُجَلَةِ ، فَرَامَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ فَصَعُبَ عَلَيْهِ ،
 ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَشْيِهِ فَتَنَسَّيَهُ ، فَبَقِيَ مُخْبَلً
 الْمَشْيَ كَمَا قِيلَ :

إِنَّ الْغُرَابَ وَكَانَ يَمْشِي مِشْيَةً

فِيمَا مَضَى مِنْ سَالِفِ الْأَجْيَالِ

حَسَدَ الْقَطَا وَأَرَادَ يَمْشِي مِشْيَهَا

فَأَصَابَهُ ضَرْبٌ مِنَ الْعُقَّالِ

فَاضْلٌ مِشْيَتَهُ وَأَخْطَأَ مِشْيَهَا

فَلِذَاكَ كُنُوهُ أَبَا مِرْقَالِ

وَلَا يُفْسِدُ خَاطِرُكَ مَنْ جَعَلَ يَذُمُّ الزَّمَانَ وَأَهْلَهُ

وَيَقُولُ: مَا بَقِيَ فِي الدُّنْيَا كَرِيمٌ وَلَا فَاضِلٌ، وَلَا مَكَانٌ

يُرْتَاحُ فِيهِ ، فَإِنَّ الَّذِينَ تَرَاهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ

أَكْثَرُ مَا يَكُونُونَ مِمَّنْ صَحِبَهُ الْحَرَمَانُ ، وَاسْتَحَقَّتْ
 طَلْعَتُهُ لِلْهَوَانِ ، وَأَبْرَمُوا عَلَى النَّاسِ بِالسُّوَالِ ،
 فَهَقَّتْهُمْ ، وَعَجَزُوا عَنْ طَلَبِ الْأُمُورِ مِنْ وَجُوهِهَا ،
 فَاسْتَرَاخُوا إِلَى الْوُقُوعِ فِي النَّاسِ ، وَأَقَامُوا الْأَعْذَارَ
 لِأَنْفُسِهِمْ بِقَطْعِ أَسْبَابِهِمْ ، وَلَا تُزِلْ هَذَيْنِ الْيَتِيمَيْنِ
 مِنْ فِكْرِكَ :

لِنْ إِذَا مَا نِلْتَ عِزًّا فَأَخُو الْعِزِّ يَلِينُ
 فَإِذَا نَابَكَ دَهْرٌ فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ
 وَالْأَمْثَالُ تُضْرَبُ لِنَدَى اللَّبِّ الْحَكِيمِ ، وَذُو
 الْبَصَرِ يَمْشِي عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَالْفِطْنُ يَقْنَعُ
 بِالْقَلِيلِ ، وَيَسْتَدِلُّ بِالْيَسِيرِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلِيفَتِي
 عَلَيْكَ ، لَا رَبَّ سِوَاهُ : ا. هـ .



لِنَتْرُكَ الْآنَ الْوَصَايَا الْأَدْيِيَّةَ ، وَمَا فِيهَا مِنْ
حِكْمَةٍ رَادِعَةٍ ، وَعِظَةٍ بَالِغَةٍ ، مُنْتَقِلِينَ سِرَاعًا ، إِلَى
طَرَفٍ مِنَ الْمُنْظُومِ ، وَأَنْصَافِ الْأَشْعَارِ مِنْ مَقْرُوءَاتِ
الشَّيْخِ فِي أَبْوَابِ الْأَمْثَالِ التَّضْمِينِيَّةِ ، وَالْمَنَاحِي الْغَزَلِيَّةِ ،
وَبَلِيغِ الْمُرَاثِي ، وَجَيِّدِ الْعِتَابِ ، وَنَحْتَارُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ
الْبَحْرِ الزَّاهِرِ رَذَاذًا قَلِيلًا لِنَتَمَثِيلِ ذَلِكَ ، فَمِنْ أَنْصَافِ
الْأَيَّاتِ قَوْلُهُ :

وَجَرَحُ اللِّسَانِ كَجَرَحِ الْيَدِ^(١)
وَكَيفَ التَّظَنِّي بِالْإِخَاءِ الْمُغَيَّبِ
رَضِيَتْ مِنْ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ

(١) أين هذا من قول القائل :

جراحات السنان لها الثمام ولا يلتام ما جرح اللسان

وَبِالْأَشْقَيْنَ مَا وَقَعَ الْعِقَابُ
أَخْنَى عَلَيْهِ الَّذِي أَخْنَى عَلَى لَمَدٍ
كَذِي الْعُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعٌ
وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ
وَرُبَّ امْرِئٍ سَاعٍ لِأَخْرَ قَاعِدٍ
وَفِي طُولِ عَيْشِ الْمَرْءِ بَرَحٌ وَتَعْذِيبٌ
فَكَيْفَ يَمُنُّ يُرْمَى وَلَيْسَ بِرَامِي
كَصَدْعِ الزُّجَاجَةِ لَا يَلْتَمُّ
فَقُلْتُ اطْمَئِنِّي أَنْضِرُ الرَّوْضَ عَازِبُهُ^(١)
وَالْحَوْضُ مُنْتَظَرٌ وَرُودَ الْوَارِدِ
يَدِي عَوَّلْتُ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى يَدِي
وَأَنْفُ الْفَتَى مِنْ وَجْهِهِ وَهُوَ أَجْدَعُ

وَاللَّيْتَ لَوْ لَمْ تَهَجْ لَمْ يَبْرَحِ الْأَجْمَا
 وَفِي بَعْضِ الْقُلُوبِ عُيُونُ
 وَزَلَّةُ الرَّأْيِ تُنْسِي زَلَّةَ الْقَدَمِ
 إِذَا الشَّمْسُ لَمْ تُعْرِفْ فَلَا طَلَعَ الْبَدْرُ
 وَمُبْلَغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحِ
 حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ
 مَنْ قَرَّ عَيْنًا بِعَيْشِهِ نَفَعَهُ
 وَقَدْ يَمَلَأُ الْقَطْرُ الْإِنَاءَ فَيُفْعِمُ
 وَقَدْ تَجَمَّدُ^(١) الْعَيْنَانِ وَالْقَلْبُ مُوجِعُ
 وَقَدْ يَعْثُرُ السَّاعَى إِذَا كَانَ مُسْرِعًا
 قَدْ يُوثِقُ الْمَرْءَ امْرُؤٌ وَهُوَ يَحْقِرُهُ
 وَالْقَوْلُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِي

(١) جود العين كناية عن بخلها بالدموع

✧
✧ ✧

وَمِنْ شَيْقِ الْغَزَلِ قَوْلُ أَبِي صَخْرٍ الْهَذَلِيِّ :
 أَمَا وَالَّذِي أَبْكَى وَأَضْحَكَ وَالَّذِي
 أَمَاتَ وَأَحْيَا وَالَّذِي أَمَرَهُ الْأَمْرُ
 لَقَدْ تَرَكْتَنِي أَحْسَدُ الْوَحْشِ أَنْ أَرَى
 أَلِيفَيْنِ مِنْهَا لَا يَرُوجُهُمَا الذُّعْرُ^(١)
 عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
 فَلَمَّا انْقَضَى مَا يَبْنِي سَكَنَ الدَّهْرُ
 فَيَا حُبَّهَا زِدْنِي جَوَى كُلِّ لَيْلَةٍ
 وَيَا سَلْوَةَ الْأَيَّامِ مَوْعِدِكَ الْحَشْرُ
 وَإِنِّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرِكَ هِزَّةٌ
 كَمَا انْتَفَضَ الْعُصْفُورُ بِلَلَّةِ الْقَطْرِ

(١) الذعر : الخوف .

وَأَنِّي لَا تِيَهَا أُرِيدُ عِتَابَهَا
 وَأَوْعِدُهَا بِالْهَجْرِ مَا بَرَقَ ^(١) الْفَجْرُ
 فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا جُجَاءَةً
 فَأُبْهِتَ لَا عُرْفَ لَدَيَّ وَلَا نُكْرَ
 وَأَنْسَى الَّذِي قَدْ كُنْتُ فِيهِ أَتَيْتُهَا
 كَمَا قَدْ تُنْسَى لُبَّ شَارِبِهَا الْخَمْرُ
 وَيَمْنَعُنِي مِنْ بَعْضِ إِنْكَارِ ظُلْمِهَا
 إِذَا ظَلَمْتُ يَوْمًا وَإِنْ كَانَ لِي عُذْرُ
 مَخَافَةٌ أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ لَيْتَنِي بَدَأَ
 لِيَ الْهَجْرُ مِنْهَا مَا عَلَى هَجْرِهَا صَبْرُ
 وَأَنِّي لَا أَدْرِي إِذَا النَّفْسُ أَشْرَفَتْ
 عَلَى هَجْرِهَا مَا يَصْنَعَنَّ بِي الْهَجْرُ

وَمِنْ بَلِيغِ الْمَرَاثِي مَا كَانَ يَتَمَثَّلُ بِهِ ^(١) عَلِيٌّ بْنُ
 أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَرَّمَهُ اللَّهُ وَجْهَهُ :
 أَلَا قَدْ أَرَى وَاللَّهِ أَنَّ لَسْتُ مِنْكُمْ
 وَلَا أَنْتُمْ مِنِّي وَإِنْ كُنْتُمْ أَهْلِي
 وَأَنَا ثَوِيٌّ قَدْ أَحْمَ انْطِلَاقُهُ
 يُحْيِيهِ مَنْ حَيَّاهُ وَهُوَ عَلَى رَحْلِ
 وَمُنْطَلِقٍ مِنْكُمْ بِغَيْرِ صَحَابَةٍ
 وَتَابِعٍ إِخْوَانِي الَّذِينَ مَضَوْا قَبْلِي
 أَلَمْ أَكُ قَدْ صَاحَبْتُ عَمْرًا وَمَالِكًا
 وَأَذْهَمَ يَغْدُو فِي فَوَارِسٍ ^(٢) أَوْ رَجُلٍ ^(٣)

(١) في مادة ودق أن علي بن أبي طالب لم يقل إلا بيتين من الشعر وهما :

تَلَكُمُ قَرِيشٌ تَمْنَانِي لَتَقْتُلَنِي فَلَا وَرَبِّكَ مَا بَرُّوا وَلَا ظَفَرُوا
 فَإِن قُتِلْتُ فَرَهْنٌ ذِمَّتِي لَهُمْ بَدَاتِ وَدَقِينِ لَا يَغْفُو لَهَا أَثَرُ

(٢) فوارس جمع فارس والمراد به الراكب (٣) رجل جمع راجل وهو الماشي

وَصَاحِبْتُ شَيْبَانًا وَصَاحِبْتُ ضَايِبًا
 وَصَاحِبِنِي الشَّمُّ الطَّوَالَ بَنُو شَبَلٍ
 أَوْلَاكَ إِخْوَانِي مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ
 يَكَادُ يُنْسِنِي تَذَكُّرُهُمْ عَقْلِي
 يَقُولُ أَنَا أَخْلِيَاءُ^(١) تَنَاسَهُمْ
 وَلَيْسَ بِنَاسٍ مِثْلَهُمْ أَبَدًا مِثْلِي
 أَوْلَاكَ أَخْلَائِي إِذَا مَا ذَكَرْتُهُمْ
 بَكَيْتُ بَعَيْنٍ مَاءَ عَبْرَتِهَا كُحْلِي^(٢)
 وَكَانُوا إِذَا مَا الْقُرُ^(٣) هَبَّتْ رِيَا حُهُ
 وَضَمَّ سَوَادُ اللَّيْلِ رَحْلًا^(٤) إِلَى رَحْلٍ

(١) أخلياء جمع خلى وهم الذين لم ينزل بهم ما نزل به

(٢) أى مائل إلى السواد من شدة الحزن (٣) القر : البرد

(٤) الرحل : هو ما يحمله البعير والمراد به هنا أنهم تجمعوا ليلا

يُدْرُونَ بِالسَّيْفِ الْوَرِيدَيْنِ وَالنَّسَا
إِذَا لَمْ يَقُمْ رَاعِي أَنَّاسٍ إِلَى رِسْلِ
إِذَا مَا لَقُوا أَقْرَانَهُمْ قَتَلُوهُمْ
وَإِنْ قُتِلُوا لَمْ يَقْشَعِرُوا^(١) مِنْ الْقَتْلِ

وَمِنْ جَيْدِ الْعِتَابِ قَوْلُ يَزِيدَ بْنِ الْحَكَمِ لِأَخِيهِ
عَبْدِ رَبِّهِ بْنِ الْحَكَمِ :
تُكَاشِرُنِي^(٢) كُرْهًا كَأَنَّكَ نَاصِحٌ

وَعَيْنُكَ تُبْدِي أَنَّ صَدْرَكَ لِي دَوِي^(٣)
لِسَانُكَ لِي أَرَى^(٤) وَغَيْبُكَ عَلَقَمٌ
وَشَرُّكَ مَبْسُوطٌ وَخَيْرُكَ مُلْتَوِي

(١) يقشعروا أى لم يخافوا والمراد هنا بيان شدة بأسهم ورباطة جأشهم

(٢) كاشره ضحكك في وجهه وبأسطه (٣) دوى : به داء

(٤) الأرى : الماذى والشهد : العسل

تُقَارِبُ مَنْ أَطْوَى صَوَى الْكَشْحِ دُونَهُ
 وَمِنْ دُونِ مَنْ صَافَيْتُهُ أَنْتَ مُنْطَوَى
 تُصَافِحُ مَنْ لَاقَيْتَ لِي ذَا عِدَاوَةٍ
 صِفَاحًا وَغَيٍّ^(١) بَيْنَ عَيْنَيْكَ مُنْزَوَى
 أَرَاكَ إِذَا لَمْ أَهْوِ أَمْرًا هَوَيْتَهُ
 وَلَسْتُ لِمَا أَهْوَى مِنَ الْأَمْرِ بِالْهَوَى
 أَرَاكَ اجْتَوَيْتَ^(٢) الْخَيْرَ مِنِّي وَأَجْتَوَى
 أَذَاكَ فَكُلُّهُ يَحْتَوِي قُرْبَ مُجْتَوَى
 فَلَيْتَ كَفَافًا كَانَ خَيْرُكَ كُلُّهُ
 وَشَرُّكَ عَنِّي مَا ارْتَوَى الْمَاءُ مُرْتَوَى
 تَوَدُّ عَدُوِّي ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّي
 صَدِيقُكَ لَيْسَ الْفَعْلُ مِنْكَ بِمُسْتَوَى

(١) الغي : الضلال (٢) اجتوى : كره

لَعَلَّكَ أَنْ تَتَنَّى بِأَرْضِكَ نِيَّةً
وَأِلَّا فَإِنِّي غَيْرَ أَرْضِكَ مُتَتَوَى^(١)
تَبَدَّلْ خَلِيلًا بِي كَشَكِّكَ شَكْلُهُ
فَأِنِّي خَلِيلًا صَالِحًا بِكَ مُقْتَوَى^(٢)
فَلَمْ يُعَوِّنِي رَبِّي فَكَيْفَ اضْطَحَابُنَا
وَرَأْسُكَ فِي الْأَغْوَى مِنَ الْغَىِّ مُنْغَوَى
عَدُوُّكَ يَخْشَى صَوْلَتِي إِنْ لَقِيْتُهُ
وَأَنْتَ عَدُوِّي لَيْسَ ذَاكَ بِمُسْتَوَى
وَكَمْ مَوْطِنٍ لَوْ لَاى طِخْتَ كَمَا هَوَى
بِأَجْرَامِهِ^(٣) مِنْ قُلَّةِ^(٤) النَّيْقِ^(٥) مِنْهُوَى

(١) نوى المنزل وانتواه : قصده (٢) مقتوى : أى مستخلص

ومستبدل (٣) الجرم بالكسر ماله حجم (٤) قلة : ما استدق

من رأس الجبل (٥) النيق أرفع الجبل

نَدَاكَ عَنِ الْمَوْلى وَنَصْرُكَ عَاتِمٌ^(١)
 وَأَنْتَ لَهُ بِالظُّلْمِ وَالنِّعَمِ مُجَذَوِى^(٢)
 تَوَدُّ لَهُ لَوْ نَالَهُ نَابُ حَيَّةٍ
 رَيْبِ صَفَاةٍ يَبْنِى لِهَيِّينِ^(٣) مُنْحَوِى^(٤)
 إِذَا مَا ابْتَنَى الْمَجْدَ ابْنُ عَمِّكَ لَمْ تُعِنْ
 وَقُلْتَ : أَلَا يَأْلَيْتَ بُنْيَانَهُ خَوِى^(٥)
 كَأَنَّكَ إِنْ قِيلَ ابْنُ عَمِّكَ غَانِمٌ
 شَجَّ أَوْ عَمِيدٌ أَوْ أَخُو مَغْلَةٍ^(٦) لَوِى^(٧)
 تَمَلَّاتٍ مِنْ غَيْظٍ عَلَى فَلَمْ يَزَلْ
 بِكَ الْغَيْظُ حَتَّى كَدْتَ بِالْغَيْظِ تَنْشَوِى

(١) عاتم : مبطىء (٢) مجذوى : من أجزوى الشيء مجذوى أى
 ثبت دائماً واجذوى مثل ارعوى (٣) اللهب بكسر اللام : الشعب
 الصغير فى الجبل (٤) منحوى : من انحناى الحية : أى انطوائها
 (٥) خوى : خلى من خوى المنزل يخوى (٦) المغلة : وجع البطن
 (٧) لوى : وجع الجوف

وَمَا بَرَحْتَ نَفْسُ حَسُودٍ حَبَسَتْهَا

تُذِيْبُكَ حَتَّى قِيلَ هَلْ أَنْتَ مُكْتَوِي؟

وَقَالَ النَّطَاسِيُّونَ إِنَّكَ مُسْعَرٌ^(١)

سَلَالًا^(٢) أَلَا بَلْ أَنْتَ مِنْ حَسَدٍ جَوِيٍّ^٣

جَمَعْتَ وَفُحْشًا غَيْبَةً وَنَمِيمَةً

ثَلَاثَ خِلَالٍ لَسْتَ عَنْهَا بِمُرْعَوِيٍّ

أَفُحْشًا وَجُبْنًا وَاخْتِئَاءً^(٤) عَنِ النَّدَى

كَأَنَّكَ أَفْعَى كُذْيَةٍ^(٥) فَرَّ مُحْجَوِيٍّ^(٦)

(١) مُسْعَرٌ من مُسْعَارِ الْكَلْبِ الْكَلِيبِ (٢) سَلَالًا : أَى مَرَضٍ

بِالسَّلِّ (٣) جَوِيٍّ : مِنْ الْجَوِّ وَهُوَ دَاءُ الْقَلْبِ (٤) الْاخْتِئَاءُ :

الْخُوفُ وَالْفَرَقُ بَانْفِاعٍ وَذَلِ (٥) الْكُذْيَةُ : الْأَرْضُ الْغَلِيظَةُ الصَّلْبَةُ

(٦) مُحْجَوِيٍّ : أَى مُسْتَرٍّ : مِنْ أَجْوَى سِرِّهِ إِذَا كَتَمَهُ

وَيَدْخُوبُكَ الدَّاحِي إِلَى كُلِّ سَوَاءٍ

فَيَأْشُرَنَّ مَنْ يَدْخُو بِأَطْيَشٍ مُدْحَوِيٍّ^(١)

بَدَأَ مِنْكَ غِشٌّ طَالَمَا قَدْ كَتَمْتُهُ

كَلَّمَا كَتَمْتَ دَاءً ابْنَهَا أَمْ مُدْوِيٍّ

وَالآنَ هَلُمَّ بِنَا إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْقَصَصِ الْعَرَبِيِّ مِمَّا

كَانَ أَسْتَاذِي الشَّيْخُ يَرْوِيهِ كَمَثَلٍ رَائِعٍ فِي الْعَتَبِ

وَالْمُجَادَلَةِ وَالنَّقَاشِ وَالْمُحَاجَّةِ وَيَتَّخِذُهُ كَنُموذَجٍ مَتِينٍ

أَخَازٍ لِلْأَدَبِ الْأُمُوِيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى

لِتَبَيَّنَ قُوَّةُ الْعَارِضَةِ وَبَلَاغَةُ الْعِبَارَةِ وَسَدَادِ الْمَنْطِقِ

وَرَجَاحَةِ الْفِكْرَةِ وَرَحَابَةِ الصَّدْرِ وَحَزَامَةِ الْحِصَاةِ

وَتَدْفُقِ الْبَدِيهَةِ وَحَصَافَةِ الْقَرِيحَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ

(١) مدحوى : وما اشتق منها في هذا البيت كله بالخاء أى رمى به ودفعه

جَلِيلِ الصِّفَاتِ الَّتِي أَمْتَارَ بِهَا الْعَرَبُ الْخُلَصُ فِي
ذَلِكَ الْحِينِ .

يَبْدَأُنِي مَعَ فَارِطٍ إِعْجَابِي بِأُسْلُوبِهَا ، وَاقْتِنَاعِي
بِأَنَّهَا مِلُّ الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ ، رَوْعَةٌ وَبَلَاغَةٌ ، وَمَنْطِقًا
وَطِلَاوَةٌ ، وَبِدَاهَةٌ وَكِيَاسَةٌ ، وَحَزْمًا وَسِيَاسَةً ، وَإِذْعَانًا
وَرِيَاسَةً ، وَانْتِهَالَ عَفْوٍ وَسَخَاءِ نَفْسٍ ، وَعُذْرٍ وَإِعْذَارٍ
وَعُغْفٍ وَإِنْذَارٍ - إِلَّا أَنِّي مَعَ هَذَا كُلِّهِ . اتَّخَذْتُهَا
كَنُوعٍ مِنَ الْقَصَصِ الْعَرَبِيِّ وَنُحَيْلَةِ الرُّوَاةِ وَاخْتِرَاعِ
الْمُؤَلِّفِينَ وَتَأْلِيفِ الْقُصَّاصِ وَجَمْعِ الْمُحَدِّثِينَ .

وَالَيْكَ تِلْكَ التُّحْفَةُ الْيَتِيمَةُ ، وَتِلْكَ الْقِصَّةُ الشَّيْقَةُ

لِلتَّجَلِّيَةِ وَالْإِطْلَاعِ :

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَدَائِنِيُّ لَمَّا ادَّعَى مُعَاوِيَةُ بْنُ
 أَبِي سُفْيَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ زِيَادَ بْنَ عُمَيْدٍ وَقَدِمَ بِذَلِكَ
 عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ الْمَدِينَةَ : جَزَعَتْ بَنُو أُمَيَّةَ مِنْ ذَلِكَ
 جَزَعًا شَدِيدًا ، فَقَدِمُوا الشَّامَ بِأَجْمَعِهِمْ ، وَنَزَلُوا فِي
 مَكَانٍ وَاحِدٍ ، وَوَجَدُوا مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ قَدْ كَتَبَ
 لَهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ عَهْدًا بِوِلَايَةِ الْمَدِينَةِ ، فَأَتَوْهُ
 فَقَالُوا لَهُ : أَنْتَ شَيْخُنَا وَكَبِيرُنَا ، وَقَدْ تَرَى مَا رَكِبْنَا
 بِهِ مُعَاوِيَةُ مِنْ أَمْرٍ لَيْسَ لَنَا عَلَيْهِ صَبْرٌ وَلَا قَرَارٌ ،
 وَلَا يَنَامُ عَلَى مِثْلِهِ الْأَحْرَارُ ، وَيُعْذِرُ بَعْضُ الْإِعْذَارِ ،
 إِذْخَالَهُ مَنْ لَيْسَ مِنَّا ، يُرِيدُ أَنْ يُدْخِلَهُ عَلَى حَرَمِنَا
 وَنِسَائِنَا ، وَإِثَارُهُ عَلَيْنَا مَنْ هُوَ دُونَنَا ، وَقَدْ أَجْمَعَ

رَأَيْنَا عَلَى أَنَّ نُعَاتِبَهُ فِي ذَلِكَ ، فَإِنْ قَبِلَ قَبَلْنَا ، وَإِنْ
أَبَى اعْتَزَلْنَا ، قَالَ مَرْوَانُ : قَدْ وَاللَّهِ حَكَمْتُهُ فِي ذَلِكَ
ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، لَيْسَ فِيهَا مَرَّةٌ إِلَّا وَهُوَ يُظْهِرُ التَّعْتِبَ
وَالْتَّغَضِبَ ، وَيَزْعُمُ أَنَّ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَوْحَدُ . فَقَالَ
سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ : لَا وَاللَّهِ ، وَلَكِنَّكَ تُحَامِي عَلَى
عَهْدِكَ ، وَتُبْقِي عَلَى وَلَايَتِكَ ، فَقَالَ مَرْوَانُ : وَاللَّهِ
لَصَلَاحُكُمْ فِي فَسَادِ عَهْدِي ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَسَادِكُمْ
فِي صَلَاحِ عَهْدِي ، فَادْخُلُوا عَلَى الرَّجُلِ فَكَلِّمُوهُ بِمَلْءِ
أَفْوَاهِكُمْ ، فَإِنَّهُ حَلِيمٌ أَدِيبٌ أَرِيبٌ . فَاَنْطَلَقَ الْقَوْمُ
بِجَمَاعَتِهِمْ ، وَتَخَلَّفَ عَنْهُمْ مَرْوَانُ ، فَذَهَبُوا حَتَّى
اسْتَأْذَنُوا عَلَى مُعَاوِيَةَ ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ الْآذِنُ . بِمَكَانِهِمْ

قَالَ لَهُ : احْبِسْهُمْ بَيْنَ الْبَابَيْنِ ، وَأَرْسَلْ إِلَى قُوَادِ
 أَهْلِ الشَّامِ وَرُؤَسَائِهِمْ ، فَجَمَعَهُمْ عِنْدَهُ ، وَأَقَامَ الرِّجَالَ
 بَيْنَ يَدَيْهِ بِالْأَعْمَدَةِ وَالسُّيُوفِ ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُمْ ، فَلَمَّا
 دَخَلُوا عَلَيْهِ سَأَمُوا ، فَأَحْسَنَ الرَّدَّ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ قَالَ :
 قَرَّبَ اللَّهُ الدِّيَارَ ، وَأَذْنَى الْمَزَارَ ، مَا الَّذِي أَقْدَمَكُمْ ؟
 أَزِيَارَةً فَتَخَطَى ، أَمْ سُخْطًا فَيَرْضَى ، أَمْ حَاجَةً
 فَتُقْضَى ، قَالُوا : لِكُلِّ جِئْنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .
 قَالَ تَكَلَّمُوا ، فَسَكَتَ الْقَوْمُ ، وَمَثَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ
 ابْنُ الْحَكَمِ أَخُو مَرْوَانَ - بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ :
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتَيْتُكَ مُرِيدًا أَنْ أَسْأَلَكَ

قَبْرُهُ خَيْرٌ مِنْ نَشْرِهِ ، وَإِمَاتَتُهُ خَيْرٌ مِنْ ذِكْرِهِ ،
 جِئْنَاكَ لِأَمْرِ عَجَزْتَ عَنْ حَمْلِهِ الْجُنُوبُ ، وَضَاقَتْ
 الصُّدُورُ وَالْقُلُوبُ ، وَكَرِهْنَا إِلَّا نَذْرَهُ لَكَ فَيَذِبْتَ
 فِي صُدُورِنَا ، وَلَا يُحْصَدَ لَزْمَانِهِ ، وَلَا يُصَيِّرُهُ
 إِلَّا بَآئِنَهُ ، وَهِيَ الْمُصِيبَةُ الْخَطِرَةُ ، وَاللَّأَوَاءُ ^(١) الْمُبِيرَةُ ^(٢)
 وَاعْلَمْ أَنَّا لَمْ نَأْتِكَ تَجْرُمًا وَلَا تَعِيشًا ^(٣) وَلَا بَطَرًا ،
 فَإِنْ تَأَذَّنْ تَكَلَّمْنَا ، وَإِنْ تَأَبَّ سَكَنَّا ، قَالَ : هَاتِ
 لِلَّهِ أَنْتَ ! قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ أُمِّيَّةَ
 ابْنِ عَبْدِ شَمْسٍ وَلَدَ عَشْرَةَ ذُكُورٍ : حَرْبًا وَأَبَا حَرْبٍ
 وَسُفْيَانَ وَأَبَا سُفْيَانَ ، وَالْعَاصَ وَأَبَا الْعَاصِ ، وَالْعِيسَ
 وَأَبَا الْعِيسِ ، وَلَمْ يَلِدْ عُبَيْدًا عَبْدًا ثَقِيفٍ وَلَا الْعَاصِ

(١) اللأواء : المشقة والشدة

(٢) الميرة : المهلكة

(٣) من العيث : وهو الفساد

أَبْنِ وَائِلٍ ، وَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ عَمْرَوًا وَزِيَادًا شِعَارَكَ
 دُونَ دِثَارِكَ . وَنَفْسَكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ ، ثُمَّ لَمْ
 تَرْضَ لِابْنِ عُبَيْدٍ حَتَّى نَسَبْتَهُ إِلَى أَبِيكَ ، عَضِيَّةً^(١)
 لِأَبِيكَ ، وَازْرَاءَ بَيْنِكَ ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ
 السَّخَطِ لِرَبِّكَ ، وَالْمُخَالَفَةِ لِنَبِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ إِذْ قَضَى : أَنَّ الْوَلَدَ لِلْفِرَاشِ ، وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ ،
 فَقَضَيْتَ الْوَلَدَ لِلْعَاهِرِ ، وَلِلْفِرَاشِ الْحَجَرُ ، فَرَفَعْتَ أَمْرًا
 كَانَ حَقِيرًا ، وَشَهَرْتَ أَمْرًا كَانَ خَامِلًا صَغِيرًا ، تَرِيدُ
 أَنْ تُدْخِلَهُ عَلَى حَرَمِكَ وَنِسَائِكَ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

أَتَرْضَى يَا مُعَاوِيَةُ بْنُ حَرْبٍ

بَأَنْ تُعْطَى حَرَائِمُكَ الْعَبِيدَا

كَأَنِّي وَالَّذِي أَصْبَحْتَ عَبْدًا
لَهُ بِالْقَوْمِ قَدْ شَكُرُوا زَيْدًا
فَإِنْ تَرَجِعْ فَقَدْ لُقِيتَ رُشْدًا
وَإِنْ تُجْمِعْ فَلَمْ تُطِيعِ الرَّشِيدًا
فَأَمَّا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فَقَدْ أَلْزَمْتَ نَفْسَكَ
الْحَاجَةَ إِلَيْهِ ، وَأَلْزَمَ نَفْسَهُ الْغِنَاءَ عَنْكَ ، وَائِمْ اللَّهُ
لَنَحْنُ أَنْصَحُ جُيُوبًا ، وَأَوْجَبُ حَقًّا ، وَأَمْسُ رَحِمًا ،
وَمَا مِنْ أَمْرٍ يَبْلُغُهُ عَمْرُو فَنَعْجِزَ عَنْهُ لِنَقْصِيرِ بِنَا .
وَلَا وَهْنٍ ^(١) مِنَّا ، لِكَنْكَ رَفَعْتَ الْمَرْءَ فَوْقَ قَدْرِهِ ،
حَتَّى طَمَحَ بِفَخْرِهِ ، وَزَخَرَ بِبَحْرِهِ ، فَصَارَ كَأَنَّهُ شَيْءٌ
وَلَيْسَ بِشَيْءٍ ، وَإِنْ مَثَلْنَا وَمَثَلَكَ ، كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

(١) الوهن : الضعف

مِنَ النَّاسِ مَنْ يَصِلُ الْأَبْعَدِينَ
وَيَشْقَى بِهِ الْأَقْرَبُ الْأَقْرَبُ

قَالَ : ثُمَّ إِنَّ مَرْوَانَ أَدْرَكَهُ تَذَمُّهُ (١) مِنْ تَخَلُّفِهِ
عَنِ الْقَوْمِ ، فَلَحِقَ بِهِمْ عِنْدَ انْقِضَاءِ كَلَامِ أَخِيهِ ،
فَلَمَّا رَأَاهُ مُعَاوِيَةُ قَالَ : إِيهِ يَا مَرْوَانُ ؟ عَنْ رَأْيِكَ
صَدَرَ الْقَوْمُ حَتَّى أَسْمَعُونِي مَا سَمِعْتُ ؟ قَالَ : يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ لَنَا ذَلِكَ مَثَلًا . قَالَ : هَاتِ ، خَطِّطْ كَخِطِّطِ
أَخِيكَ . قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ عَدَى بَنُ زَيْدٍ
الْعِبَادِيَّ لَمَّا حَبَسَهُ النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذِرِ فِي السَّجْنِ . قَالَ :

أَبَا مُنْذِرٍ جَارَيْتَ بِالْوُدِّ سَخَطَةَ

فَمَاذَا جَزَاءِ الْمُبْغِضِ الْمُتَبَغِّضِ

فَجَازَيْتَهُ فِي ذَا الْمِثَالِ كَرَامَةً

وَلَسْتُ لِشَيْءٍ بَعْدُ بِالْمُسْتَعْرِضِ

فَإِنَّا وَاللَّهِ — يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ — غَيْرُ عَائِدِينَ

لِشَيْءٍ مِنْ مُعَاتِبَتِكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ . فَإِنْ تَرَا جَعُ

قَبْلُنَا ، وَإِنْ تَابَ أَمْسَكْنَا ، مَعَ أَنَّكَ لَوْ قَدَرْتَ

تَتَكَثَّرُ بِالزُّنُجِ عَلَى آلِ أَبِي الْعَاصِ لَفَعَلْتَ ، تَكْرُهَا

لِجَلَدٍ فِيهِمْ ، وَتَبَرُّمَا بِمَدَّتِهِمْ ، وَإِمْ اللَّهُ مَا هَذَا

جَزَاؤُهُمْ مِنْكَ ، لَقَدْ آثَرُوكَ وَوَأَسَوْكَ ، فَمَا جَازَيْتَ

وَلَا كَافَأْتَ ، فَقَامَ مُعَاوِيَةُ مُغْضَبًا ، وَقَالَ لِلْحَرَسِ :

شُدُّوا أَيْدِيَكُمْ بِالْقَوْمِ ، ثُمَّ دَخَلَ ، وَأَجْلَسُوا طَوِيلًا

حَتَّى سَاءَ ظَنُّهُمْ ، ثُمَّ خَرَجَ مُقْطَبًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، فَجَلَسَ عَلَى

سَرِيرِهِ ، وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ ، وَتَمَثَّلَ بِأَيَّاتِ :

لَدَى الْحِلْمِ قَبْلَ الْيَوْمِ مَا تُقْرِعُ الْعَصَا
 وَمَا عُلِّمَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِيَعْلَمَ
 وَلَوْ غَيْرُ أَخَوَالِي أَرَادُوا نَقِصَتِي
 جَعَلْتُ لَهُمْ فَوْقَ الْعَرَانِينَ مِيسَمًا
 وَمَا كُنْتُ إِلَّا مِثْلَ قَاطِعِ كَفِّهِ
 بِكَفِّ لَهُ أُخْرَى فَأَصْبَحَ أَجْذَمًا
 يَدَاهُ أَصَابَتْ هَذِهِ حَتْفَ هَذِهِ
 فَلَمْ تَجِدِ الْأُخْرَى عَلَيْهَا مُقَدَّمًا
 فَلَمَّا اسْتَقَادَ الْكَفَّ بِالْكَفِّ لَمْ يَجِدْ
 لَهُ دَرَكًا فِي أَنْ تَبِينَا فَأُحْجِمَا
 فَأُطْرِقَ إِطْرَاقَ الشُّجَاعِ وَلَوْ يَرَى
 مَسَاغًا لِنَابَاهُ الشُّجَاعُ لَصَمَّمَا

ثُمَّ قَالَ : هَذَا الَّذِي حَجَزَنِي عَنْكُمْ ، وَائِمُّ اللَّهِ ،
لَقَدْ قَطَعْتُمْ مِنْ زِيَادٍ رَحِمًا قَرِيبَةً وَاشِجَةً ، وَقُلْتُمْ
عَلَيْهِ الْبُهْتَانُ بَغَيْرِ تَثْبُتٍ وَلَا بَيَانٍ ، وَلَقَدْ وَضَعَ اللَّهُ
مَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ سَفَكِ الدِّمَاءِ ، وَالشَّرِّكَ بَرَبَّ
السَّمَاءِ ، فَذَلِكَ أَعْظَمُ مِمَّا كَانَ فِيهِ أَبُو سُفْيَانَ ، وَائِمُّ اللَّهِ ،
مَا اللَّهُ رَاقِبْتُمْ ، وَلَا لِي نَظَرْتُمْ ، بَلْ أَدْرَكَكُمْ الْحَسَدُ
فِي الْقَدِيمِ ابْنِي حَرْبٍ ، وَلَنْ عُدْتُمْ لِشَيْءٍ مِمَّا أَرَى ،
أَوْ أَتَانِي عَنْكُمْ مِنْ وَرَا وَرَا : لِأَنْهَلَنْكُمْ ^(١) صَبْرًا ،
وَلَأَعْلَنْكُمْ ^(٢) عُلْقًا ، حَتَّى تَعَامُوا - فِي طُولِ حِمَى -
أَنْ قَدْ مُنِيتُمْ بِمَنْ إِنْ حَزَّ قَطَعَ ، وَإِنْ هَمَزَ أَوْجَعَ ،
وَأِنْ هَمَّ جَفَعَ ، ثُمَّ لَا تُقَالُ لَكُمْ الْعَثَرَاتُ ،

(١) النهل : الشربة الأولى (٢) العلل الشربة الثانية يقال علل

وَيَسْتَضِعُّ عَلَيْكُمْ مِنِّي مَا كَانَ وَطِئًا^(١) ، وَيَتَوَعَّرُ
عَلَيْكُمْ مَا كَانَ سَهْلًا ، فَأَمَّا قَوْلُكُمْ : إِنِّي أَصَبْتُ
السُّلْطَانَ بِسَبَبِكُمْ ، فَقَدْ عَلِمْتُمْ - يَا آلَ الْعَاصِ -
أَنَّ عُثْمَانَ قُتِلَ وَأَنَا غَائِبٌ وَأَنْتُمْ حُضُورٌ ، فَمَا كَانَ
فِيكُمْ مِنْ مَدٍّ ذِرَاعًا ، وَلَا أَشَالٍ^(٢) بَاعًا ، أَسْلَمْتُمُوهُ
لِلْخُتُوفِ ، وَغَمَدْتُمْ بَعْدَهُ السُّيُوفَ ، فَمَا نَصَرْتُمُوهُ
وَلَا مَنَعْتُمُوهُ بِأَكْثَرِ مِنَ الْكَلَامِ ، وَكَانَ سَبَبَ
مَا أَلَبَ^(٣) عَلَيْهِ النَّاسُ ، وَأَجْلَبُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ
إِثَارِهِ إِيَّاكُمْ بِالْفَيْءِ وَالْقَسَمِ ، وَفِي ذَلِكَ قُطِعَتْ
أَوْدَاجُهُ ، وَسِفِكَ دَمُهُ عَلَى أَثْبَاجِهِ^(٤) ، وَاسْتَحِلَّتْ

(١) الوطئ بالهمز : ما سهل ولان (٢) أشال : أى رفع

(٣) يقال ألب القوم : أتوا من كل جانب . وأليت الجيش إذا جمعه

(٤) أثباجه جمع ثبج : وهو الوسط وما بين الكاهل إلى الظهر

حُرْمَتُهُ ، وَنُكِشَتْ بَيْعَتُهُ ، فَمَا شَبَبْتُمْ نَارًا ، وَلَا
 طَلَبْتُمْ ثَأْرًا ، حَتَّى كُنْتُ أَنَا الْمُطَالِبَ بِالشَّأْرِ ،
 وَالْمُشْكَلَ لِلْأُمَّهَاتِ ، وَلَقَدْ مُنِيتُ فِي الطَّلَبِ بِدَمِهِ
 بِحَرْبِ امْرِئٍ لَا يَغِيضُ بِحَرْوِهِ ، وَلَا يَذِلُّ نَحْوَهُ :
 مَنْ إِنْ قَرَعْتَهُ لَمْ يَفْزَعْ ، وَإِنْ أَطْمَعْتَهُ لَمْ يَطْمَعْ :
 مَنْ لَا تَخَوُّرُ قَنَاتُهُ ، وَلَا تُصْدَعُ صَفَاتُهُ ^(١) : مَنْ
 لَا يُطْعَنُ فِي قَرَابَتِهِ وَفَهْمِهِ وَعِلْمِهِ وَسَابِقَتِهِ وَمُبِينِ
 بَلَائِهِ . وَإِنِّي كَالْحَيَّةِ الصَّمَاءِ لَا يُبَلُّ ^(٢) سَلِيمًا ^(٣) ،
 وَلَا يَنَامُ كَلِيمًا ، وَإِنِّي لِلْمَرْءِ إِنْ هَمَزْتُ كَسَرْتُ ،
 وَإِنْ كَوَيْتُ أَنْضَجْتُ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُشَاوِرْ ، وَمَنْ
 شَاءَ فَلْيُؤَامِرْ ، مَعَ أَنَّهُمْ لَوْ عَايَنُوا مِنْ يَوْمِ الْهَرِيرِ

(١) الصفاة : الحجر العريض الأملس (٢) بل من مرضه : برأ وصح

(٣) السليم : اللديغ

مَا عَايَنْتُ ، أَوْ وَلُوا مِنْهُ مَا وَلَيْتُ ، إِذْ شَدَّ عَلَيْنَا
أَبُو حَسَنِ فِي كِتَابِيهِ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ أَهْلُ
الْبَصَائِرِ ، وَكِرَامُ الْعَشَائِرِ ، فَهِنَاكَ شَخَصَتِ الْأَبْصَارُ ،
وَارْتَفَعَ الشَّرَارُ ، وَقَارَعَتِ الْأُمَّهَاتُ عَنْ تُكْلِهَا ،
وَذَهَبَتْ عَنْ حَمْلِهَا ، وَانْهَرَّتِ الْحَدَقُ ، وَاعْبَرَّ
الْأَفْقُ ، وَأَجْلَمَ الْعَرَقُ ، وَسَالَ الْعَلَقُ ، وَثَارَ
الْقَتَامُ ، وَصَبَرَ الْكِرَامُ ، وَحَامَ اللَّثَامُ ، وَحَضَرَ
الْفِرَاقُ ، وَأَزْبَدَتِ الْأَشْدَاقُ ، وَقَامَتِ الْحَرْبُ عَلَى
سَاقٍ ، وَتَضَارَبَتِ الرِّجَالُ بِنِصَالِهَا ، بَعْدَ يَأْسٍ مِنْ
مَا لَهَا ، وَتَقَصَّفَ مِنْ رِمَاحِهَا ، فَلَا نَسْمَعُ إِلَّا التَّغْمُغُ^(١)
مِنَ الرِّجَالِ ، وَالتَّحْمُحُ^(٢) مِنَ الْخِيُولِ ، وَوَقَعَ السُّيُوفُ

(١) الغممة : أصوات الأبطال عند القتال (٢) والحممة :

أصوات الخيل

كَأَنَّهُ دَقُّ غَاسِلٍ خَشَبَتَهُ عَلَى مَنْصَبَتِهِ ، فَكَانَ ذَلِكَ
 دَأْبَنَا يَوْمَنَا حَتَّى رَهَقْنَا^(١) اللَّيْلُ بِغَسَقِهِ ، ثُمَّ انْبَلَجَ
 الصُّبْحُ بِفَلَقِهِ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْقِتَالِ إِلَّا الْهَرِيرُ^(٢)
 وَالزَّيْرُ^(٣) ، فَقَالَ عَمْرُ بْنُ الْعَاصِ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شَهِدْتُمْ
 ذَلِكَ الْيَوْمَ لَعَلِمْتُمْ أَنَّي أَحْسَنُ بَلَاءً ، وَأَصْبَرُ فِي
 اللَّأَوَاءِ ، وَإِنِّي وَإِيَّاكُمْ لَكَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

وَأَعْرِضُ عَنْ أَشْيَاءَ لَوْ شِئْتُ قُلْتُهَا

وَلَوْ قُلْتُهَا لَمْ أَتُكْ لِلصَّلَاحِ مَوْضِعًا

فَإِنْ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ صَيَّرَنِي شِعَارَهُ دُونَ

دِتَارِهِ ، فَقَدْ أَوْلَيْتُهُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي ، وَقَدْ عَجَمَنِي

(١) رهقنا : غشنا (٢) الهرير صوت الكلب دون النباح

(٣) والزير : صوت الأسد . والمراد هنا بيان أن هذا وصف

الأصوات المقاتلين حين البأس

وَسَبَرَنِي فَوَجَدَنِي وَفِيًّا شَكُورًا ، إِذْ لَمْ تَشْكُرُوهُ
وَلَا أَنْتُمْ مَعَهُ ، وَقَدْ طَلَبْنَا بِدَمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
— الْمَقْتُولِ ظُلْمًا — إِذْ لَمْ تَطْلُبُوهُ ، وَصَبَرْنَا لِقِرَاعِ
الْكِتَابِ وَظُبَاتِ^(١) الْقَوَاصِبِ ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ
— يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ — أَنْ تَعْفِرَ لِلْقَوْمِ مَا قَالُوا ،
وَتَتَعَمَّدَ^(٢) لَهُمْ مَا نَالُوا ، فَإِنَّهُمْ غَيْرُ عَائِدِينَ إِلَى أَمْرِ
تَكْرَهُهُ . فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : قَدْ فَعَلْتُ إِنَّهُمْ فَعَلُوا .
ثُمَّ نَهَضَ وَنَهَضَ الْقَوْمُ ، فَلَمْ يَكُنْ يَنْبَهُمْ فِي هَذَا
الْأَمْرِ مُعَاوِدَةٌ . . .



إِلَى هَذَا الْحَدِّ مِنْ قِصَّةِ الشَّيْخِ وَمُخْتَارَاتِهِ ،

(١) ظُبَات جمع ظُبة بالضم : وهى حد السيف (٢) يقال تعمدت فلانا : سترت ما كان منه وغطيته

نُحْسِكُ بِالْيَرَاعَةِ دُونَ التَّبَسُّطِ وَالْإِسْهَابِ ، مُرْجِيْنِ ،
مَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ مِنْ تَذَوُّقِ فَصَّاحِ الْأَسَالِيْبِ ، وَمُتَخَيِّرِ
الْعِبَارَاتِ ، مِنْ مَنْظُومِ الْقَوْمِ وَمَنْثُورِهِمْ ، وَتَقَهُمُ
الرُّوحِ الْأَدَبِيَّةِ ، وَاسْتِيعَابِ وَجْهَاتِ نَظَرِ الْمَدْرَسَةِ
الْقَدِيْمَةِ ، فِي دِرَاسَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، إِلَى كِتَابِنَا « التَّعْقِيبُ
عَلَى الْمُقَدِّمَةِ » آمِلِينَ بِتَيْسِيرِ اللَّهِ وَتَسْدِيدِهِ ، أَنَّ
نَسْتَطِرِدَ لَكَ فِيهِ بِطَرَفٍ مِنْ مَقُولَاتِ الشَّيْخِ ،
مُسْتَهْلِينَ لَكَ بِرِسَائِلِ عَصَمَاءِ لِأَبِي الْعَلَاءِ الْمَعْرِيِّ ،
وَالْمَأْوَرْدِيِّ ، وَشِهَابِ الدِّينِ الْحَلَبِيِّ ، وَابْنِ مِمَاتِي ،
وَعَلِيِّ بْنِ خَلْفٍ ، فَابْنِ قُتَيْبَةَ ، فَالْمُذَبِّرِ ، فَمُقْتَبَسِينَ
مِنْ مُخْتَارَاتِهِمْ مَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ ، فَعَابِرِينَ حَلْقَةَ
الِاتِّصَالِ ، فَمُنْتَهِينَ إِلَى خَاتِمَةِ « التَّعْقِيبِ » ، فَوَاصِلِينَ

إِلَى كِتَابِ « التَّذْيِيلِ » وَفِيهِ بَعْضُ مُخْتَارَاتٍ مِنْ
بَلِيغِ الْخُطْبِ ، فَبَعْضُ نَوَاحٍ مِنْ آرَاءِ الْعَصْرِ ،
وَمَدْرَسَةِ الْعَصْرِ ، فَمُنْتَقِلِينَ إِلَى كُتُبِ الْمَجَازَاتِ ،
وَالْمُتَرَادِفَاتِ ، وَالْأَمْثَالِ ، وَالْمَنْشُورِ ، وَالْمَنْظُومِ ،
وَالْتَّعْلِيْقِ ، وَهُوَ خَاتِمَةُ كُتُبِنَا فِي الْمُقَدِّمَةِ عَنِ الْأَدَبِ
وَبِذَلِكَ تَكُونُ هَذِهِ الْكُتُبُ الْعَشْرَةُ السِّلْسِلَةَ
الْأُولَى مِنْ هَذِهِ الْمَكْتَبَةِ ، رَاجِينَ أَنْ نَصِيبَ فِيهَا
سَهْمًا مِنَ التَّوْفِيقِ ، وَقِسْطًا مِنْ أَدَاءِ الْوَاجِبِ ،
وَمُعْتَذِرِينَ بِأَنَّا لَمْ نُفَصِّلْ لَكَ الْأَبْوَابَ فِيمَا رَوَيْنَاهُ
لَكَ ، لِأَنَّ قَصْدَنَا الَّذِي تَوَخَّيْنَاهُ مِنْ وَضْعِنَا هَذَا
الْكِتَابَ وَالْكَتُبَ الَّتِي تَلِيهِ ، أَنْ نُلِمَّ سَوِيًّا إِمَامَةً
جَامِعَةً مُوجِزَةً عَنِ الْأَدَبِ ، وَمُخْتَلِفٍ النَّوَاحِي فِي

دَرَسِ لُغَةَ الْعَرَبِ ، وَنَرْجُو أَنْ يُتَاحَ لِغَيْرِنَا الْمَزِيدُ
 فَيُفْرَدَ لَنَا كُتُبًا فِي النِّقْدِ ، وَالْأَخْلَاقِ ، وَالتَّارِيخِ ،
 وَالْقِصَّةِ ، وَالْجَدَلِ ، وَالتَّفْسِيرِ ، وَالْحَدِيثِ ، وَالْمَنْطِقِ ،
 وَفِي الْإِخْتِرَاعِ وَالِاجْتِمَاعِ ، وَفِي الْحَيَاةِ وَالنَّجَاحِ ،
 وَفِي السِّيَاحَةِ وَالشُّعُوبِ ، وَفِي السِّيَاسَةِ وَالصَّحَافَةِ ،
 وَفِي النَّفْسِ وَمُقَوِّمَاتِ النَّفْسِ ، وَفِي النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ ،
 وَفِي الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ ، وَفِي وَسَائِلِ التَّبَرُّجِ وَالتَّوْفِيقِ ،
 وَفِي الْكُتُبِ وَالْكِتَابِ ، وَفِي الْعَبَاقِرَةِ وَالْعِصَامِيِّينَ ،
 وَفِي الْوُظَيْفَةِ وَالْمُؤَظَّفِينَ ، وَفِي الْأَحْزَابِ وَالِدَّعَاوَةِ ،
 وَفِي الْحُرِّيَّةِ وَالِدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ ، وَفِي الْوُطَنِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ ،
 وَفِي الْحَضَارَةِ وَالثَّقَافَةِ ، وَفِي الْاِقْتِصَادِ وَالْمَدَنِيَّةِ ،
 إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ بَنَاتِ أَفْكَارِ الْعَصْرِ ، وَمَوْضُوعَاتِ

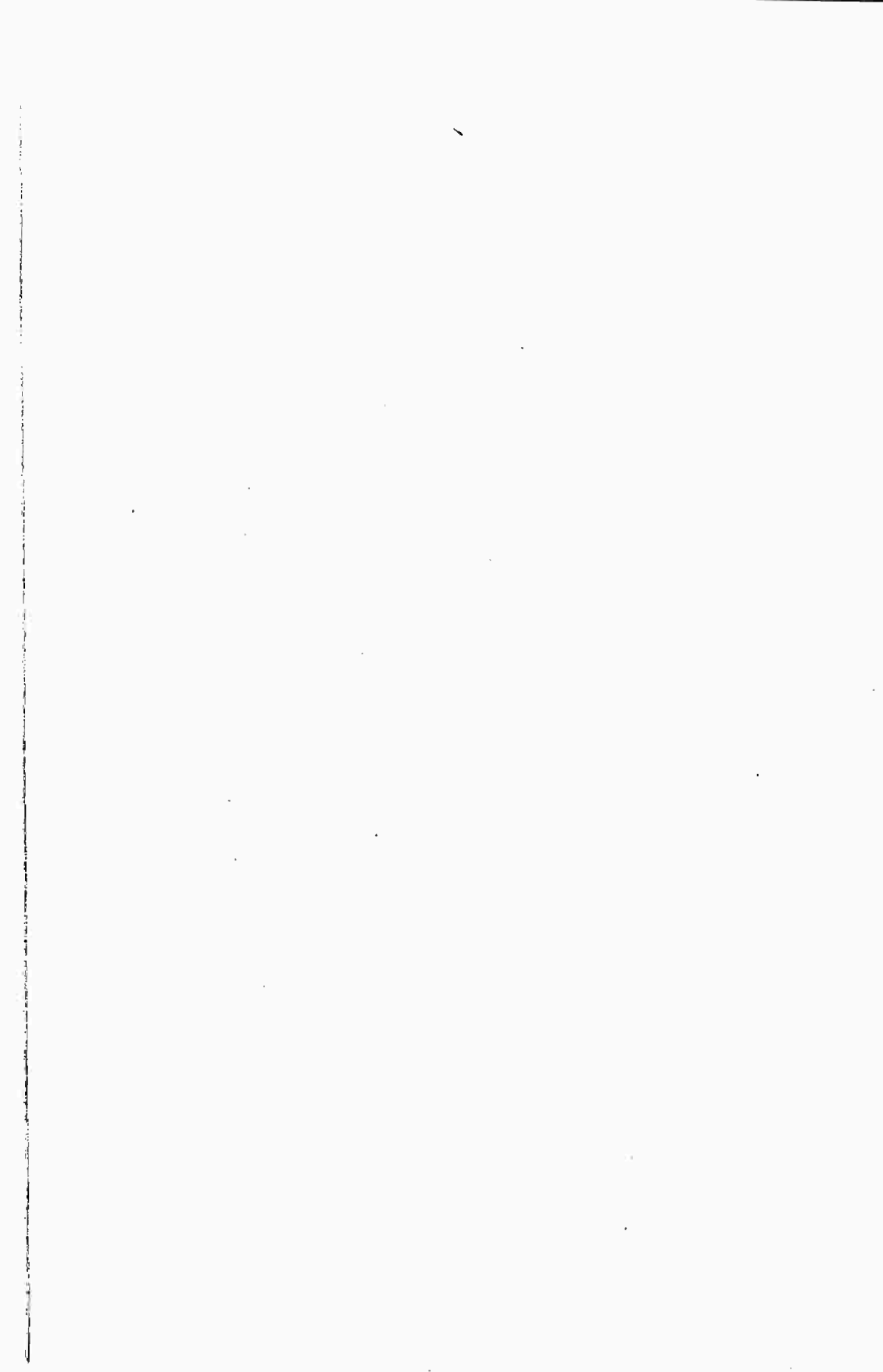
الْعَصْرِ ، وَحَاجِيَّاتِ الْعَصْرِ . إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ
 بِتَكْوِينِ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ،
 وَهَلُمَّ جَرًّا ، وَنَرْجُو أَنْ نَكُونَ فِي نِظَامِ هَذَا السَّلَكِ
 وَفِي غَمَارِ هَذِهِ النَّاطُورَةِ ، لِنُسَاهِمَ مَعَهَا هَذِهِ الْخِدْمَةَ
 الْأَدَبِيَّةَ لِلْوَطَنِ ، وَاللُّغَةِ ، وَالدِّينِ ، وَالْإِنْسَانِيَّةِ
 عَامَةً ، وَالثَّقَافَةَ خَاصَةً ، مَعَ الْعِنَايَةِ بِالْعُلُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ ،
 وَأَدَبِ الْفِقْهِ ، وَفَلَسَفَةِ التَّشْرِيعِ ، وَالْقُرْءَانِيَّاتِ ،
 وَالْإِسْلَامِيَّاتِ ، وَعُلُومِ الْكَلَامِ ، وَالْأُصُولِ ، وَمَعَ
 الْمُبَادَرَةِ بِوَضْعِ كُتُبٍ فِي مُسْتَقْبَلِ الشَّبَابِ ، وَالْجُنْدِيِّ
 الْمَجْهُولِ ، وَمَدْرَسَةِ الشَّعْبِ ، وَالتَّعْلِيمِ الْقَرَوِيِّ ،
 وَالنِّيَابَةِ وَالنُّوَابِ ، وَالْحُقُوقِ الْوَطَنِيَّةِ ، وَالْحَيَاةِ
 الدُّسْتُورِيَّةِ ، وَالْمَسْئُولِيَّةِ الْوِزَارِيَّةِ ، وَالدَّرَجَةِ

السِّيَاسِيَّةُ . وَكَذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُفَكِّرَ جَدِّيًا
 فِي وَضْعِ الْأُسُسِ الْأُولَى فِي مَشْرُوعِ الْمَوْسُوعَةِ
 الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ، بِتَجْدِيدِ طَبْعِ مَا وَضَعَهُ السَّلَفُ
 الصَّالِحُ فِي هَذَا الْبَابِ عَنْ جَهَابِذِهِمْ وَشُيُوخِ اللُّغَةِ
 وَالْأَدَبِ وَالْعِلْمِ لَدَيْهِمْ . . . لِتَكُونَ تُكَاةً وَعَتَادًا
 لَنَا أَوْ لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَنَا فِي هَذَا السَّبِيلِ بِمَنْهٍ وَفَضْلِهِ .
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا وَصَلَاةً وَسَلَامًا عَلَى نَبِيِّهِ
 وَمَنْ اصْطَفَى مَعَهُ



شكر

يشكر الطالب لحضرات السادة الامجاد أستاذة الجليل فضيلة
الشيخ عبد الخالق عمر الأستاذ بدار المعلم والطالب آية عباس حافظ
والهوانه بدار المطبوعات والأديب الفاضل الشيخ محمود منصور
وزملاءه صمحي دار المأمون فضلهم العليم في مراجعة هذه المكتبة
كما يشكر - في حسن تقدير - العناية الفائقة التي بذلتها
دار مطبعة المعارف معترفًا بهمة حضرة مديرها الرهام
الأستاذ شفيق مرقى في الطبع الأبيض والتجليد الرائع
سائلًا المولى الكريم التوفيق في البداية والنهاية



الفهرس

تنبيه - تعتمد المؤلف أن لا يضع عناوين لفصوله ، لأنه يعتبرها بمثابة قصة متصلة الحلقات في كتبه العشرة عن مقدمة الأدب ، وهي المقدمة ، والتعقيب ، والتذييل ، والمجازات ، والمترادفات ، والأمثال ، والمعلقات ، والمشور ، والمنظوم ، والتعليق وهو خاتمة كتاب المقدمة في الأدب وهي السلسلة الأولى من هذه المكتبة . لأن العنوان المستقل لكل فكرة مستقلة تعسف واغترار ، وادعاء واستهتار ، ولم يكن أسهل من زيادة كلمة لارضاء هذه الشهوة ، ولكننا نعمل على قول ارسطاطاليس « أحب أفلاطون ، ولكنني أحب الحق أكثر منه ، فلنحمد العادة ولنحمد أكثر منها ما هو منطقي وما هو حق وما هو واقع »

الموضوع	الصحيفة	
	من	الى
كلمة العماد الأصفهاني	٥	٧
الإهداء	٧	١١
المقدمة	١٣	
حاجة العربية إلى التجديد في فن القراءة	١٤	

الموضوع	الصحيفة	
	من	الى
برامج الدراسة العربية والأجنبية	١٥	١٦
نوع القراءة المطلوب	١٧	١٨
جهود ليمان أبوت وأسادون ديكنسون	١٩	
ضرورة الاقتداء بمؤلفاتهما في العربية	٢٠	٢١
قراءة كتب التجديد في المدارس والبيوت وأوقات الرياضة	٢٢	
موقف المؤلف بين العربية والانجليزية	٢٣	٢٤
مبدأ قصة المؤلف حين عزمه على الرحيل مع أستاذه الشيخ حمزه فتح الله	٢٥	
فذلكات عن ابن الجوزي والبغدادى وياقوت الحموى وغيرهم وتناج مجهوداتهم	٢٦	
قصة الغفير الفارابى ، وكيف صار عظيما	٢٨	٢٩
قصة ابن سينا مؤلف المائة وعشرين مجلداً	٣٠	٣٢
كلمة حمزه فتح الله في الجمع بين أدب الغرب وأدب العرب	٣٢	
كلمة ابن الجوزي في صيد الخاطر	٣٣	٣٥

الموضوع	الصحيفة	
	من	الى
قصة الخليفة مع العالم وكتبه	٣٦	
أمالى شعرية للشيخ حمزه فتح الله	٣٧	
قيس بن رفاعة	٣٩	
قصة الزجاج وكيف أصبح عظيماً	٤٠	
وصية خازن العميد أحمد بن محمد المعروف بمسكويه	٤٥	٤٢
تمهيد الكلام لجولات في النثر العربي في مختلف عصوره	٤٧	٤٥
النثر العربي في عصر الصحابة ورسالة عمر بن الخطاب		٤٨
لأبي موسى الأشعري		
رسالة أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل	٥٠	
إجابة عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح	٥٢	
ومعاذ بن جبل		
قصة أبي حيان على بن محمد التوحيدى	٨٥	٥٤
عهد على للأشطر النخعي	١٢١	٨٦
رسالة البصري في صفة الامام العادل كمثل سائر	١٢٦	١٢١
للنثر الأموى		

الموضوع	الصحيفة
مشاورة المهديّ لأهل بيته	من ١٢٧ الى ١٨٢
عهد طاهر بن الحسين وكلمة ابن طيفور عنه	١٨٢ ٢١٠
رسالة سهل بن هرون في البخل كمثّل للعصر العباسيّ	٢١١ ٢٢٤
استطراد للعصر العباسي ورسالة أبي اسحاق الصابيّ	٢٢٤ ٢٣٤
الأدب الأندلسيّ ورسالة ابن زيدون	٢٣٤ ٢٥٧
الأدب العربي في القرن الخامس وقصة الاسكافيّ عن	٢٥٧ ٢٦٧
الوطواط والحسن القطان	
استطراد في الوصايا والآداب في غير تمثيل لعصر	٢٦٧
أو أسلوب زمني	
وصية عبد الله بن شدّاد	٢٦٨
استطراد في الوصايا	٢٩١
رسالة ابن سعيد المغربيّ	٢٩٣ ٣٠٦
الأمثال التضمينية في انصاف الأبيات	٣٠٧
في الغزل لأبي صخر الهذلي	٣١٠
في المراثي مما كان يتمثل به علي بن أبي طالب	٣١٢

الموضوع	الصحيفة	
	الى	من
في العتاب رواية يزيد بن الحكم عن أخيه عبد ربه ابن الحكم	٣١٩	٣١٤
استطراد في نوع من القصص العربي		٣١٩
حديث المدائني بشأن جزع بني أمية حينما أدعى معاوية		٣٢١
زياد بن عبيد وما كان من وجد مروان بن الحكم وغيره		
الأبيات التي تمثل بها معاوية في قصة المدائني		٣٢٨
كلمة المؤلف في ختام المقدمة وتمهيده لكتاب التعقيب		٣٣٥
استحثاث العزمات للتأليف فيما تحتاج اليه البلاد		٣٣٧
شكر المؤلف	٣٤٢	٣٤١
الفهرس		٣٤٣

